رحلة الحشائشي

إلى ليبيا

سنة ١٨٩٥

‹ جلاء الكرب عن طرابلس الغرب ›

تأليف

محمد بن عثمان الحشائشي التونسي

١٨٥٥م - ١٩١٢م

تقديم وتحقيق

علي مصطفى المصراتي

دار لبنان

للطباعة والنشر

الطبعة الأولى
بيروت ١٩٦٥



محمد بن عثمان الحشائشي

١٨٥٥ - ١٩١٢ م

الإهداء

إلى مؤلف الرحلة الأديب التونسي — محمد بن عثمان الحشائشي .

إلى العالم الباحث استاذنا حسن حسني عبد الوهاب الذي حافظ على النسخة المخطوطة من الضياع .

إلى عمر طوسون الذي قدمها إلى دار الكتب المصرية حيث عثرنا عليها .

إلى هؤلاء ، وإلى كل من أحب وطني ليبيا المسلمة العربية .

أهدي هذه الرحلة في هذا الثوب .

علي مصطفى المصراتي

طرابلس الغرب — ليبيا
٧ نوفمبر ١٩٦٥

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا الكتاب

بقلم :
علي مصطفى المصراتي

من تأليف الأديب محمد بن عثمان الحشائشي التونسي وهو مزيج من التاريخ والرحلة .

فهو في جانب يقوم بدور المؤرخ للوطن الليبي لا سيما في عصوره الاسلامية العربية .

ومن جانب يدون في الكتاب مشاهداته وملاحظاته أثناء إقامته في طرابلس وبرقة وفزان وسائر أنحاء الوطن الليبي ..

وقد قام برحلته في أواخر القرن التاسع عشر ومشارف القرن العشرين .. عام ١٨٩٥ – أي منذ سبعين عاماً في أواخر عهد الحكم العثماني ، واضمحلال الادارة التركية – وقبيل إعلان ايطاليا الحرب على شعب ليبيا بحوالي ستة عشر عاماً .

وكان الصراع الايطالي الفرنسي على الصحراء ومناطق النفوذ يدور بعنف وراء « الكواليس » وبشتى الوسائل . وقد اهتم برحلة الحشائشي الفرنسيون وأهل الاستشراق وظلت مصدراً من مصادر التاريخ الليبي .

واهتم بها الدارسون والباحثون ، فقد ترجم هذه الرحلة إلى اللغة الفرنسية المسيو « سير » ، الذي كان مراقباً وملحقاً مدنياً بدار المقيم الفرنسي بتونس ،

والمسيو « ليون » الذي كان يشغل منصب مدير مصلحة مزارع الزيتون بتونس ..

وكانت الترجمة الفرنسية أيضاً بمساعدة الأديب التونسي « محمد الأصرم » ، وطبعت هذه الترجمة بباريس عام ١٩٠٣ م .

ولكن رحلة الحشائشي التي كتبها بالعربية لم تطبع ولم يرها الناس في لغتها الأصلية .

ورأيت أن أقوم بطبعها وتحقيقها وتقديمها للقارىء العربي لأنها مصدر من المصادر التي تتعلق ببلادنا العزيزة .. لا سيما وان بالرحلة مشاهدات وملاحظات دوّنها الحشائشي ذات قيمة علمية وتاريخية ..

وقد تناول تاريخ البلاد .. وتطورها في رحاب التاريخ وتكلم على الآثار والطرق والنشاط الاقتصادي والزراعة والصناعة .. والمساجـــد وأهل العلم والزهاد والعباد والمدارس والمعاهد .. والأسواق .. والتقاليد والعـــادات والأزياء .. وعوامل الطبيعة .. وتجوّل في المدن والقرى.. والفيافي والصحارى والواحات ..

وخص الجغبوب ومدرسته بفصل يعد من أهم المراجع عن الدور العلمي الذي قامت به .

وعن الحيـــاة في مدن طرابلس والسواحل .. والطوارق .. وفزان وغدامس .. فهو كتاب يُعد من حلقات الرحلات التي صورت ليبيـا وألقت الضوء على كثير من الجوانب .. فكيف يبقى مفقوداً في المكتبة العربية ..

لقد شغلت به منذ سنوات .

ووضعته في المخطط الذي أنوي إن شاء الله أن أكمله ولكن شغلتني ظروف وأحوال ..

ورأيت اليوم أن أعود إليه وأنفض غبار النسيان والإهمال عنه ..

ولا بد من تقديم لبعض المعلومات عن المؤلف محمد بن عثمان الحشائشي .. وملاحظات حول النسخة المخطوطة التي اعتمدت عليها .. وهي أمور لا بد من

تقديمها قبل أن نصحب الحشائشي في رحلته في ربوع الديار الليبية .

ملاحظات ومعلومات حول النسخة :

عنوان الكتاب هكذا :

« جلاء الكرب عن طرابلس الغرب » .

أو

النفحات المسكية في أخبار المملكة الطرابلسية .

وقد جرت العادة عند قدامى المؤلفين أحياناً أن يتخذوا لكتابهم أكثر من عنوان ، والنسخة مكتوبة على الآلة الكاتبة .

ومنها نسختان ، واحدة في دار الكتب المصرية بالقاهرة تحت رقم ٣٩٥٧ تاريخ . ونسخة بمكتبة بلدية الاسكندرية وهي تحمل رقم ٢٥٩١ — ب .

وستعلم في سطور قادمة كيف وصلت هاتان النسختان إلى القاهرة والاسكندرية ..

★★★

وفي الصفحة الثانية جاءت هذه الأسطر :

« يقول مالكه الآن حسن حسني عبد الوهاب عامل المهدية ، اشتريت هذه المخطوطة الموسومة بجلاء الكرب عن طرابلس الغرب ، أو النفحات المسكية في أخبار المملكة الطرابلسية ، تأليف صديق الوالد المرحوم ، محمد بن عثمان الحشائشي الشريف التونسي ، المتوفى خلال ١٣٣٠ هـ . ١٩١١ م . رحمه الله تعالى ، وهذه مسودته الأصلية وبخط يده ، اقتنيتها من تركته بعد وفاته ، وضممتها إلى مكتبة آل عبد الوهاب الصمادحيين بالحاضرة التونسية ، فرسمت بها تحت رقم ١٨٤ ، من آثارها التي بخطوط مؤلفيها .

فلله المنة بما أولى ، سبحانه الفضل بما أنعم .

امضاء

عبد الوهاب

وإن كانت لنا ملاحظة على هذا فإن النسخة التي اعتمدت عليها في الدراسة

والتحقيق ، وهي على الآلة الكاتبة ، تعتبر من أوثق الأعمال لأنها منقولة نقلا أميناً عن خط المؤلف من نسخته الوحيدة .

ويزيدها ثقة وأهمية أن نقلها وكتابتها على الآلة الكاتبة أي نسخة دار الكتب ، كان بإشراف عالم فاضل هو البحاثة حسن حسني عبدالوهاب التونسي وهو ثقة في التاريخ والإسلاميات .

غير أن هنا ملاحظة عابرة ، وهي أن الاستاذ عبدالوهاب يشير في الورقة الأولى إلى أن الحشائشي توفي عام ١٩١١ م . وقد يكون هذا سبق قلم ، أو لعله خطأ من كاتب الآلة .

وقد طالعت جرائد تونس في قسم المحفوظات بتونس ، فوجدتها تنشر خبر وفاة الحشائشي في عام ١٩١٢ ، وكذلك التأبينات التي نشرت في اليوم التالي لوفاته ، ومما يدل على أن هذا سهو من الناسخ ، لأن الاستاذ حسن عبدالوهاب أشار في ورقة في آخر صفحة من النسخة أن المؤلف الحشائشي توفي عام ١٩١٢م.

★★★

وإذا ألقينا نظرة على الصفحة الثالثة من النسخة المكتوبة على الآلة الكاتبة نجد قطعة من نظم المؤلف تحوي سبعة ابيات وهي :

هذا كتاب صاغه	فكري على ما أعلم
أما مفاهمك التي	هي أدق وأحكم
ما إن بلغت لشأوها	يا دهر فاعذر ترحم
إن كنت فيه غالطاً	غلط الذي هو أعلم
أو كنت فيه ساهياً	فلقد سهى المتكلم
يا دهر إني سائل	فأجب سؤالي تكرم
فأجابني أرخ لك	هذا ، كتاب ، قيم

١٥٠ ٤٣٣ ٧٠٧

———

١٣٣٠ هـ.

وهناك في الصفحة الرابعة قطعة أخرى من خمسة أبيات :

تم الكتاب فابشر بالمهمات وسرّح الفكر في روض الكمالات
هذا اقتراحك عني قد وفيت به وما اقتراحي على أهل السياسات
حسن الدعاء ولا أبغي به بدلاً لعاجز ذنبه ملأ السماوات
ورأى السرور على من قد تصفحه ونازعته بملك العين والذات
لذاك أنبأنا ذا الدهر مبتسماً بذاته أرخو حسن المسرات

★★★

ويبدو أن المؤلف كان يريد أن يضع هذه الأبيات في آخر كتابه ، ولست أدري كيف قفز بها في صفحات أولى من النسخة الأصلية .

وقد قام الاستاذ حسن حسني عبدالوهاب الذي عنده النسخة المخطوطة بنقل الكتاب على الآلة الكاتبة وأهداها إلى المرحوم الأمير عمر طوسون .

وهو بدوره قد أهدى منها نسختين مكتوبتين على الآلة الكاتبة ، واحدة لدار الكتب المصرية تحمل الآن رقم ٣٩٥٧ تاريخ ، كما أشرت سابقاً ، وكان إهداء المرحوم عمر طوسون النسخة لدار الكتب يوم ١٩٣٠/١١/٢٦ م .

★★★

والنسخة تحوي ٢٧٦ صفحة من القطع الكبير وله فهرس مطوّل بلغت صفحاته ١١ صفحة .

وقد صنع جميلاً المرحوم عمر طوسون الذي قدّم نسخته إلى دار الكتب وبلدية الاسكندرية فقد حفظت من الضياع وأمكننا أن نعتمد عليها .. وأقوم بنقلها حرفياً من نسخة دار الكتب المصرية .

وسافرت إلى تونس مرتين بحثاً عن ترجمة المؤلف وجمع المعلومات والوثائق عنه .. وطالعت الصحف التي كان يكتب فيها ..

وعثرت على أشياء من نتاجه ، ومع هذا لا يزال الشيخ الحشائشي في حاجة إلى دراسة من جوانبه الأخرى .

ومحمد بن عثمان الحشائشي قام برحلته إلى طرابلس الغرب عـام ١٨٩٥ م. ١٣١٣ هـ. كما أشار في أكثر من فصل من فصول الكتاب .

ولم يشر كم شهراً بقي في البلاد وإن كان يفهم أن مكثه كان أقل من عام .

جاب الصحارى والشطوط والواحات والقرى والمدن .

وهناك بعض المدن والمناطق التي لم يزرها مثل سرت ودرنة، فقد زار مدينة بنغازي عن طريق البحر بعد أن عرج على مالطة في الباخرة « العصمالي » .

كما أن عودته إلى بلاده كانت أيضاً عن طريق البحر فهو على ما يبدو لم يشاهد الصحراء التي بعد سرت وقبل بنغازي، ولكنه شاهد سرت وتحدث عن قبائلها .

وأفاض في القول والوصف على أراضي فزان ولا سيما مرزق التي أعجب بها وتحدث عن غات والطوارق والكافرة والواحـات .. في الشق الجنوبي والشق الشرقي من الوطن الليبي العزيز .

وقد تحدث عن السنوسية وأثرها وحركتها الأصلاحية والعلمية، وتعتبر رحلة الحشائشي من أخصب المراجع العلمية في هذا الميدان .

وسجل الحشائشي انطباعاته الخاصة وألواناً من الحوار والمسامرات بينه وبين أصدقائه من الليبيين .

وكان دقيق الملاحظة ، فحوت رحلته كثيراً من المعلومات والحقائق ، وقد كانت كتابته لرحلته على ما يظهر بدافع من إلحاح بعض أصدقائه من أهل العـلم والأدب من أبناء الوطن التونسي .. فهو يشير في المقدمة :

« سألني بعض الأحباء والأصدقاء النجباء الألبـاء من أهل العلم والأدب أن أحرر له كتابة مفيدة فيما يتعلق بتاريخ طرابلس الغرب ، علماً منـه أني أحسن هذا المطلوب حيث اشتهرت سياحتي في تلك المسالك والدروب ومكثي بين تلك الفيافي والشعوب » ..

وقد حاول محمد الحشائشي أن يعتذر ويتخلص على زعمه في المقدمة وهو يؤكد ويبرر الاعتذار بأنه لم يجد تاريخاً خصت به طرابلس الغرب فيقول :

« والحال إني لم أظفر بتاريخ يخص هذه البلاد ، فلا كتابة مفيدة يكون عليها الاعتماد ، إلا ما تصفحته من الرحال ، وبعض من يعتمد عليهم من فحول الرجال ، على ما شاهدته الباصرة وقيدته الفكرة القاصرة ، وبعض ما ذكره المؤرخون على سبيل الاستطراد فيما يتعلق بأحوال البلاد » اهـ.

وهنا نعجب من الرجل العالم الرحالة الذي اهتم بتاريخ البلاد ونقّب عنها في كتب التاريخ العامة والخاصة والرحلات القديمة والحديثة، والنادرة والمخطوطة ولم يظفر بتاريخ يخص هذه البلاد ..

ولئلا تكون عبارته هذه تدفع للظن بأنه لا يوجد تاريخ اختص ببلاد طرابلس .. أي ليبيا .. فإننا نشير هنا دفعاً لهذا الالتباس .. فهناك كتب خص بها مؤلفوها تاريخ طرابلس الغرب ..

قديماً .. مثل «محمد بن مخلوف الطرابلسي» الذي كان في القرن الخامس الهجري، وقد أشار إليه ياقوت الحموي في معجم البلدان جـ ٦ ص ٣٦ قائلاً :

« وأبو الحسن علي بن مخلوف الطرابلسي ، كان له اهتمام بالتواريخ **وصنّف تاريخاً لطرابلس** أخذ عنه السلفي وسافر إلى الحج وأدركته المنية بمكة عام ٥٢٢ هـ » اهـ .

وهناك أحمد البهلول الأديب الطرابلسي الذي ألف كتاباً في تاريخ طرابلس أشار إليه ابن غلبون واعتمد عليه ولكن في الواقع هذان الكتابان لا يزالا في حيز الفقدان .. ولم يعثر عليهما الحشائشي ولا غيره .. ولكن الأعجب من هذا ان يشير المؤلف في رحلته أنه لم يظفر بتاريخ يخص طرابلس الغرب. ونحن نسأل : وأين « التذكار في تاريخ طرابلس وما كان بها من الأخبار » الذي ألفه احمد بن غلبون ..

وأين كتاب « المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب » لأحمد النائب ..

ولكن هلا سمع ، على الأقل ، بوجودها ، وهو بلا شك ، كان في رحلته وجولاته دأبه السؤال عن العلماء والمؤرخين ، وقد جالس الأدباء والمفكرين

بالبلاد وقد يكون تاريخ « التذكار » لابن غلبون أوان ذاك لا يزال مخطوطاً ، ولكن هناك تاريخ المنهل لأحمد النائب كان في عصر الحشائشي مطبوعاً .. إذ كانت طباعته بالآستانة عام ١٣١٧ هـ. ١٨٩٩ م .

وكان كتابه « المنهل » متداولاً ، وكانت رحلة الحشائشي إلى طرابلس عام ١٨٩٥ م. ولكن من المعروف أن الرحلة التي بين يدينا في صورتها الأخيرة فرغ منها الحشائشي عام ١٩١٢ م. أثناء الحرب الإيطالية – الليبية .

كما غفل المؤلف عن المصادر المستحدثة التي كانت متداولة مثل « سلنامة طرابلس الغرب » المطبوعة بالتركية والعربية .. وكانت موجودة متداولة عام ١٣١٢ هـ. ١٨٩٤ م. أي قبل أن يأتي الحشائشي لزيارة ليبيا .. أو العام الذي كان موجوداً فيه بطرابلس وصدرت منها أعداد بها معلومات وإحصائيات ..

وعلى أية حال إن إغفال المؤلف لهذا أو ذاك لعدم عثوره عليه ، أو سماعه به ، قد عوضه بمراجع تاريخية هامة ، واعتمد على مصادر قيمة ، وكتب من الرحلات .

فمواد الكتاب اعتمدت على :

١ – كتب التاريخ .
٢ – كتب الرحلات .
٣ – مشاهداته الخاصة وملاحظاته وانطباعاته .

كتب التاريخ مثل : تاريخ عبد الرحمن بن خلدون ، وتاريخ الوزير السراج الأندلسي، وتاريخ الإدريسي، وابن الشباط – في شرح الشقراطسية – والمؤنس لابن أبي دينار ، وتاريخ الزركشي وغيرها ..

وكتب الرحلات مثل : العبدري ، والتجاني التونسي ، وأحمد بن ناصر ، والعياشي ، ومحمد بيرم ..

من كل هذا أخذ المؤلف نقولات ونصوصاً ، بل أحياناً ينقل فصلاً برمته كما فعل مع رحلة التجاني .

وأهم من هـذا أو ذاك مشاهدات المؤلف الشخصية ، وانطباعاته الخاصة ، والملاحظات التي دونها عن البلاد والناس، والمسامرات والحقائق والمعلومات التي استقاها والصور التي سجلها عن واقع البلاد وحالة المجتمع في ليبيا في آخر عهد الحكم العثماني، وقبل الغزو الإيطالي. هذا الجانب هو الذي أعطى للكتاب نكهة خاصة وصفة مميزة ، إذ أن المعلومات التاريخية والمشاهدات التي سجلها غيره من الرحالين الذين سبقوه تجدهـا في كتبهم .. ومن غير شك أن صوره وانطباعاته الخاصة هي التي ظهر فيها مجهوده ، واتضح فيها عمق إحساسه ، ودقة انتباهه .

والملاحظ في فصول الكتاب وترتيبه أن المؤلف لم يسر فيه على نظام وترتيب بل هو ينتقل من بلد إلى وصف بلد آخر ، ثم بعد فترة يعود إليه ، وقد يتحدث عن بلد في ساحل طرابلس ثم يقفز إلى صحراء فزان وغات وغدامس ، ثم يعود إلى الشاطىء والساحل .. ويتحدث عن بلد في الشق الشرقي، ثم يقفز إلى الجنوب ويعود مرة أخرى ، كما سيلاحظ القارىء أو القارئة .. وهذا إن دل على شيء فيدل على أن الكتاب لم يسجله على نمط المشاهدات واليوميات بل جلس بعد فترة ليكتب ويتذكر ولعله في مسودته لم يعد إلى ترتيبه ولم يعكف على تنسيقه .. مع أنه طبع بالافرنسية ..

وبهذه المناسبة يجدر بنا أن نشير هنا إلى أن الطبعة الفرنسية لم تتضمن الإشارة إلى الفصل الأخير الذي عقده عن حالة الحرب والجهـاد في طرابلس ، إذ طبع في اللغة الفرنسية قبل الهجوم الإيطالي على الشعب المجاهد فالرحلة هذه كتبت في أصلها الأول عام ١٨٩٥ م. أو بعد قليل من عودته .. ثم أضـاف إليها فصولاً وتعليقات عام ١٩١٢ م. فيمتاز الكتاب في شكله العربي بإضافات مفيدة .

★★★

وقد أحببت أن أقدّم كتاب الحشائشي إلى القارىء العربي ، وقد بذلت فيه جهداً ، وكان عملي يشمل الأمرين التاليين :

١ – تصحيح النسخة من الأخطاء .

٢ – تصحيح ضبط الأعلام والتعريف بها .

فالحشائشي يذكر اللقب المشهور للعلم من غير تعريف، مثلاً يقول: العبدري، ابن الشباط، الشيخ مرعي، مقيدش ..

ومن هو مقيدش ؟! من هو الشيخ مرعي ! لا يذكر تكملة الاسم ولا يشير إلى العصر .

والكتب أيضاً في كثير من المواطن لا يذكرها بالاسم. فيقول كتاب فلان ! وما هو اسم الكتاب .. كان المؤلف يكتفي بالشهرة، كأن الناس كلهـــا على شاكلته يعرفون الكتب بالاشارة والرمز ..

وقد صنع هذا في سائر الاعلام والكتب .. فجعلت هوامش ترجمت فيهـا للأعلام وأشرت فيها لأسماء الكتب وعناوينها .

٣ – صححت كثيراً من النقاط وقابلت بين ما نقله وبين المصــــدر الأصلي وغالبه من المخطوطات .

٤ – قمت بالبحث عن ترجمة المؤلف وحياته .

٥ – وهناك أخطاء وقع فيها غالباً لسهو أو عدم وجود المصدر لديه أثنــاء الكتابة فقمت بتحقيق هذا وأشرت في الهوامش لكثير من هـــذه النقاط التاريخية وغيرها .

٦ – وجعلت فهارس في آخر الكتاب :

- فهرساً للأعلام .
- فهرساً للبلدان .
- فهرساً للشعوب والقبائل .
- فهرساً للكتب التي وردت في الكتاب سواء في الأصل أم الهوامش .

ترجمة المؤلف

محمد بن عثمان الحشائشي من ادباء تونس في أواخر القرن التاسع عشر .

كان مولده بمدينة تونس ٢٦ رمضـان عام ١٢٧١ هـ. ١٢ يونيه ١٨٥٥ م — وهو من أبناء البيوتات التي تنتمي إلى الأشراف — وكان إمضاؤه ولقبه يضـاف إليه كلمة الشريف . ووالده « عثمان الحشائشي كان عمـدة التوثيق ومن شيوخ جامع الزيتونة ، ومن الموظفين في الإدارة التشريعية .

وقد عني هذا الشيخ بتربية ولده فبعد أن حفظ محمد عثمان الحشائشي القرآن الكريم انخرط في سلك طلاب جـامع الزيتونة للدراسة ، واغترف من ذلك الينبوع الذي كان يتدفق بألوان الثقافة الاسلامية العربية ، وتلقى دروس الفقه والتوحيد والتفسير واللغة والأدب وغيرها على المنهج الذي كان يسير عليـه الأساتذة والطلاب في تلك الحقب .

وهي لا تبعد ، بل لا تختلف عن مناهج وحلقات الجـامع الأزهر بمصر وجامع القرويين بفاس .

وكان من بين أساتذته الذين درس عليهم واستفاد منهم من علماء بلده ، سالم بو حاجب ، محمود بن الخوجة ، عمر بن الشيخ ، أحمد الورتناني ، ومحمد بيرم .

وهذا الأخير هو الكاتب الأديب الذي هـاجر إلى مصر ودفن بحلوان .

والتقى محمد الحشائشي مع هؤلاء من رجالات وأساتذة ذلك الجيل من الذين كانت تمتلىء بهم حلقات التدريس في تونس ، وتزدحم بهم مجالس العلم والفضل .

ورغم حوالك الوضع السياسي ، وتسلط السيطرة الاستعمارية ، كانت حلقات الدراسة الزيتونية كوات ومنافذ ينبثق منها نور المعرفة ، ويدوي في جنباتهـا صدى التفكير الإسلامي. وكان أغلب ملازمة « محمد الحشائشي » لاستاذه الشيخ

« احمد الورتناني » ..

ونال شهادة التطويع من الجامع الزيتوني ..

وتقدم للتدريس والإفادة .

وعمل بجانب التدريس والثقافة لشرعية في حقل الأدب وعالج الكتابة ..

وحاول الشعر على منهاج التقليديين ..

وكتب في صحافة عصره ..

ولمس فيه معاصروه غرامه بالكتب، وهوايته للأدب وفنونه، شيمة المثقفين في تلك البيئات ..

ولكن شيئاً آخر كان يميزه عن كثير من أقرانه ومعاصريه، هو حبه للتجوال، وإقدامه على الترحل والأسفار .

فهو جوّابة آفاق – وإن كان في نطاق محدود – يجوس خلال الديار والأطلال .

ويمضي متنقلاً هنا وهناك ليشاهد المدن والقرى والسواحل في شواطىء بلاده، ومضارب الخيام في البادية يرحل داخل بلده ثم يدفعه حب الترحال إلى المغامرة بالسفر في جوف الصحارى والقفار المترامية الأطراف، والواحات البعيدة الوعرة المسالك، ليشاهد ويستطلع جديداً .. ويسجل هذا شعراً أو نثراً مسجوعاً أو في شكل رسالة صغيرة، أو كتاب كبير، يدون فيه ملاحظاته ويقيد مشاهداته ..

ولعل قراءته لكتب الرحلات، لا سيما الرحالين من أهل بلده الذين سبقوه برحلات أطول وأشق .. لعل هذه المطالعات كانت من الحوافز التي دعته إلى أن يذهب متجولاً .. وتتعدد سفر ته ورحلاته في الصحارى والشطوط ..

فقد سبقه على مختلف العصور إلى الرحلة والكتابة أمثال ابن جبير وابن بطوطة والتيجاني التونسي، والعبدري، وابن ناصر، والعياشي، ولكن هؤلاء وأمثالهم من المغاربة الذين سجلوا لنا رحلاتهم الطريفة المفيدة في الغالب كان مقصدهم والدافع الأول الحج لى بيت الله، أو طلب العلم ..

أما محمد عثمان الحشائشي ، في رحلته هذه ، فلم يكن مقصده التوجه للمشرق لأداء مناسك الحج .

ولم يكن مقصده الذهاب للأزهر لطلب العلم، أو تصيد التقييدات والرواية، إنما كانت غاية رحلته إلى ليبيا مدناً وقرى وصحارى على ما يبدو ، الاكتشاف، والدراسة والاستطلاع على أحوال هذا البلد والقطر المجاور لبلده .

وإن كان التجاني أيضاً في القرن السابع الهجري قد خص طرابلس بكتاب ورحلة .. إلا أن التجاني كان قد اضطر إلى البقـاء في مدينة طرابلس لظروفه الخاصة ولم يستطع مواصلة خطة السير التي ابتغاها ..

والفرق بين الحشائشي هذا .. والتجاني ذاك .. أن الأول عاد لبلده ليكتب بعد أن شاهد بلداناً وقرى وصحارى وواحات لم يشاهدها غيره من الرحالين.. وفي ظروف قاسية صعبة .

★★★

ومؤلف هذا الكتاب .. أو صاحب هذه الرحلة كما وصفه الذين عرفوه وكما قال لي عنه مواطنوه عندما سألتهم عنه ..

كان رجلاً حلو الطباع ، سمح الصدر ، فكهاً صاحب دعابة ..

تغلب على مجالسه روح المنادمة والمرح ، سريع البديهة ، قوي الذاكرة ، واسع الحفظ ، غزير الإطلاع ، يمتلأ صدره بالشواهد والمحفوظات ..

★★★

وقد كان من جيل الأدباء المرحين ذوي المزاج الدعابي والفكاهة الطريفة ، وإن كان هذا في الواقع لا يظهر أثره في كتابه هذا أو رحلته هذه ، وإنما يظهر من الكتاب الجانب الآخر وهو شغفه بتتبع التاريخ، وتسجيل أحوال الماضين، وجمع الحقائق والطرائف من أمهات المصادر والمراجع ، ودقة الملاحظة ..



وقد شغل « محمد الحشائشي » مركز متفقد خزائن الكتب بجامع الزيتونة ، وهي من أخصب المكتبات في العالم الاسلامي فقام بتنسيقها والمحافظة عليها .. وهو شيء يتطلب الخبرة والجهد ..

وإشرافه على خزائن الكتب القيمة مكنه أيضاً من إشباع رغبته في الإطلاع على المصادر والمراجع الهامة من كتب الأدب والتاريخ والرحلات ..

★★★

وقدم محمد الحشائشي للمستشرقين والافرنسيين خدمات في المجـال الثقافي ، فكان يقصده الباحثون عن الطرائف والدراسات الإسلامية العربية ، فيجـد المستشرقون والعلماء عند الحشائشي الخبرة الأصيلة ، ومعرفة المصادر القديمة ، ومراجع المخطوطات ، ومظان وجودها .

ذلك التراث الخالد الذي استفـاد منه الافرنسيون والباحثون عن مجالات النشاط الفكري عند العرب ..

وقد اكتسب الشيخ الأديب من أسفـاره وجولاته داخل بلده في المـدن والقرى ، خبرة بالعادات والتقاليد والأوضاع الاجتماعية .. وفنون « الفلكلور » ..

ومن هنا أيضاً استفاد منه كثير من أهل الاستشراق من الغربيين وخاصة الافرنسيين، الذين استغلوا مواهب ومعلومات محمد الحشائشي، استغلوا مجهوداته وخبرته ونشاطه الذهني في عهود الحماية وعهود البايات .

فكان كما حدثني أبناء وطنه من الذين عرفوا أحواله، يقوم بكتابة الدراسات والبحوث العلمية ويقدمهـا لبعضهم بالسفارة الفرنسية ، أو دار المعتمد الفرنسي كما كانت تعرف بهذا الاسم آنذاك ..

وكم استغلت عهود الاستعمار في الوطن الاسلامي العربي من مواهب .. وكم امتصت من مجهودات علمية ..

وكان من الضحايا الذين تبعثرت مجهوداتهم هذا الكاتب الأديب محمد الحشائشي

صاحب هذه الرحلة ..

ولا نزعم أن المؤلف كان عبقرياً منقطع النظير ..

ولكننا نستطيع أن نؤكد أنه كان من طراز المثقفين الأدباء والشيوخ العلماء ذوي الاطلاع الواسع .. والذكاء الفطري ، ومن أدباء المجالس والأسمار .

★★★

وهناك جانب آخر من نشاطه الذهني، فقد كان ينظم الشعر على نمط مدارس عصره .. في الموضوعات التقليدية ..

قصائد « كلاسيكية » الجرس والإيقاع .. والمضمون والإطار .. فهو ينظم في المدح والتهاني والرثاء ..

وهو يرسل «القوالب» في وصف الآثار والأطلال.. ويشطّر.. ويضمّن .. وينظم أنواعاً من الأبيات ذات الأرقام التاريخية في الشطرات الأخيرة.. كخواتم الرصاص التي تختم بها الأكياس والجوالات ..

وأكثر منظوماته التي عثرنا عليها كان من شعر المناسبات الخاصة ، أو المناسبات العامة ..

ومن أشكال نظمه ما نشره في جرائد تونس أوان ذاك ، وعلى صفحات جريدة « الزهرة » ..

أو في كتاب « الرحلة الفلبيارية » وهو سجل جمع فيه « محمد بن الخوجة » أوصاف وبرامج رحلة رئيس الجمهورية الفرنسية مسيو فليار إلى تونس عام ١٩١٢ م. ١٣٣٠ هـ.

وأيضاً هناك قطع ومنظومات للحشائشي في ثنايا هذه الرحلة التي قام بها إلى طرابلس الغرب عام ١٨٩٥ م .

وأيضاً في رسالته الصغيرة التي أطلق عليها « رحلة الشتاء » والتي طبعها في تونس .

وهذه الأشعار سواء في الصحف أو الكتب هي بصفة عامة من أنواع

شعر الفقهاء والمقلدين .

لا تدفعه إلى حلبة الشعر بل تزج به في حلقات النظامين وأصحاب القوافي والتفعيلات ..

ولكنها مع هذا ، إذا تركنا جانب النقد الفني وموازين الابداع فإن منظومات محمد الحشائشي تعطي صورة عن الجو الذي عاشه والمحيط الذي كان يعيش فيه الأدباء والمثقفون في تلك الآماد ..

★★★

ومن أطول قصائده وأشهرها تلك المطولة التي خاطب بها أطلال قصر « الجم » ويزيد عدد أبياتها على الثلاثمائة بيت ومطلعها :

للجم أطلال تلوح كأنجم لكنها وجمت ولم تتكلم
يبدو به القصر الذي شرفاته شدت بأذيال السها والمرزم

★★★

وقصر « الجم » هذا هيكل طوله ثلاثمائة ذراع في عرض مائتين ، بناه الرومان أيام استيلائهم على تونس ، حوالي المائة الثانية للميلاد ، وتحدث عنه الرحالة التجاني قائلاً :

« ومنه كانت العرب ترصد النجوم » .

وقد بحثت عن قصيدة الحشائشي في وصف قصر « الجم » فما عثرت عليها كاملة.. ويبدو أنها ضاعت في أوراقه التائهة .. ومع الأسف تبعثر تراث الرجل وتاهت أوراقه الكثيرة ..

★★★

وكما كتب الحشائشي عن تونس وليبيا والصحراء كتب أيضاً مشاهداته عن باريس والحياة فيها والمعرض الذي شاهده .. ويصور ما أدهشه من عجائب

الصناعات وبدائع الفنون ، وكانت رحلته إلى باريس كما أشار في كتابه هـذا عام ١٩٠٠ م .

★★★

ومن طرائف ما سجله في كتاب صغير رحلة قصيرة محلية في بلده بمناسبة دعوة لحضور عرس لأحد أصدقائه وهو الحاج محمد بن خليفة ، وكانت الرحلة في باخرة من العاصمة تونس إلى ميناء سوسة ..

وبدأها الكاتب الأديب واصفاً الجولة ومشاهداته ، ولكنها جاءت على شكل مقامة مسجعة ، وأطلق عليها هذا العنوان : « رحلة الشتاء أو العهد الوثيق في هناء الصديق » . وحرر الرحلة في يوم **٢٥** رجب **١٣١٢ هـ. ١٨٩٥**م. في **٢٣** صفحة وحروف طباعتها دقيقة جـداً .. وطبعت في المطبعة العمومية بتونس .

وفي صفحتها الأولى يقول طالباً من القراء النصح والعفو :

أطلب من كل من قد طالع	هذه الرحلة عن محض افتنان
أن يغض الطرف إني عاجز	عن مجاراة الألى أهل البيان
وإذا أطربه معنى فـلا	بأس بأن يدعو إلى العبد المهان

إنها صورة من تأثيرات الشعر في عصور ركوده وجموده .

ولكن حالة التواضع التي يرسمها في كتاب « رحلة الشتاء » يضع بجانبهـا أبياتاً أخرى قائلاً :

كتاب ذكرنا بألفاظـه	عهوداً زكت بالحمى واللوى
كأن المبـاسم ميماته	ولاماته الصدغ لما التوى
وأعينه بعيون الحسان	تعازلنـا عن ذكر الهوى

★★★

ومؤلفات الحشائشي التي عرفت هي :

١ – جلاء الكرب عن طرابلس الغرب الذي نقدمه للقارىء الكريم .

٢ – رحلة الشتاء .. طبعت في تونس كما أشرنا آنفاً .

٣ – وصف معرض باريس الذي زاره عام ١٩٠٠ .

٤ – كتاب في العادات والتقاليد لا يزال مخطوطاً .

٥ – كتاب الرحلة الصحراوية وهو كتاب أشار إليه في ثنايا كتابنا هذا .

٦ – ديوان شعر .

ولعل الأيام تكشف لنـــا عن مؤلفات أخرى فقد بيعت تركته وتبعثرت أوراقه .

وقد كانت وفـاة المؤلف يوم الثلاثاء ٣ ذي الحجة ١٣٣٠ هـ. ١٩١٢ م. في العام الذي فرغ فيه من كتابة رحلته هذه بعد أن أضاف إليها فصولاً .. رحمات الله عليه .

علي مصطفى المصراتي

طرابلس الغرب – ليبيا
٧ نوفمبر ١٩٦٥

جَلاء الكرب عن طرابلس الغرب

مقدمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وسلم

يا من تنزه عن الجهة والمكان ، واستحال أن تحيط بكنهه فكرة إنسان ، كرمت بني آدم بالفكر والهداية ، ورفعت بعضهم على بعض درجات في العلم والملك والحكمة والدراية ، ملأت كونك المحيط بما انتشر من مخلوقاتك ، فوق صعيد ذلك البسيط ، الذي أحكمت صنعه بباهر آياتك ، سبحانه من خالق حكيم ، ومتقدس متنزه عليم ، خصص بني آدم فاصطفاهم ، وجعلهم شعوباً وقبائل ليتعارفوا إن أكرمهم عند الله أتقاهم ، ثم أودع في قصصهم عبرة لمن اعتبر وذكرى لمن سبر حياتهم ونظر ، فلا زالت أقلام الخلق تفيض علينا بمعنى حوادث من سلف ، ومن قيد ما شاهد فقد أهدى أسراراً ، ومن كتب التاريخ فقد زاد في عمر من يخلفه أعماراً .

ليس بإنسان ولا عاقل	من لم يـع التاريخ في صدره
ومن وعى أخبار من قد مضى	أضـاف أعمـاراً إلى عمره

فحق على مريد الانتفاع أن يبلغ من بعده ما شاهد أو سمع ان استطاع .

لقد غرسوا فأكلنا وإننا	لنغرس حتى يأكل الناس بعدنا

والصلاة والسلام على أشرف من تعلم ووعظ بذكر من مضى وعلم ، سيدنا

محمد المرسل بالهدى والبيان المنزل على قلبه قل سيروا في الأرض في كثير من الآيات ، وعلى آله وأصحابه نجوم هذا العالم الباذلين الجهد في انتشار دين الحق ومنع المظالم فملكوا المعمور من غير اختراعات ، وعفروا وجوه من طغى بغير آلات رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم ، وحشرنا في زمرة من اتبعهم واقتفاهم .

أما بعد :

فقد سألني بعض الأحباء والأصدقاء النجباء الألباء ، من أهل العلم والأدب، أن أُحرر له كتابة مفيدة فيما يتعلق بتاريخ طرابلس الغرب ، علماً منه أني أحسن صنع هذا المطلوب حيث اشتهرت سياحتي في تلك المسالك والدروب ، ومكثي بين تلك القبائل والشعوب، فبت أقدم رجلاً وأؤخر أخرى ، اتردد في الإقدام والإحجام، لا أدري أيهما أحرى، ولما وقع الإلحاح في المسألة، وتواردت علي في هذا الغرض عدة أسئلة استخرت الله في الموضوع وطلبت منه فيض مدده الرباني للإستعانة على المشروع راجياً من ذوي الاحسان وأهل الفضل والشان ، غض الطرف عن الخطأ والنسيان . فإني أول معترف بقصور الباع ، وعدم الاستطاعة والاطلاع .

فقلت لهم لا تتركوا الفضل عنكم
فليست ترى عين الكريم سوى الفضل

فكتبت ما تيسر ، وإن كان شيئاً يسيراً لكنه بالنسبة لأمثالي قد يعده المنصف خيراً من الله كثيرا ، و لحال أني لم أظفر بتاريخ [1] يخص هذه البلاد ، ولا كتابة مفيدة يكون عليها الاعتماد ، إلا ما تصفحته من الرحال ، وبعض من يعتمد عليه من فحول الرجال ، مع ما شاهدته الباصرة ، وقيدته الفكرة القاصرة ،وبعض ما ذكره المؤرخون على سبيل الاستطراد ، مما يتعلق بأحوال

---

(١) مع ان هناك المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب تأليف أحمد النائب وقد طبع بالآستانة عام ١٣١٧ هـ وهناك تاريخ طرابلس الغرب لابن غلبون فضلاً عن تواريخ أخرى مخطوطة من العجب ان الحشائشي لم يطلع على كتابي النائب وابن غلبون !!

هذه البلاد من الرحال ، رحلة العلامة العبدري [1] . والتيجاني [2]والعياشي[3] والشيخ أحمد بن ناصر[4] ، والشيخ محمد بيرم التونسي [5] ، ومن التواريخ تاريخ العلامة ابن خلدون التونسي ، وتاريخ الوزير السراج الاندلسي ثمالتونسي ، المسمى بالحلل السندسية في الاخبار التونسية ، وتاريخ الادريسي [6] تكلم فيه على جغرافية الأعمال الأفريقية منها طرابلسالغرب وتاريخ بن الشباط وأعني به شرح الشقراطسية [7] وتاريخ حسن البيان عما بلغته أفريقيا في الاسلام من

---

(١) محمد بن محمد العبدري المغربي كانت رحلته للحج من بلاده عام ٦٨٨ هـ ومر بتونس وطرابلس والاسكندرية في طريق الذهاب والاياب ورحلته لا تزال مخطوطة ، وقد وصف طرابلس وبرقة وحصل له في مسجد طرابلس صدام مع قاضي البلد فهجا البلد وتصدى للرد عليه الشاعر أحمد بن عبد الدائم الطرابلسي ... وشرح القصيدة المؤرخ ابن غلبون .. راجع وصف الرحلة وترجمة العبدري في كتاب «الرحالون العرب وليبيا» تأليف علي مصطفى المصراتي.

(٢) ابو محمد عبدالله بن محمد التجاني التونسي كانت رحلته الى طرابلس عام ٧٠٦ – ٧٠٨هـ أي في مطلع القرن الثامن الهجري ومكثبطرابلس عامين ورحلته من أخصب الرحلات وأوثق المصادر عن تاريخ البلد ووصف آثارها وعلمائها ... طبع الرحلة وحققها تحقيقاً علمياً استاذنا حسن حسني عبد الوهاب وطبعت بتونس عام ١٩٥٨ .

(٣) عبدالله بن محمد ابو بكر العياشي من مدينة فاس ، رحل من المغرب الى المشرق ووصف طرابلس وبرقة وكان من رجالات القرن الحادي عشر الهجري ولد عام ١٠٣٧هـ وتوفي١٠٩٠هـ ١٦٢٧ م ١٦٧٩ م والرحلة طبعت بفاس في جزئين وأسماها « ماء الموائد »

(٤) احمد بن محمد بن ناصر الدرعي المغربي له الرحلة الناصرية مر على ليبيا عام ١١٢١ هـ في القرن الثاني عشر الهجري طبعت رحلته بفاس في جزئين .

(٥) محمد بيرم التونسي المعروف ببيرم الخامس رحالة وكاتب هاجر الى مصر ١٢٩٨ هـ وله كتاب « صفوة الاعتبار بمستودع الامصار» طبع بمصر خمسة أجزاء عام ١٣٠٢ هـ توفي بيرم الخامس عام ١٨٨٩ م

(٦) الجغرافي الكبير ابو عبد الله محمد الادريسي طاف بالاندلس وذهب لصقلية وله رحلات في آفاق العالم وألف كتاب « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » ولد الادريسي عام ٤٩٣ هـ ١٠٩٩ م وتوفي عام ٥٦٢ هـ ١١٦٦ م وكتابه طبع بليدن وحقق تحقيقاً علمياً بمطبعة بريل عام ١٨٩٤ م.

(٧) القصيدة الشقراطيسية ـ في السيرة والتاريخ لامية من نظم محمد بن يحي بن علي الشقراطيسي متوفى سنة ٤٦٦ هـ ١٠٧٣ م وقد شرحها الناظم كما شرحها ابن الشباط الذي أشار اليه الرحالة .

السطوة والعمران، للعلامة النحرير المدرس الكبير الشيخ محمدالنيفر الناظر العلمي بالجامع الأعظم دام عمرانه ، المؤنس في أخبار أفريقيا وتونس لإبن أبي دينـــار القيرواني ، وتاريخ الزركشي [١] ، معجم البلدان لياقوت الحموي ، ولما يسر الله تمامها.. وفاح في الوجود حسن ختامها .. سميتها النفحات المسكية ، فيما يتعلق بأخبار المملكة الطرابلسية أو جلاء الكرب [٢] عن طرابلس الغرب .

(١) الزركشي - هو ابو علي محمد بن ابراهيم ابن لؤلؤ الزركشي له في التاريخ كتاب تاريخ «الدولتين الموحدية والحفصية» وهو مؤرخ من أهل تونس ووقف الكتاب عند حوادث ٩٣٢ هـ وكانت وفاة الزركشي بعد عام ٩٣٢ هـ ١٥٢٦ م يراجع عنه مجلة الندوة التونسية مايو ٥٣ وص ١٩٢ جـ ٦ اعلام زركلي .

(٢) واطلق على رحلته جلاء الكرب عما في طرابلس الغرب إشارة إلى العدوان الاستعماري من قبل الاسطول الايطالي عام ١٩١١ م حيث أخذ يكتب الرحلة وأنباء الحرب تتوارد على مسامعه .

ما تتضمنه النفحات المسكية

تتضمن ذكر ما يتعلق بمدينة طرابلس في القديم والحديث وذكر اول فاتح لها من الصحابة ثم من ملكها من أمراء الاسلام والنصارى والبربر من لدن الفتح الى الآن وذكر أعمالها وبلدانها وقراها ووصف أراضيها وجبالها وعامرها وغامرها وما يتميز به كل بلد منها من الآثار والحرف والصنائع ، وذكر شعوبها وقبائلها وصحاريها واثمارها وبقاع الماء العذب بها ومسافات طرقها العامة والخاصة واصناف التجارة الداخلية والخارجية وقوانين الدولة ومتصرفياتها ، ومن اشتهر بالتجارة من رجالها وقبائلها وكيفية تجارتها مع السودان واخلاق اهلها وطبائعهم ومعارفهم الدنيوية وبعض من اشتهر من اعلامها الفقهاء والمحدّثين والشعراء وأرباب الأقلام مع بعض من اشعارهم ورسائلهم ونحرر من مقاطعهم واخبارهم وذكرت الصالحين وبعض من دفن في ترابها من الصحابة رضي الله عنهم واعيان اكابر السلف ومحل الضريح والقبر المزار من تلك المشاهد ومكانه ، وما اشتهر من مساجدها وزواياها ومدارسها ، ثم ما يوجد بأعمالها من الطرق الصوفية ورجالها وخصوصاً الطريقة السنوسية التي ليست لها زوايا في قطرنا التونسي فإننا عرّفنا بها وبصاحبها واخوانه ، وبسطنا فيها القول بغاية التحرير والصدق ، ما يتعلق بها وبصاحبها تفصيلاً ، وتعرضنا لقبائل التوارق سكان اراضي غات من أزقر وهقار وفوغاس والتعريف بهم وذكرنا اصلهم وبقاعهم وحرفهم ونفوذهم وأوصافهم ، وما يتعلق بهم تفصيلاً وأطلنا القول في شعب الغدامسية المستولين على التجارة السودانية ، وذكرنا أعيانهم الملاكين بمدن السودان والصحراء الغربية والشرقية واغنيائهم وتعرضنا لمسكوكات القطر واختلاف صرفها بالزيادة والنقصان في بعض البقاع دون بعضه وذكرنا انواع معادن القطر واصناف نباتاته ولون اراضيه ومناظره الطبيعية واصناف طيوره ووحوشه وذوات سمومه وحيواناته .

والحاصل اننا لم نغادر شيئاً مما يتعلق بالايالة [1] الطرابلسية واعمالها قل أو جل إلا ذكرته الا ما لم تشاهده عيني أو تعيه أذني وان مست المناسبة لما يتعلق بالموضوع ذكرته لعموم الفائدة المطلوبة ، والاقتراحات المرغوبة وذكرت قبل دباجتها فهرساً [2] عاماً يفيد ، يهتدي به الطالع لما يريد ، والله حسبي ان حدت عن الحق، أو خرجت عن طريق الانصاف والصدق، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

فتح طرابلس

القول في فتح طرابلس في الاسلام

فتح طرابلس في الاسلام ، قال التجاني في رحلته صفحة[3] ٧١ وسطر ٨ ما نصه: كان افتتاح مدينة طرابلس في القديم على يد عمرو بن العاص الصحابي رضي الله عنه ، وذلك بعد افتتاحه مصر واسكندرية سنة ٢٢ هجري الموافق سنة ٦٤٢ ـ ٦٤٣ م سارلها من مصر في جيشه فنزل على شرفها من الجهة الشرقية واقام محاصراً لها شهراً لا يقدر على شيء وكانوا اهلها قد استعانوا بقبائل من البربر يعرفون بنفوسه، دخلوا معهم في ذلك الوقت في دين النصرانية فخرج يوماً رجل من بني مدلج يتصيد في نفر معه من عسكر عمرو بن العاص فمروا غربي المدينة ثم مالوا الى شاطىء البحر والبحر لاصق للمدينة وليس بالمدينة اذ ذاك من جهة البحر سور بل كانت سفنهم شارعة الى بيوتهم فنظر المدلجي واصحابه الى البحر قد حسر من جهة المدينة على مسلك يمكن النفوذ اليهـا منه فندبوا العسكر

---

(١) الايالة عبارة تركية كانت مستعملة في عهد الاتراك ومعناها ولاية.

(٢) حذفناه واكتفينا بفهرس في آخر الكتاب .

(٣) لعل هذه أرقام الصفحة والاسطر في المخطوطة التي اعتمد عليها الحشائشي أما هـذا النص الذي ساقه الحشائشي عن التجاني فهو ثابت في النسخة المطبوعة صفحة ٢٣٩ سطر ٣ .

واقتحموا المدينة فلم يكن للروم ملجأ الى سفنهم .

ودخل عمرو الى المدينـــة فلم يفلت من الروم الا من تمكن من سفينته ، واحتوى عمرو على سائر المدينة وغنم غنيمة كبيرة ثم هدم سورها ورحل عنها.

بناء سور طرابلس

ثم جدد سورها عبد الرحمن ابن حبيب المتغلب على افريقية في أواخر دولة بني أمية سنة ١٣٢ ﻫ الموافق[1] ٧٤٩ م وتأخر بناؤه من جهة البحر الى ولاية هرثمة ابن اعين على افريقية من قبل الرشيد بن العباس سنة ١٨٠ ﻫ الموافق ٧٩٦ م . ثم زاد في اتقانه ورفع بناءه من جهة البحر والبر معاً ابو الفتح زيان الصقلي المتولي على طرابلس سنة ٣٤٥ ﻫ يوافق ٩٥٦ م ويحيط بها السور فيصل اقصر مدة على عادة الاسوار المحكمة يسمونه (الستارة) ولم يكن في القديم وانما أمر ببنائه الشيخ ابو محمد عبد الواحد بن أبي حفص حين وصوله طرابلس .

وصول الحفصي إلى طرابلس

في شعبان سنة ٦١٤ ﻫ الموافق ١٢١٧ م قال التجاني: رأيت هذا مكتوباً على باب من أبواب الستارة [2] حين بنوها بالبحر وإنما انتهوا بها إلى الباب الأخضر وبينه وبين البحر فسحة. وكان زيادة الله بن الأغلب لما تغلب الشيعي على أفرقية هرب من رقادة وفر إلى طرابلس فأقام بها أياماً ثم انفصل عنهـــا فتوجه إلى المشرق ثم رجع إلى (رقادة) فولى عليها أخاه أبا العباس وتمــام ابن المبارك ثم انفصل إلى سلجامة واستخرج عبد الله المهدي من سجنه ودعي له بالخلافة وذلك سنة ٢٩٧ ﻫ (٩٠٩ م) فلما استقامت الأمور للمهدي وقتل أبا عبدالله الشيعي وأبا العباس أخاه جهز جيشاً إلى طرابلس مع بعض قواده فحصرهـــا مدة ثم

(١) هذه كلها نصوص منقولة عن رحلة التجاني ولكن مقابلة السنين الميلادية هنـا بالهجرية من الرحالة الحشائشي .

(٢) وهناك جملة لم يسقها الحشائشي وأثبتها التجاني وهي بعد ابواب الستارة « يعرف بباب عبد الله » ص ٢٤٠ رحلة التجاني ، ط تونس.

انصرف عنها خائباً ولم يفتحها فغاظ ذلك عبدالله فوجه ولده أبا القاسم الملقب بعد بالقايم فكان خروجه لذلك في جمادى الأول سنة ٣٠٣ هـ ٩١٥ م فحاصرها وضيق عليها إلى أن نفد طعامهم فتحها .

استيلاء العبيديين على طرابلس

واستخلف عليها من قبله أبا القاسم القايم والياً ثم انصرف عنهم ولما انفصل العبيديون إلى مصر تركوا الصنهاجيين بأفريقية .

استيلاء بني خزرون على طرابلس

استولى بنو خزرون على طرابلس وكانت بينهم وبين الصنهاجيين وقائع كثيرة أشار الرقيق[1] في تاريخه إلى بعضها ولم تزل بأيدي الزناتيين إلى سنة ٥٤٠هـ (١١٤٥ م) فكانت في تلك السنة شدة عظيمة ومجاعة هلكت فيها الناس وفروا من أوطانهم وأصبحت طرابلس خالية من عروشها .

استيلاء الطليان على طرابلس

فوجه الملك رجار صاحب صقلية اسطولاً حاصرها به من جهة البحر وذلك بعد استيلائه على المهدية وصفاقس واستقرار ولايته فيها ، ووقع بين أهل طرابلس خلاف وهم الذين بقوا بالمدينة أدى إلى تغلب الاسطول عليها فأحسن

(١) تاريخ ابن الرقيق ألفه ابو اسحق ابراهيم بن القاسم الرقيق كان من أوثق المؤرخين ومن أدباء القرن الرابع توفي بعد ٤١٧ هـ وكان من أهل القيروان وعمل في الدولة الصنهاجية وأشار إليه ابن رشيق في كتابه العمدة - ووصفه بالشاعرية وسعة الاطلاع في التاريخ .

وشهد له ابن خلدون في المقدمة « ابن الرقيق مؤرخ افريقية والدول التي كانت بالقيروان ولم يأت من بعده الا مقلد» اهـ .وايضاً أشار ياقوت في معجمه إلى كتابه - تاريخ أفريقية والمغرب - ولا زال تاريخ ابن الرقيق مخطوطاً .

قائده جرجير ابن ميخائيل إلى أهلها حيث تملك غيرهـــا من البلاد الساحلية وعظم أمره في الاسلام وانتقى لها جنده من الاسلام والصقليين وغيرهم وكانت لرجار [1] ملك صقلية سمعة عظيمة في الاسلام معروفة في التاريـخ . فأولى على طرابلس شيخها ابا يحيى ابن مطروح التميمي وجعل قاضيها رجلاً منهم يعرف بابن الحجاج يوسف بن زيري وهو صاحب التـأليف المعروف بالكافي في عـــلم الوثائق وبذلك صارت أحكام المسلمين كلهم مصروفة إلى قاضيهم ووليهم ولم يكن النصراني يتعرض لشيء من أحكامهم وأقامت تحت تغلب النصـارى اثني عشر (١٢) عاماً إلى أن افتتح الموحدون غالب بلاد أفريقية فخاف النصارى أن يكاتبهم أهل طرابلس فأحبوا أن ينشئوا عداوة بينهم فأمروهم أن يصعدوا المنـابر فيتكلموا في جانب الموحـــدين بسوء فأعظم أهـــل طرابلس ذلك واجتمعوا إلى قاضيهم ابي الحجاج وأعلموا النصارى بأن لا يكون لهم ذلك ابداً وأن لا يكلفوا أحداً من المسلمين بما يخالف دينه ، وذكر أهل الدين بسوء ممـــا يخالف الدين ، فأعفاهم النصارى من ذلك ثم أحدث الله عزماً وحزماً في أهـــل طرابلس ..

قيام اهل طرابلس على النصارى

... على القيام على النصارى وتخليص بلادهم من ايديهم فأسروا النجوى بذلك بينهم وعينوا ليلة كانوا فيها على قدم الحرب وغلقوا ابواب البـــلد وقاموا على جميع النصارى فاخذوهم قبضاً باليد وعادت طرابلس الى تملك المسلمين وكان هذا في سنة ٥٥٣ هـ ١١٥٨ م وصار حاكم البلد شيخه ابو يحيى بن مطروح [2] وكان

---

(١) ورجار هذا كان معجباً بالحضارة الاسلامية العربية وقد وجد الادريسي الجغرافي تشجيعاً من قبله وصنع له الكرة الارضية من الفضة .

(٢) وقد توفي ابو يحيى بن مطروح بالشرق وله اشعار يتذكر بهـــا وطنه طرابلس راجع فصلا عنه في كتاب — اعلام من طرابلس بقلم علي مصطفى المصراتي وهاجر بعد ان كبر سنه الى المشرق في رجب عام ٥٨٦ هـ ١١٩٠ م مستأذناً من يوسف بن عبد المؤمن واستقر به المقام في الاسكندرية — واسمه — رافع بن مطروح ابو يحيى التميمي .

رجلاً شهماً حازماً وصانع العرب المجاورين له ما ستحكم حاله[1] .

فتح المهدية لعبد المؤمن بن علي واستيلاؤه على طرابلس

ولما نزل الخليفة عبد المؤمن بن علي الى افريقية افتتح المهدية وكانت في يد الصقليين ووصلت اليه وفود البلاد وذلك سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م) كان من جملتهم وفد طرابلس وشيخه ابن مطروح فبايعوا عبد المؤمن واقر ابن مطروح والياً على طرابلس فلم يزل محمود السيرة فيهم الى أن عجز في أيام أبي يعقوب بن عبد المؤمن وقيده الهرم فطلب التوجه الى حج بيت الله الحرام فسرحه السيد ابو زيد ابن السيد ابي حفصي وهو اذ ذاك سلطان تونس[2] وطرابلس تحت حكمها فتوجه بجميع أهله في البحر واستقر بالاسكندرية فمات بها وبقيت ذريته هنالك الى الان ومنهم رؤساء وأدباء . وفي فصل من مياومة الفاضل البيساني[3] قال : وفي شهر رجب سنة ٥٨٦هـ (١١٩٠ م) وصل الى الاسكندرية في البحر شيخ طرابلس الغرب ابو يحيى ابن مطروح وهو شيخ كبير السن قد عجز عن الحركة وذكر باقي خبره .

(كم من مرة ملكت النصارى طرابلس من لدن الفتح إلى سنة ٥٨٦ هـ (١١٩٠ م) وقال التجاني والصحيح ان النصارى لم تأخذ طرابلس من أيدي المسلمين من لدن الفتح إلا هذه المرة وأهل طرابلس يتحدثون أن النصارى ملكوا بلدهم مرة أخرى بعد المرة المذكورة يعني من لدن الفتح الاول إلى سنة ٥٨٦ هـ (١١٩٠ م) ملكوها مرتين .

---

(١) في رحلة التجاني المطبوعة واستحكم حاله — وهو الصواب .

(٢) في نسخة رحلة التجاني المطبوعة — صاحب — بدل كلمة السلطان .

(٣) القاضي ابو علي عبد الرحيم بن اسعد اللخمي معروف بابن البيساني ولد ٥٢٩ هـ وتوفي بالقاهرة ٥٩٦ هـ أشار اليه ابن خلكان في وفيات الاعيان — وكان البيساني وزير الملك الناصر يوسف بن ايوب . يراجع معجم البلدان لياقوت وضبط الاعلام لاحمد تيمور ص ٢٠ .

استيلاء قراقوش على طرابلس

ولما وصل قراقوش من المشرق سنة ٥٨٦ هـ (١١٩٠ م) استولى عليهـا اذ ذاك خالية من الأقوات والأجناد لأنهم بعد بيعتهم لعبد المؤمن ابن علي واستقرار بلدهم في ملك الموحدين لم يتوقعوا ثائراً ولا مخالفاً فملكها قراقوش وبقيت تحت بيعته سنين يسيرة ثم انتفضت هي وغيرها من البلاد الأفريقية التي حلهـا فأظهر الطاعة للموحدين مخادعاً لهم وأقام لديهم مدة ثم فر عنهم مبـــادراً إلى قابس فملكها أيضاً وأقام بها حتى وصل إليها يحيى الموبرقي من بلاد الجريد قـــاصداً حصارها فخرج إليه قراقوش من طرابلس والتقى الجمعـــان بالموضع المعروف بمحسن من أحواز طرابلس فانكسر قراقوش وتبعه الموبرقي حتى دخـــل إلى جبال طرابلس ثم رجع الموبرقي إلى طرابلس فحصر بها ياقوتاً نائب قراقوش فلم يقصر ياقوت في دفاعه ، وضبط البلد ضبطاً عظيماً ، فكتب الموبرقي إلى أخيه عبد الله وهو إذ ذاك صاحب موبرقة فطلب منه الاعانة ببعض اسطوله فوجه إليه قطعتين من اسطوله ضيق بهما على طرابلس تضييقاً شديداً ..

استيلاء الموبرقي على طرابلس

...إلى أن استولى عليها فامتن على أهلها بالعفو وأمسك نائب قراقوش بيده فوجهه إلى موبرقة في القطع التي وصلت إليه منها ولما وصل إليها قيده عبد الله بقيد ثقيل وتركه في سجنها فلم يخرج منه إلا بعد استيـلاء الموحدين على موبرقة وقتلهم لعبد الله المذكور سنة ٥٩٩ هـ (١٢٠٢ م) وحينئذ خرج ياقوت وتوجه إلى مراكش فبقي بها إلى أن مات .

غـــابة طرابلس

قال التجاني : ويذكر التاريخ أن غابة طرابلس كانت متصلة إلى جبـــل غريان بانواع الفواكه على اختلافها وتعدد أصنافها فأفسدها العرب وأجلت أهلها

عنها ويذبت بهذه الغابة صنف من صنف النرجس دقيق الورق لم يكن أقوى منه فوحاً ولا أعطر روحاً .

مساجد طرابلس وعلماؤها

مساجد طرابلس المشهورة

وبطرابلس مساجد مشهورة معروفة بالبركة وأثنى البكري على المسجد[1] المعروف بمسجد الشعاب وذكر أنه أعمرها – يريد في ذلك الزمان – واما الآن فهو خال [2] لا عمارة به ونحن نذكر هذا المسجد وغيره مما هو خارج البلد فنقول مسجد الشعاب منسوب لابن محمد بن عبدالله الشعاب أحد العلماء الفضلاء من أهل طرابلس وكان نجاراً نسب المسجد المذكور إليه لأنه هو الذي أتم بناءه ولزم السكنى به ، وكان بعض الناس ابتدأ بناءه ثم وقف عنه فأرادالشعاب إتمامه فتوجه إلى قاضي طرابلس قائلا له : إني عزمت على بناء ذلك المسجد وأحب أن تستدعي فلاناً الذي ابتدأ بناءه فتستفهمه هل يتمادى على بنائه ، او يرفع يده عنه فأتمه وأسكن به ، فاستحضره القاضي وسأله عن ذلك فأقر بعجزه فتولى الشعاب بناءه وسكن به ، ويذكر أن الخضر عليه السلام كان يجالس الشعاب هذا ويحادثه وأنهما رؤيا مجتمعين في هذا المسجد المذكور ، وسمع يوماً بكاء امرأة عند باب مسجده فسألها عن سبب بكائها فأخبرته أن لها ولداً أسرته النصارى وسألته الدعاء بخلاصه ، فدعا له ، وأمنته المرأة على دعائه ثم انصرفت المرأة إلى بيتها فأصبح ولدها في السكك يسأل عن دار أمه فسئل

---

(١) البكري هو ابو عبيد الله عبد الله بن عبد العزيز وكتابه يسمى المغرب في ذكر أفريقية والمغرب طبع عام ١٩١١ – وقال من وصف مساجد طرابلس « وعلى مدينة طرابلس سور صخر جليل البنيان ، وهي على شاطىء البحر .. ومبنى جامعها احسن مبنى ولها اسواق حافلة جامعة ، وحمامات كثيرة فاضلة وفي طرابلس مسجد يعرف بمسجد الشعاب مقصوداً » – توفي البكري عام ٤٨٧ هـ – ١٠٩٧ م .

(٢) كان هذا في عهد رحلة التجاني اما الآن فهو مسجد أنيق تؤدى فيه الصلوات وحفلات دينية وهو مزار مقصود وكان مكان رباط جاهد فيه المسلمون وللشعاب احترام كبير في نفوس الشعب وعقيدته .

فأخبر بفراره في البحر وسلامته ووصوله عن عهد قريب ، فتوجهت المرأة إلى الشيخ تشكره وتعرفه بوصول ولدهـا وأن ذلك إنما كان ببركة دعائه فهناهـا بسلامته وقال لها إنما نجاه الله بدعائك لما علم اضطرارك وكانت وفاته رحمه الله سنة ٢٤٣ هـ (٨٥٧ م) .

ومنها مسجد خطاب

ومنها مسجد خطاب وهو بخارج المدينة من جهة شرقها على البحر وينسب للشيخ خطاب البرقي الرجل الصالح ويكنى أبا نزار وكان ذا كرامات وخصوصاً في باب المرائي ظهرت له في ذلك عجائب وكان يخاطب في النوم بجميع ما يكون في اليقظة قبل كونه ، وله كرامات يطول بنا ذكرها ومنها ...

مسجد البارزي

كان يعرف في القديم بمسجد الجدود ويعرف بمسجد الجدة لأن إحدى جدات بني الأغلب ولاة أفريقية بنته وهكذا كان يعـرف في القديم ثم عرف بمسجد البارزي لسكنى الحسن به وهو بخارج طرابلس أيضاً جهة جوفيهـا مشرف على المقابر واشتهر هـذا المسجد بسكنى أبي عثمان سعيد [1] بن خلفون الحساني المعروف بالمستجاب وأصله من قرية حسان [2] من قـرى طرابلس وكان زاهداً فاضلاً منقطعاً إلى الله سبحانه وتعالى وظهرت بركاته فعرف بالمستجاب .

كرامة جليلة

كان ذات يوم جالساً فيه على عادته فسمع تحته دوياً عظيماً اهتز المسجد له

---

(١) كانت وفاة ابي عثمان سعيد بن خلفون عام ٢٦٢ هـ فهو من رجالات القرن الرابع الهجري.

(٢) قرية حسان او قرى حسان قصور وبناءات شيدها حسان بن النعمان بين عام ٨٠ - ٨٤ هـ وبقيت منها أطلال ردية قرب « سرت » .

فخرج بعض من كان معه لاختبار ذلك فوجد شخصاً يقطع الحجارة من كهف تحت المسجد ، فنهاه عن ذلك فلم ينته ، فرجع الى الشيخ فاخبره ، فنزل الشيخ اليه بنفسه ، وقال له اتق الله فانك تزلزل المسجد بهذا الفعل الذي تصنع . فقال له : ارجع ايها الشيخ الى مسجدك فان الذي امر بذلك هو الوالي . فقال له : لو امرك الوالي بهدم المسجد كنت تهدمه؟ قال: نعم والله ، لو امرني بذلك لفعلت. فعاد الشيخ الى المسجد وهو يقول : اللهم احصد عمره . فبعد استقرار الشيخ في المسجد سقط جزء من ذلك الكهف على الرجل فقتله ، ولما رجع المؤدب محرز ابن [1] خلف رحمه الله من الحج قيل له : من رأيت في طريقك من الصلحاء ؟ قال :رأيت بطرابلس رجلا وامرأة ،أما الرجل فابو عثمان الحساني،وأما المرأة فحمدونه[2]وكانت هاته المرأة عجوزاً صالحة تسكن مسجد الشعاب المتقدم الذكر.

رجال من أهل الله بطرابلس

وذكر ابن سحنون [3] بن سعيد لما رجع من الحج قيل له : من رأيت من الصالحين ؟ فقال : رأيت بطرابلس رجالاً ما الفضيل [4] بن عياض بأفضل منهم.

ومنها المسجد المعروف بمسجد المجاز وكان معروفاً بسكن ابو الحسن علي بن الخطيب [5] الطرابلسي أقام ساكناً به فيما يقال اربعين سنة وكان فقيهاً صالحاً

---

(١) محرز بن خلف هو : من علماء القرن الرابع الهجري ويعرف بشيخ المؤدبين كانت وفاته عام ٤١٣ هـ .

(٢) في أكثر مراجع التراجم والتاريخ يضبط اسم هـذه المرأة الصالحة « سمدونة » بالسين وكذلك ضبط في رحلة التجاني المطبوعة .

(٣) سحنون — هو عبد السلام بن سحنون ولد عام ١٦٠ هـ وتوفي عام ٢٤٠ هـ وكان من أهل القيروان ومن الذين نشروا الفقه المالكي وله رحلة للشرق وعاد بالمدونة ودرس في اجدابية وهناك مسجد يقال له مسجد سحنون كما درس بطرابلس واخبـاره موجودة في كتب التراجم — الديباج — — معالم الايمان — رياض النفوس . طبقات بن عرب الخ .

(٤) الفضيل بن عياض من اكابر المتصوفة والعباد وكان من علماء الحديث تتلمذ عليه الامام الشافعي واصل الفضيل بن عياض من الكوفة وولد بسمرقند عام ١٠٥ هـ وتوفي عام ١٨٧ هـ .

(٥) في رحلة التجاني المطبوعة « الخصيب » وفي نسخ منها مخطوطة « الخطيب » .

عالماً زاهداً وله في الفقه والفرائض والشروط تآليف مفيدة وأقام أربعين سنة لم يضحك ونحواً من خمسين سنة لم يحلف بالله يميناً .

مساجد داخل المدينة

وبداخـل المدينة مساجد كثيرة وجوامع احدهـا جامع طرابلس الاعظم الذي بناه بنو عبيد وهو جامع متسع قال التجاني : وهو مقام على أعمدة مرتفعة قائمة من الأرض مستديرة وسقفه حديث التجديد وبه منار[1] كبير وكان بناؤه للعام المكمل للمائة الثالثة على يد خليل بن اسحاق وقتل خليل بن اسحاق هذا ابو زيد بن مخلد بن كيداد لما تملك القيروان سنة ٣٣٢ هـ (٩٤٣) وأصله مـن طرابلس كما تقدم ولمـا قتله أمر بصلبه فبـادر إليه بعض القرويين فجرد ثياب نفسه وشرع في ذلك فنظر اصحاب ابن أبي زيد إلى آثار الضرب قد عمت ظهر القروي فسألوه عن ذلك فذكر لهم بعض من حضر ان كل عامل يتولى بفعـل ذلك به لدناوته وشره فاعتوروه برماحهم وصلبوه إلى جانب خليل بن اسحاق.

ماجل جامع طرابلس الكبير

وأخبرنا صاحبنا الفقيه احمد بن عبد السلام[2] الأموي قال : «نقلت من خط القاضي أبي موسى بن معمر أن شكراً المعروف بالصقلبي ابتنى الماجل الذي بجامع طرابلس من جهة جوفيه والقبة التي عليه في سنة ٣٦٩ هـ (٩٨٢ م) وأن خليل بن اسحاق ابتنى المنـــار الذي به كما ذكرنا ومساجد البلد لا تحصى كثيرة وهي تناهز الدور عدة . »

---

(١) في بعض نسخ التجاني المخطوطة – « وبه منار متسع ».

(٢) احمد بن عبد السلام الاموي التاجوري كان صديقاً للرحالة التجاني واديباً عالماً .. ولد عام ٦٣٥ هـ ١٢٣٧ م وتوفي عام ٧٠٨ هـ . ١٣٠٨ م .

جامع درغوت

ومنها جامع درغوت[1] بداخل البلد وهو يشبه جامع حمودة باشا المرادي في بعض الاوصاف سيأتي بعض الكلام عليه .

المدارس بداخل البلد

وبداخل البلد مدارس كثيرة واحسنها المدرسة المنتصرية التي كان بناؤهـا على يد الفقيه ابي محمد عبد الحميد[2] ابن ابي البركات ابن ابي الدنيـا رحمـه الله تعـالى ، وذلك فيما بين سنة ٥٥٦ هـ (١٣٥٨ م) وهاته المدرسة من احسن المدارس وضعاً واطرفها صنعاً ، قال العياشي[3] : نقلت من خط ابي الحسن علي ابن موسى بن سعيد في بعض تقاييده قـال : حللت في بعض سفراتي بطرابلس فبكرت يوماً المدرسة التي انشأتها الهمة الإمامية المنتصرية فدخلت اليها وقعدت مسرحاً طرفي في روضة حبق حبست حاسّتي الشم والبصر عليها ثم قلت : —

يا حبذا نسمة هبت لنـا شقها
غب الكرى سحراً من روضة الحبق
حسبتها عندما هبت وقد نعشت
بهمّـة من نداهـا روح منتشق

---

(١) من هنا يبتدىء كلام الحشائشي وما تقدم من صفحة ... كان نقلاً عن رحلة التجاني وقد تصرف واختصر الحشائشي في نقله .

(٢) عبد الحميد بن أبي الدنيا من اكابر علماء طرابلس وراجع ترجمته في كتاب عنوان الدراية ص ٦٤ — وتاريخ الزركشي ص ٣٤ — ٤١ .

وفي كتاب اعلام من طرابلس لعلي مصطفى المصراتي — وفي تذكار ابن غلبون وفي المنهـل للنائب .

(٣) العياشي في رحلته وهي مطبوعة في جزئين · وهناك نسخة مخطوطة بمكتبة الاوقـاف بطرابلس الغرب — وفي الحقيقة ان هذا النص موجود في رحلة التجاني ص ٢٥٢ طبع تونس — ولعل السهو من المؤلف او الناسخ بدل ان يذكر التجاني ذكر العياشي .

قرنفل الهند[1] قد وافى التجار به
بطيبة طيب عيش مرّ لي أنــق

بتونس انتس الرحمن ساحتها
وسقيت ابـــداً بالعارض الغـــدق

ولا أموت الى أن ألتقي قمرا
للحسن مطلعه من ذلك الأفـــق

مبان عجيبة عتيقة بطرابلس

وبين هاته المدرسة وباب البحر مبنى[2] من المباني القديمة العجيبة في غاية الغرابة هو شكل قبـة من الرخـام المنحوت المتناسب الاعلى والنحوت التي لا تستطيع المـائة نفس نقل القطعة الواحدة منه ؛ قامت مربعة ، فلما وصلت الى السقف ثمنت على احكام بديع وإتقان عجيب صنيع وهي مصورة بانواع التصاوير العجيبة نقشا في الحجر وقد بني عليها الآن مسجد يصلى فيه واخبرت انما كان ذلك لان بعض الكبراء حاول هدمها واخـذ رخامها . وعلى بعض قطعها من الجهة الشمالية اسطر مكتوبة بخط رومي . اخبرني ابو البركات ابن الفقيه احمد ابن محمد بن ابي الدنيا عن والده الفقيه أبي محمد انه لم يزل معنياً بالبحث عمن يحسن ترجمتها حتى وجد نصرانيا يعرف ذلك الخط فذكر له ان نصه : أمر بناء هاته

---

(١) في رحلة التيجاني القطعة من ستة ابيات وقد ترك الحشائشي بيتـاً وحدث اضطراب في بيت « قرنفل الهند ..» والبيتان هكذا :

قرنفل الهند قد وافى التجارُ به — محافظـين على نشر له عبــق
فعندما فضه الداوي ذكرني — بطيبه طيب عيش مرّ لي أنق الخ

(٢) يفهم من هـذا الوصف ان المدرسة كانت قرب مسجد قرجي عنـد مدخل باب البحر ويفهم ايضاً ان المعني هنا بوصف هذه الاشارة هو قوس ماركو الروماني ولا تزال اطلال باقيـة منه الى الآن عند مدخل باب البحر من ناحية الميناء فهل تبحث مصلحة الاثار عن الاثار الاسلامية كما بحثت عن اثار الرومان ؟ ان ليبيا غنية بالاثار الاسلامية العظيمة ! .

الكنيسة فلان ابن فلان من حلال ماله الذي اكتسبه من غلة زيتونه وفي يوم اتمامه لبنائها أوفي يوم شروعه لبنائها وصل اليه الخبر من الشام ان نبياً من العرب ظهر في الحجاز اسمه محمد بن عبد الله .

ذكر بعض من اشتهر بالعلم في مدينة طرابلس

قال العلامة التجاني والقائم في رسم العلم في طرابلس الغرب في وقتنا هذا شيخنا الامام ابو فارس عبد العزيز بن عبد العظيم بن عبد السلام بن عبد العزيز بن عبيد .

ترجمة عبد العزيز بن عبد العظيم

هذا رجل ليس من عمرو ولا[1] زيد ، رجل قد نال من المعارف ما اشتهى وحاز من العلوم الاصولية والفروعية الغاية والمنتهى حضرت درسه بمسجد مجاور لداره فرأيت رجلاً متضلعاً من العلم ذاكراً بالمذهب لا يجاريه فيه أحد ولا تكاد مسألة من مسائله تشذ عنه. حسن العبارة مشاركا في علوم جمة وله الاعتناء بكلام القرويين في المذهب من تعليل أو تفسير أو تخريج. واعتماده في الاصول الدينية على كلام الامام ابي المعالي وكلام الشيخ ابي حامد الغزالي ، وهو سبئي النسبة من ولد سبأ من يشجب ابن يعرب ابن قحطان واخبرني أن مولده بطرابلس سنة ٦٣٩ هـ (١٢٤١ م) واكثر استفادته على الفقيه القاضي ابن موسى بن عمران .

ابن موسى بن معمر الطرابلسي رحمه الله تعالى وليس له رحلة عن بلده الا الى الحج سنة ٧٠٧ هـ (١٣٠٣ م) ولما حضرت درسه وتحققت مكانته العظيمة في العلم أحببت القراءة عليه مدة مقامنا بطرابلس فقرأت عليه صحيح مسلم الحجاج النيسابوري رحمه الله تعالى في غرة شعبان ٧٠٣ هـ (١٣٠٣ م) وقرأت عنه صحيح البخاري رضي الله عنه وكتب لي شيخنا ابو فارس

---

(١) ليس من عمرو ولا زيد : أي نبغ نسيج وحده ... ليس شخصاً عادياً .

بخطه[1] اجازة سمي فيها .

ابو محمد عبد الحميد

ومنهم أيضاً الفقيه ابو محمد عبد الحميد ابن ابي بركات ابن ابي الدنيا .
قال التجاني أيضاً : قرأت عنه كتاب الارشاد لأبي المعالي وبعض كتاب البرهان له وجملة من كتاب المستصفى للغزالي .

ابو الجيش محمد بن ابراهيم

منهم ابو الجيش محمد بن ابراهيم[2] الاندلسي البسطي اجتاز على طرابلس قافلاً إلى الحج فقرأ عليه بعض تآليفه في العربية وسمع عليه شيئاً من نظمه وروى عنه المذهبة لابن المناصف حدثه بها عن مؤلفها ..

محمد بن الكريم الغماري

ومنهم ابن محمد عبد الله الغماري اجتاز على طرابلس من المغرب قاصداً المشرق فطالت إقامته في طرابلس فقرأ عليه كتابه الذي ألفه في الفرائض وجل كتاب الكافي لابن المنمر في الفرائض أيضاً وجل كتاب الحصار في علم الحساب وكان ذلك سنة ٧٥٤ هـ . (١٣٥٣ م) — ومنهم :

احمد بن عيسى الغماري

القاضي ابو العباس احمد بن عيسى الغماري وصل إلى طرابلس قاضياً بعد انفصال القاضي أبي موسى بن معمر منها فقرأ عليه جملة من المعالم الفقهية لابن الخطيب وسمع ما كان يتناظر فيه بين يديه من التهذيب — ومنهم :

---

(١) يلاحظ ان هنا فقرات ناقصة وهناك في رحلة التجاني المخطوطة المطبوعة توجد اسطر منها (سمى فيها من شيوخه الفقيه القاضي ابا موسى بن عمران) الخ .
(٢) ابو الجيش الاندلسي : هو مؤلف كتاب العروض .

ابو العباس الاعجمي

ابو العباس الأعجمي ورد من المشرق على مدينة طرابلس في سنة ٧٦٢ ﻫ (١٣٦٠ م) قاصداً المغرب فقرأ عليه بعض المعالم الدينية لأبي الخطيب ومنهم:

القاضي ابو محمد عبد الله بن ابراهيم

القاضي ابو محمد بن عبد الله بن ابراهيم بن أبي مسلم القابسي وصل إلى طرابلس قاضياً وله رحلة إلى العراق ودخل فيها بغداد قرأ عليه بلفظه أكثر من نصف البخاري وهنا انتهى ما سمى شيخنا ابو فارس من شيوخه . انتهى .

لطيفة شعرية

وقال التجاني : ومما انشدني صاحبنا الفقيه ابو العباس احمد بن عبد السلام التاجوري قال انشدني الشيخ الفقيه البليغ ابو الحسن علي بن ابراهيم ايام حلوله بطرابلس على غير اختياره ، فأقام بها مدة ثم توجه الى الحج ، وذلك سنة اربع وثمانين ٨٤ وانشدت بعد ذلك بتونس الفقيه ابا الحسن البيتين فأنشدنيهما لنفسه :

لاهل طرابلس عادة	من البرّ تُنْسي الغريب الحميما
حللت بها مُكرها ثم اذ	أقمتُ بها ابدلوا الهاء ميماً

أبو محمد عبد الحميد الصوفي قاضي تونس وامام الجامع الاعظم

ومن فضلاء طرابلس المشهورين بالعلم والمشاركة في الادب . قال التجاني : ومن المتقدمين على عصرنا هذا بقليل ابو محمد عبد الحميد ابن أبي البركات ابن عمران ابن ابي الدنيا الصوفي الطرابلسي مولده بطرابلس في منتصف شعبان سنة ٦٠٦ ﻫ (١٢٠٩ م) ارتحل الى المشرق فقضى فريضة الحج وأدرك الريغي والصفراوي فقرأ عليهما ووصل الى تونس في مدة الامير أبي زكريا فأقام بها زماناً ثم عاد الى بلده واستدعي بعد ذلك الى تونس فولي بها الخطط الرفيعة من

قضاء الجماعة وقضاء الانكحة والخطابة بالجامع الأعظم وغير ذلك من الخطط وله تصانيف مفيدة .

قف على هذه التصانيف والاشعار الرقيقة :

منها العقيدة الدينية وشرحها، وجلاء الالتباس في الرد على نفـــاة القياس، وكتاب مذكر الفوائد ، في الحض على الجهاد ، وله شعر قليل منه : —

طـُرق السلامة والفلاح قناعة ولزوم بيت بالتوحش مؤنس
يكفيه انساً ان يكون انيسه آي القرآن ونوره في الحندس
واذا رأت عيناه انساناً اتى فلينفرن نفور ظبي المكنس
ولقلمـا ينفك صاحب مقول من زلة أو عثرة في المجلس

وأظهر له الخليفة المستنصر رحمه الله تعالى في بعض الأوقات تغييراً فكتب إليه يستعطفه :

أمولاي مـا زلتم تنيلون عبدكم ضروباً من النعماء جلت عـن المثل
ولم يبق إلا العفو وهو أجلّ مـــا ينال فأكمل لي به منحة الفضل
فمـا العيش في الدنيا بغـير رضاكم بصاف ولا طعم الحياة بحـُلـَوّلي
وقد كدر الإعراض صفو معيشتي فانكرت أحوالي وأنكرني أهـلي
بقيت تزيد الملك عـزاً ورفعة وتحمي رسوم الفضل والخير والعدل
ولي أمـل يقضي بغفران زلتي وبالعفو عن جرمي وبالصفح عن فعلي
وصـلى إله العرش بدءاً وعودة على المصطفى من خلقه خاتم الرسل

وكانت وفاته بتونس يوم الجمعة الثاني والعشرين من ربيع الأول سنة ٦٨٤هـ (١٢٨٥م) .

ابو علي الحسن ابن موسى الهواري

ومنهم الفقيه ابو علي الحسن بن موسى ابن معمر الهواري الطرابلسي أحد أرباب الرتب الجامعين بين رئاسة العلم ورئاسة الأدب . ولد بطرابلس سنة ٦٠٩ هـ (١٢١٢ م) وقرأ بها يسيراً ثم توجه مع أخيه القاضي الفقيه أبي موسى إلى المهدية للقراءة على الفقيه أبي زكريا البرقي فلزماه مدة ثم عاد ابو موسى إلى طرابلس وأقام ابو علي فلزم البرقي وتفقه عليه واختص به اختصاصاً كثيراً . فلما وقعت فتنة ابي حمراء بالمهدية ووصل كتاب الشيخ ابي علي بن أبي موسى ابن أبي حفص إلى المهدية اذ ذاك بالتحذير من أبي زكريا البرقي ومن أبي حمراء وتوجه الأمر له بقتل أبي حمراء وحمل البرقي على حمار ومعه خواص اصحابه فيذكر من رآه على تلك الحالة وهو يتمثل حين إشرافه على الحضرة :

هكذا في البر يفعل بي　　　كيف لو زلت بي القدم

فكان ابن معمر مما وصل[1] صحبته ، وادركت الامير ابا زكريا رحمه الله تعالى شفقة على البرقي فاعاده الى وطنه .

وأقام بن معمر بالحضرة وكان فقيها ، خطيباً ، لسنا ، الا انه كان في لسانه فضول كثر امتحانه به ، والتعرض له بسببه .

وترقى في دولة الخليفة المستنصر رحمه الله فولي القضاء في كثير من بلاد افريقية منها — بجاية — وباجة — وغيرها .

وولى خطة العلامة الكبرى - وخطة الارفاع — والنظر في خزانة الكتب وتغير الخليفة عليه فنفاه الى المهدية .

فكان خروجه من الحضرة يوم السبت الثامن عشر ذى القعدة من سنة ٦٦٧ هـ (١٢٦٨ م) ثم وقع الرضا عنه بعد عام كامل وتوجه الأمر بتسريحه في ذي الحجة من سنة ٦٦٨ هـ ١٢٩١ م - فوصل الى تونس في شهر ربيع الاول سنة

(١) في التجاني — أحد من وصل صحبته وهو الصواب .

٦٦٩ هـ (١٢٧٠ م) ولما مات الخليفة وولي بعده الواثق استدعي في يوم السبت التاسع عشر من ذي الحجة سنة ٦٧٥ هـ (١٢٧٦ م) فأمره بالنظر في خزانة الكتب .

أعرف كم كان في خزانة الجامع من الكتب ونقصها بعد ذلك

وسئل عنها حين كانت لنظره فوجدها تنقص أولاً فذكر أنها كانت ثلاثين ألف سفر ، وأنه تأخر عنها مدة ، ثم أعيد إليها بعد ذلك فوجدها عشرين ألف سفر ثم لما أعيد إليها هذه المرة واختبرها وجدها تنقص عن ستة آلاف سفر ، فسئل عن موجب ذلك فقال :

– أفناها المطر وأيدي البشر .

واستمر على ذلك في نظارتها إلى أن تغير عليه رئيس الدولة « ابو الحسن بن مروان » في بعض القضايا ، فأمر بتثقيفه[1] فثقف بدار الأشراف مدة ثم أخرج وكانت وفاته بتونس في اليوم الثاني من جمادى الاول سنة ٦٨٢ هـ (١٢٣١ م).

نخبة من اشعار علماء طرابلس

قال التجاني : اخبرني بن أخيه الفقيه ابو يعقوب يوسف بن القاضي أبي موسى عمران : قال : كنا جلوساً عنده فأنشد بعض من حضر بيتين لأبي الوليد [2] سليمان بن خلف الباجي :

مضى زمن المكارم والكرام سقاه الله من صوب الغمام

---

(١) تثقيف : في اللغة معناها : التقويم للرمح والتهذيب للولد .

(٢) ابو الوليد سليمان بن خلف الباجي: ولد عام ٤٠٣ هـ - ١٠١٢ م وتوفي ٤٧٤ هـ - ١٠٨١ م؛ فقيه مالكي من أهل الحديث كان ميلاده في باجة بالاندلس يراجع عنه الديباج المذهب ص ١٢٠ – ووفيات الأعيان ج ١ ص ٢٥١ – ونفح الطيب ج ١ ص ٣٦١ وأعلام الزركلي ج ٣ ص ١٨٦ .

وكان البر فعلاً دون قول فصار البر نطقـــاً بالكلام

فأنشدنا لنفسه متمماً عليها ارتجالاً :

وزال النطق حتى لست تلقى فتىً يسخو بمرجوع السلام
وزاد الأمر حتى لست تلقى الا سخي بالأذى أو بالملام

وكان ابو عبد الله محمد بن يحيى الفضيلي ممن ثقف بدار الأشراف معه حين ثقفه ابن أبي مروان على ما تقدم ا حصل بينهما اتصال وود واتفق ان سرح ابن معمر قبل سراح الفضيلي فهناه الفضيلي بذلك فأنشده مرتجلاً :

لئن سرني فك الاسار من الحبس لقد ساءني فقدي لما فيه من أنسي
ولو أنني خـيرت فيما اريــده لآثرت تقديمي سراحك عن نفسي

وانشد له بعض الطلبة من أهل طرابلس في الغزل :

لولا احورار جفون اودعت سهما ما امطرت سحب أجفاني الدموع دما
ولا نـــثرت عقيق الدمع في طلل منه اُذيع الذي قد كان مكتتماً
شمل السلو شتيت بعد بعـــدكم وطالمـــا كان بعد اليوم ملتئمـا
البـين يقطع منـــه كل متصل والشوق ينشر منه كل مـــا انتظما
يا من يلوم على ما جل من أسفي هـذا اليسير من الأمر الذي كتمـا
ما خطط النوم في جفنيّ رسم كرى الا محا السهد ما قد خط أو رسما
أنبيكمُ انني من يوم بينكم مــا زلت للسهد والتذكار ملتزمـــا
ارتاح ان هب ريح من جنابـــكم اولاح برق بذاك الافـــق وابتسما
اما ومن قدر الاشياء مقتدرا وحبـــكم وكفى بالحب لي قَسَمَا
ما رام قلبي اصطبارا بعد بعدكم ولا تأخر بي من وجـــده قدمـــا

وذكر ابن الأبار [١] في بعض تآليفه قال أنشدني القاضي ابو علي ابن معمر له

(١) ابن الأبار هو : عبد الله محمد بن عبد الله بن ابي بكر القضاعي الاندلسي من « بلنسية » ولد عام ٥٩٥ ﻫ وتوفي ٦٥٨ ﻫ = ١١٩٩ م ١٢٦٠ م وله مؤلفات عدة في الادب والتراجم من روائعها الحلة السيراء واعتاب الكتاب .

في أبي المجد الصوفي المهدي يداعبه لتوليعه بتزويج العجائز :

أبا المجد كم تغرى بحب العجائز   وذلك في شرع النهى غير جايز
كـَلِفت بأطلال محا الدهر رسمها   فأصبحت تبغي الفوز بين المفاوز

وأنشدني شيخنا الحافظ ابو عبد الله محمد ابن احمد بن حيان الأوسي قال أنشدني ابو علي بن معمر لنفسه :

آهـــا نردد لو تشفي لنا كربا   وبالتعلات نحيا لو قضت أربا
وبالاماني ينال القلب بغيته   وقـد تحقـّق من معتادها كذبا
يرتاح إن لاح برق من جهامتها   وما تراءى له إلا وقد ذهبـــا

ومنها يشير إلى قلبه :

وكم يعاني ملمـات بأيسرها   يهون الأمر من دنياه ما صعبا
وكم يلجلج في أفكاره لججاً   سوداً تؤجج في أحشائه لهبا
وكم تهب سموم من تنفسه   لو استمرت لما هبَّت نسيمُ صبا
أستغفر الله لا أشكو الزمان ولا   أبدي إذا طرقت أحداثه رهبا
ولا أئن لحظ منه أعوزني   ولا أسر إذا ماء المُنى انسكبا

وللتجاني قصيدة ظريفة في مدح طرابلس الغرب :

قصيدة التجاني في مدح طرابلس الغرب

سقى ربوعك يا مغنى طرابس   حياً يحييك منه كل منبجس
فكم يد لك في تأنيس مغترب   شطت به الدار عن أُنس وعن أنس
أقمت فيك على حكم النوى زمناً   كأنني فيه للسلوان في(١) عرس
أتوْب من أهلك الغر الكرام إلى   قوم أوافي لديهم كل ملتمس (٢)

(١) وفي رحلة التجاني المطبوعة « كأنني فيه للسراء في عرس » .. ص ٣٠٦ .
(٢) القصيدة تشتمل على ١٢ بيتاً وبقيتها في الرحلة المطبوعة ص ٣٠٧ .

ومنهم :

ترجمة احمد بن عبد السلام الاموي التاجوري الطرابلسي :

الفقيه الحافظ ابو العباس احمد بن عبد السلام الاموي التاجوري الطرابلسي لزم سكن طرابلس وهو أحد العدول المتصدرين بها عارفاً بالتوثيق وعقد الشروط حافظ للآداب والتواريخ حسن الخط جداً ورد على تونس كان مولده بطرابلس سنة ٦٣٥ ﻫ (١٢٣٧ م) وتوفي بها سنة ٧٠٨ ﻫ (١٣٠٨ م) ونسب إلى طرابلس أيضاً .

محمد الحسن التاجوري :

الشريف ابو عبد الله محمد بن عبد الله الحسيني التاجوري الطرابلسي وله بطرابلس وجميع جهاتها شهرة عظيمة ذكره صاحب كتاب كنوز [١] المطالب قال : اجتمعت به في صحن الخليل عليه السلام وكان قد اطال السكن به حتى عرف بالخليلي في المشرق وانما يعرف بالمغرب بالتاجري وتاجورة بلدة صغيرة بينها وبين طرابلس شرقاً مسير ربع يوم وهناك جبال كان اهلها يتشيعون فيها بزكواتهم وهداياهم اليه يفعل فيها ما يشاء فسعوا به ، وخاف ففر الى المشرق وسكن بصحن الخليل سنيناً وكانت مائدته منصوبة الى الصادر والوارد بخيرات عظيمة حتى ان الناس يتعجبون من ذلك فالبعض يقول انه يصنع الكيمياء والبعض يقول انه يصله من جبال تاجورة ما جرت به عاداتهم وان اباه خرج به من الكوفة وهو ابن سبع فدخل به المغرب وربي في مراكش ثم انتقل الى طرابلس فسكن تاجورة ثم انتقل منها الى المشرق وكانت وفاته بمدينة دمشق سنة ٦٥٢ ﻫ (١٢٥٤ م) ومن شعره :

---

(١) كنوز المطالب : من تأليف أبي الحسن علي بن موسى بن سعيد الغرناطي المتوفى سنة ٦٨٥ ﻫ (١٢٨٦ م) وهو صاحب كتاب « الطالع السعيد » .

جربت في الارض كل حي | فلم اجد في الورى كريماً
اظن ما في الطروس زوراً | حاشاه ان يسخى اللئيما[1]

ومنه :

السنا من بيت النبي[2] محمد | وفي الذروة العلياء من الغالب
ليوث ولكن لا تصاد بحيلة | سيوف ولكن لا تدين لضارب

ثم نرجع الى وصف طرابلس فنذكر بعض أوصاف حسان تتعلق بطرابلس

ذكر الشيخ ابو عبدالله العياشي المغربي في رحلتـــه الى الحج سنة ١٠٥٩ ﻫ (١٦٤٩ م) وهاته الرحلة بالخزانة الزيتونية [3] عدد ٥٠٥١ ما نصه :

كان دخولنا لمدينة طرابلس الغرب قرب الظهر يوم الاربعاء في السابع عشر من رجب اف وتسعة وخمسين هجرية (١٦٤٩ م) وهي مدينة مساحتها صغيرة وخيراتها كبيرة ، ونكايتها للعد وشهيرة ومآثرها جليلة ، وطيباتها كثيرة أنيقة البناء فسيحة الفناء ، عالية الاسوار متناسقة الأدوار واسعة طرقهـــا ، يسهل طروقها ، إلى ما جمع من زكاء الاوصاف وجيل لا تضاف لا تكاد تسمع من أهلها لغواً إلا سلاماً ولو لمن استحق ملاما ، لا سيا مع الحجاج الواردين عليها .

طرابلس ومواكب الحجاج

طرابلس مجمع الاركاب :

لأنها مجمع الأركاب الذاهبة والآتية من المشارق والمغـارب إلى حج بيت الله

---

(١) في النسخة المطبوعة من رحلة التجاني وردت الشطرة هكذا « عساه أن يسخى اللئيا » وفي نسخة مخطوطة « عساه أن ينتج اللئيا » .

(٢) وفي رحلة التجاني ورد البيت هكذا :

السنا بني بنت النبي وعمـــه | وفي الذروة العلياء من آل غالب

(٣) وطبعت رحلة العياشي بفاس وتوجد منها نسخة بمكتب الاوقاف بطرابلس – رفا – رقم ٠ ٢٤ ، ومنها مخطوطة دار الكتب بمصر .

الحرام وقبر نبيه عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام كركب فـــاس وركب مراكش، وركب الجزائر وركب تونس وركب الجريد وغير ذلك فإنهم يبالغون في إكرامهم ولا يألون جهداً في أفضالهم عليهم وانعامهم .

بعض اوصاف تخص طرابلس :

بعض أوصاف تخص المدينة الطرابلسية قال العياشي : وفي هاته المدة كان لها بابان ، باب من جهة البر وباب من جهة البحر والبحر يحيط بكثير من جهـاته ، والقصر الذي فيه الامير متصل بالمدينة من جهة باب البر بينه وبين البحر . ولأمير هذه المدينة نكاية في العدو .

نكاية طرابلس للعدو :

وله مراكب قل نظيرها معدة للجهاد قلما تسافر وترجع بغير غنيمة ، وقلما أسرت لهم سفينة إلا أن تكون من سفر التجارة لا من سفن الجهاد .

عوائد الركب إذا حل بطرابلس :

وكان من عادة كل ركب إذا حل بطرابلس سيما في الذهاب إذ يقيم بها نحواً من شهر يستعدون منها إلى الدخول للمفازة التي قل نظيرها ، وهي مفازة برقة ومن هذه المدينة يشتري الحجاج ما يحتاجون إليه من الإبل والقرب ويتخذون زاد نحو من ثلاثة أشهر إلى مصر إن كان الوقت شتاء وإن الوقت صيفاً فنحواً من شهرين .

وصف ابل طرابلس :

وإبل عمالة طرابلس في غاية الجودة قل أن يوجد لها نظير فقد يستعملونهـا

لجميع الأشياء حتى الحراثة والدراس ويسقون عليها وهي صبورة على جميع المشاق العظيمة ، مع طيب هواء البلد وقلة أمراضها وفي أمثال الحجاج (جمل طرابلسي وقربة مصرية) لأن قرب بلد طرابلس رديئة الدباغ ، وماؤها خبيث المساغ ، مع أنهـا لا تمسك من الماء إلا كما يمسك الماء الغرابيل . وهاته المدينة قد شاهد أهلها بركة الحجاج .

مشاهدة بركة الحجاج :

في أمر معاشهم فربما اجتمع فيها من الأركاب القاصدين لحج بيت الله الحرام والراجعين منه الخمسة أركاب او الستة ويصادف ذلك في كثـــير من الاحوال خروج عسكر البحر للجهاد ومع ذلك لا يزيد فيها السعر على ما كان عليه مع أن البلد في اكثر أحواله معروف بغلاء الاسعار بالنسبة إلى أرياف النيل وسواحـل المغرب وجباله ، الا أن أهلها مستكفون بها غاية الاستكفاء وراضون بها إلى النهاية . انتهى الوصف .

شيء من تاريخ طرابلس

استيلاء الاسبان على طرابلس الغرب .

أما أخذ الاسبان لطرابلس الغرب فقد ذكر المؤرخون أن لذلك قصة غريبة وهي أن أهل هاته المدينة فيما مضى كانوا اغنياء وأهل دنيا عظيمة فيما يقال ، وليس لهم خبرة بالحروب فبينما هم كذلك اذ قدمت عليهم سفن للنصارى تجاراً بسلع كثيرة فنزلت بالمرسى فخرج إليها رجل من التجار فاشترى منهم جميع ما بأيديهم من السلع ونقد لهم ثمنهـا ثم استضافهم رجل آخر فصنع لهـم طعاماً فاخراً فلما أخرج لهم الطعام أخذ ياقوتة ثمينة فدقها دقاً ناعماً وذرها على طعامهم ، فبهتوا من ذلك فلما فرغوا من الأكل قدم لهم دلاعاً (بطيخاً أخضر) فطلبوا

سكيناً لقطعها فلم توجد في داره سكـــين ولا عند جاره ، إلى أن خرجوا للسوق فأتوا بسكين فلما رجعوا إلى بلادهم سألهم ملكهم عن أحوال البلاد التي قدموا منها ، فقالوا له ما رأينا بدأ اكثر منها مالاً وأقل سلاحاً وأعجز أهـلا عن مدافعة عدو. وحكوا له الحكايتين فتأهب ملكهم لغزوهم في مراكب البحر فدخلها في ليلة واحدة بلا كبير مشقة واستولى عليها ولم ينج من أهلها إلا من فر ليلا . وانحاز المسلمون إلى تاجورة وجبـال غريان ومسلاته ، وصـارت المدينة للنصارى إلى أن كان من أمرها ما كان في التاريخ المذكور وكان تملك الاسبان لطرابلس سنة ٩١٦ هـ (١٥١٠) في شهر محرم الحرام .

فتح الترك لطرابلس .

وبعد أن مكث الاسبان فيها مدة أخذها الترك من يدهم وسبب أخذها أن عمارة من مراكب المسلمين جاءت من اسلانبول مدداً للعمارة الحاضرة لحلـــق الوادي بتونس فمرت بسواحل طرابلس فكلمهم أهل السواحل في إعانتهم على النصارى فقالوا لهم إننا لم نؤمر بذلك من السلطان. فقال له قائدهم أعينوني في هذا الأمر فإن كانت عقوبة من السلطان فأنا المؤاخذ بها دونكم فحصروها براً وبحراً إلى أن أخذوها . ولما سمع السلطان شكر سعي الجميع؛ وهناك رواية أخرى في سبب الفتح تماثل هاته وهي :

فتح الترك لتونس وحلق الوادي .

قال الشيخ مرعي [1] في كتاب : (نزهة الناظرين) عند ذكر السلطان سليم

---

(١) الشيخ مرعي واسمه الكامل : مرعي بن يوسف ابن ابي بكـر الكرمي المقدسي – ومن أدباء وفقهاء القرن الحادي عشر الهجري.. كان مولده بمدينة طولكرم – فلسطين وتوفي بالقاهرة عام ١٠٣٣ هـ (١٦٢٤ م) له مؤلفات عديدة في الادب والتاريخ والفقه والثقافة العامة حوالي سبعين كتاباً اكثرها ما زال مخطوطاً مبعثرا .. ومن بينها الكتاب الذي اشار إليه الحشائشي هذا « نزهة الناظرين » وقد أشار الزركلي في اعلامه الى عنوان الكتاب كاملا « نزهة الناظـــرين في تاريخ من ولي مصر من السلاطين » . ولكن اسماعيل البغدادي في « ايضاح المكنون » يذكر العنوان « نزهة الناظرين في فضائل الغزاة والمجاهدين » ، اعلام جـ ٨ ص ٨٨ .
ايضاح المكنون جـ ٢ ص ٦٤٢ .

ما نصه : كانت ولاية السلطان سليم سنة ٩٧٤ ﻫ (١٥٦٦ م) وفتح حلق الوادي في أيامه بعد استيلاء الاسبان على حلق الوادي وتونس وذلك بسبب الاختلاف الذي وقع بين سلاطين المغرب والحفصي يعني ملوك الحفاصة فصار بعضهم يتقوى على بعض بالنصارى وأطمعوهم في بلاد المسلمين فاستولوا عليها وتمكنوا منهـــا ونصبوا الحصار وأخذوا مملكة تونس .

أخذ الاسبان تونس .

ووضعوا السيف في أهلها وقتلوا النساء والاولاد الصغار إلى آخر مـا حكاه التاريخ في أخـــذ الاسبانيين لتونس . ولمـــا بلغ السلطان سليم ذلك ارسل لتونس اسطولاً به مائتا غراب [١] كلها مشحونة بالرجال الابطـــال والمدافع الضخمة وآلات الحرب وصحبة ذلك الوزير المشهور سنان باشا. وكانت غـزوة مشهورة من أعظم غزوات بني عثمان يحتاج تفصيلها إلى مؤلف وقتل من الاسبان نحو عشرة آلاف رجل مع الحصار الشديد والقتال، وكان هذا الفتح في سنة ٩٨١ﻫ (١٥٧٣ م) ثم خرب الوزير ما بناه الاسبان من القلاع والحصون ولم يبق لهـا رسماً .ووصلت البشائر للسلطان سليم وكان في نفسه فتوح إقليم الأندلس من يـد الاسبان فلم يمهله الأجل رحمه الله ، وقال غير واحد من المؤرخين أن سنـان باشا هذا الرجل العظيم هو الذي فتح طرابلس لمـا كان قادماً بأسطوله من اسلانبول إلى فتح حلق الوادي .

مصحف عجيب بخط الوزير سنان باشا .

فائدة : لما كنت في مدينة باريز سنة ١٩٠٠م بمناسبة زيارة معرضها العـــام رأيت في خزانة الكتب العمومية العربية مصحف قرآن بخط يد سنـــان باشا

---

(١) غراب — نوع من السفن الكبيرة .

المذكور على أكمل حال من الصحة وحسن الخط ويا له من مصحف ثمين وهـــذا دليل على كمال هذا البطل العظيم في خطة القلم والسيف – اهـ .

فتنة بين أهل طرابلس وخليل باشا حاكم البلد .

وفي رحلة الشيخ أبي العباس احمد بن القطب الشيخ محمد بن ناصر عدد ٤٤٨٦ بخزانة الجامع الاعظم وكانت هذه الرحلة سنة ١١١٩ مما نصه: كان دخولنا الى طرابلس ظهراً يوم الاحد الثاني والعشرين من شعبان فنزلنا بازاء الهنشير لأجل فتنة وقعت بين أهل طرابلس والباشا خليل حاكم المدينة. وكان هـــذا الباشا ظلوماً فجوراً يقدم الروم على أهل الاسلام واتخذ بطانة من النصارى يوليهم على المسلمين وكان يخلع ربقة الاسلام من عنقه ويهين العلماء والمرابطين ولذلك قيض الله من نفاه من اهله وقبيلته وخرج وسدوا المدينة في وجهه .

اعرف حصن لبدة وآثار الرومان .

حصن لبدة : وقال الشيخ بن ناصر في مكان آخر:...وبين طرابلس ومدينة شراوين خمسة أيام بينهما حصن لبدة ، حصن عظيم من بنيان الاوائل[1] وطئت اقدامي ترابه سنة ١٣١٣ في شهر رمضان ١٨٩٥ م بناؤه بالاجر والحجر الصلد وحوله أثار عظيمة وغرائب كثيرة يسكنه قوم من المغرب جملتهم نحو الف فارس وهم محاربون لجميع من يحاربهم من قبائل البربر أزيد من عشرين ألف بين رجل وفارس وظاهرين عليهم .

جبل نفوسه .

جبل عظيم من أعمال طرابلس في وسطه النخيل والزيتون الكثير والفواكه

---

(١) طبعاً الذي زار لبدة عام ١١٩٥ هو الحشائشي – واما الوصف الآخر فهو من كلام الرحالين القدامى فليلاحظ .

ويجتمع فـــيا حوله ستة عشر ألف رجل وطول جبل نفوسه من المشرق الى المغرب ستة أيام . انتهى كلام ابن الناصر . وسيأتينا مزيد من كلام يتعلق بهذا الجبل ان شاء الله .

حكاية عجيبة عن سماع صوت هائل من ناحية البحر .

ثم قال الشيخ بن ناصر حكاية عجيبة لا بأس بذكرها قال : اخبرني الشيخ سيدي محمد بن مساهل[1] سنة ١٠٦٤ هـ (١٦٥٣ م) ان اهـل طرابلس الغرب سمعوا في سنة ١٠٦٢ هـ (١٦٥١ م) صوتاً هائلاً من ناحية البحر كصوت المدافع الكبار بل اعظم من ذلك ؛ دام ذلك الصوت من وقت الشمس الى الليل.قال : وظنناه سفناً للمسلمين تلاقت مع سفن العدو . وكما سمعنا هذا الصوت سمعه أهل هاته السواحل الى بلدة مسراطة وسمعه حتى أهل فزان واسكندرية وسمعه من الناحية الغربية أهل جربة وسوسة وتونس وكل يظن انه قريب منه ، وبعـــد شهر أو شهرين قدمت مراكب من بر الترك واخبروا ان ذلـك الصوت لامر هائل وذلك ان جزيرة من جزائر البحر خرج في بعض نواحيها حجارة من الارض طلعت من البحر حتى اذا ارتفعت على المـاء وعلت في الهواء تصدعت فخرجت منها نار ويسمع لها ذلك الصوت فاذا خرجت النـار وقعت الحجارة على الماء خفيفة على الماء كهيئة الخفافة ودام ذلك الى الليل وارتفع من ذلك في الجو دخان كثير فيه رائحة الكبريت . انتهى كلامه .

حصر الطليان مدينة طرابلس .

قال الشيخ بن ناصر في رحلته الى الحج سنة ١٠٩٦ هـ (١٦٨٤ م) : لما قدمنا طرابلس ونزلنا فيها بمحل الركب فبينما نحن ماكثون واذا بسفن ثلاث ظهرت

---

(١) محمد بن مساهل : تولى افتاء طرابلس عام ١٠٣٧هـ وظل اربعين عاماً في منصبه توفي عام ١٠٧٧ هـ ١٦٦٦ م .

في البحر ثم تتابعت السفن الى أن كملت اثنتين وعشرين سفينة في اليوم نفسه ، فاقاموا على المدينة بقية يوم الثلاثاء والاربعاء والخميس والجمعه وأهل المدينة في تلك المدة في هول عظيم ونكد جسيم وعناء شديد وليس من بينهم من مدبر ولا ذو رأي حميد ونظر سديد ، ولما رأينا ذلك تكلمنا مع وجوههم حيث رأيناهم ينقلون في أمتعتهم من المدينة لخارجها وحريمهم إلى سوانيهم على فعلهم غير اللائق بهم فيما يبدو لنا منهم في إظهار الجزع والخوف والجبن للصقليين النصارى فقلنا لهم إن هذا الفعل ذميم فاصبروا ولا تظهروا لهم الوهن والجبن. فقالوا: والله هذا ليس بجبن وإنما حملنا على ما رأيتم ما أتوا به مما لا طاقة لنا على الصبر عليه من البونبة التي تتساقط علينا مثل المطر من سفنهم الحربية ، فإن هاته البونبة يضربوننا بها ولا تقع على شي كان ما كان إلا وهدمته ودكته ، والمسلمون كلهم في هاته الايام لا ينامون بل يحرسون على البحر ويطوفون حوله ، فلما كان بعد العشاء ليلة السبت ضرب النصارى بمدافعهم .

ضرب طرابلس بالبونبة والراتب حاضر يشاهد .

قال الشيخ بن ناصر: فرأينا من ذلك ما لم نره قط ولا سمعنا به. ترى البارود حين يخرج من بخش المدفع فإذا بكورة محمرة تحكي الشهاب خارجة منه صاعدة ثم تدلي هابطة ثم يرمون بأخرى وتقع اكثر من الاولى وإذا هبطت إلى الأرض تسمع لها صوتاً هائلاً تصم منه الآذان وتقشعر منه الجلود فتتصدع بالموضع الذي وقفت فيه فتنفجر كالصاعقة ولا وقعت على بناء الا هدمته ، ولا على بسيط مستو إلا وجعدته . ونحن في ذلك رافعون اكف الدعاء إلى الله بالذلة والخضوع الليل كله ، ولا نكتحل بنوم قط ما أطلق مدفع منهم إلا وظننا أنه يقع علينا فتارة حذاء البحر وتارة تمر علينا وأكثر ما تقع بالمدينة أو قرب المدينة أو شاطىء البحر . فأخذوا في الضرب الليل كله الى الصباح بل إلى الضحى لا يفترون عن ساعة ، وضربوا فيما أخبرني بعض علماء البلد ازيد من تسعمائة بونبة .

قال الشيخ بن ناصر فلما رأينا هذا الأمر ومعنا النساء والصبيان وفيهن الحوامل خشينا عليهن أن يقذفن ما في أرحامهن مما يعاين. فتحولنا لبعض البساتين المسورة فنزل الركب بها وأدخلنا حريمنا لبعض الديار ثم أمسكوا عن الضرب إلى أن وصل العشاء فضربوا أيضاً دفعة واحدة فهاجت عليهم أرياح عاصفة وأفسد كور العدو . وعند الفجر عادوا إلى الرمي أيضاً وتمكنوا من النزول بشاطىء المرسى فدهمهم المسلمون المرابطون بها .

هزم الطليان بطرابلس .

وكسروا لهم صندلاً صغيراً فنكصوا وولوا الادبار وانهزموا هزيمة شنعاء واجتمعت آلاف من المسلمين بعد ذلك بعددهم وعددهم وانخذل الطليانيون .

الصلح بين الطليان وأهل البلد .

ثم جرى بينهما صلح على أن يدفع المسلمون جميع من عندهم من أسرائهم وشرط عليهم المسلمون مثل ذلك واشترط النصارى على المسلمين أن يردوا لهم ما أخذوا منهم قبل ذلك الزمان في البحر في هدنة بينهم فقبل المسلمون لهم ذلك وقدره مائة ألف ريال قرملية وحين تم الصلح دخل النصارى المدينة للتسوق وربما أغلظوا على بعض المسلمين .

قال الشيخ بن الناصر : وذلك لتوعد أمير البلد من الترك على من أساء على نصراني ولو بكلمة بعقاب شديد . فصبر أهل المدينة على ذلك واما المغاربة وجميع الحجاج فاغلظوا على النصارى وأخشنوا لهم في القول ثم أن أهل البلد أخذوا في دفع ما اشترط عليهم النصارى فصاروا يدفعون لهم الخيل والزرع والابل والبغال والحمير . قال الشيخ بن ناصر : وكلمنا علماءهم المالكية فقالوا والله ان هذا هو الصغار بعينه ولا قدرة لنا على الاحتراز منه . وخرج الركب خارج المدينة خوفاً من مشاهدة هذه الفظائع ثم أجلى الله تعالى النصارى عن المدينة يوم الخميس بعد المهادنة وإمضاء شروط الصلح وفرح المسلمون بانتقالهم

عنهم وإقلاعهم عن البحر غاية الفرح وذهب الحمار بأم عمرو ..

الاسبان: استيلاء النصارى الأخير على طرابلس .

قال الشيخ ابن ناصر : إن الاستيلاء الأخير الذي استولى عليها الاسبان كان سنة ٩١٦ ﻫ (١٥١٠ م)فدامت في يد الاسبان اثنتين واربعين سنة وهو موافق لما قاله العياشي ، وقد مر آنفاً ، وقال الشيخ بن ناصر في مكان آخر من رحلته ان النصارى استولوا على طرابلس في أيام السلطان ابن عنان وافتكها منهم فصالحه بخمسة قناطير من الذهب العين فعد ذلك من أجل مآثره ، قلت لم يبين جنس النصارى هل هم من الاسبان أو الطليان والظاهر الاول ، قلت فتلخص من هذا أن طرابلس الغرب تداولتها ايدي المسلمين والنصارى فالمسلمون العرب والترك والنصارى الطليان والاسبان . بقا لنا أن نذكر ما ذكره الشيخ محمد بيرم في رحلته (صفوة الاعتبار بستودع الامصار) مع ذكر ما أخذته بعد الفحص والتنقيب من بعض التواريخ المعتبرة التي تعرضت لذكر طرابلس استطراداً وما سطره يراعي مما شاهدته الباصرة ، وارتسم بفكرتي القاصرة خصوصاً ما ذكرته برحلتي الصحراوية سنة ١٣١٣ ﻫ (١٨٩٥ م) مما يتعلق بأحوال طرابلس وجميع أوطانها في عصرنا الحاضر .

التكلم عن احوال طرابلس.

فأقول والله ولي الاعانة : غير خفي على من يعلم من التاريخ أن جميع عمالة طرابلس الغرب في يومنا هذا وذلك بما يشمل بنغازي كانت كلها تحت سلطان تونس في العصور الاولى والوسطى، فهي مملكة عربية اسلامية وذلك من عهد سيدنا عمر بن الخطاب الخليفة الثاني رضي الله عنه فهي مملكة عربية اسلامية إلى أن أتت الدولة الحفصية وبلغ ملك إفريقية وتونس السلطان الناصر الحفصي وقد ضعف أمر الولاية على مدته إلى أن استبد عليه خلفاء الولاية في الأطراف

عصيان والي طرابلس على سلطان تونس الحفصي

فكان من جملة من عصى عليه والي طرابلس اذ ذاك لأنها من الاطراف التابعة لتونس فجهز الناصر الحفصي جيشاً.

استيلاء ابي محمد عبد الواحد على طرابلس.

وأولى على طرابلس أبا محمد عبد الوهاب ابن ابي حفص فقبل منه الولاية بعد امتناع عظيم على شروط اولها إبقائه والياً إلى أن يعيد البلاد إلى أعز ما كانت عليه من البناء والراحة، الثاني أن يستقل بالادارة في مدة ولايته بحيث لا يعارض ولا يرد أمره في شيء، الثالث، ان ينتخب مقداراً من العساكر حسب إرادته لإبقائهم في إعانته. فأجيز له ذلك وبقي في الولاية إلى أن مات رحمه الله وولى بعده ابنه الذي هو على شاكلته.

استقرار الغنى والعدل بطرابلس.

فاستقر العدل والغنى بطرابلس حتى كان ذلك سبباً في طمع العدو فيهم كما عرفته فيما مضى من أخذ الاسبان لها الذي كان في ذلك الوقت أحمد الحفصي الذي هرب من تونس بدولة أسبانا قائماً على عمه بتونس.

ارسال الاسبان اسطولاً لأخذ طرابلس

فأرسلت الأسبان أسطولاً إلى أخذ طرابلس ومعه الأمير المذكور وأخذ طرابلس.

تداخل الطليان من النبلطان [1] بالافساد بين الاهالي والأسبان.

ولما رأى ذلك النبلطان الذي هو أحد ممالك الطليان تداخل بين الاهالي

(١) النبلطان هي مملكة نابلي.

بالافساد ووعدهم بالحماية من الظلم وانه اذا طاعوه حماهم من المظالم الاسبانية ولا يتداخلوا في أمورهم وإنما يستولوا على الحصون فقط ثم طاوعوه عـــلى ذلك وأخذ النبلطان طرابلس .

أخذ النبلطان طرابلس .

وكان ما كان وأجرى فيهم الأمر كما وعد ثم ابتدأ بالتداخـــل فيهم ففرت بعض الأهالي من البلد وتحصنوا في تاجوراء وكانت الحرب بينهم قائمة غير أنهم علموا بضعفهم عن امتداد المقاومة فأرسلوا وفداً منهم إلى الاستانة ..

ارسال وفد من اعيان طرابلس الى الاستانة تستنجد بالدولة العثمانية دام بقاها.

في انقاذهم من النبلطان واستنوها للاستيلاء على طرابلس واعمالهم وحيث كانت هي اذ ذاك اقوى دول الاسلام وجمعت تحت رايتهـــا اغلب دوله كمصر والشام والعراقين ولما وصل الوفد الى الاستانة ، تعجب من شكلهم كل من رآهم ولم يجدوا أحداً يفهم لغتهم حتى صادف احد الطواشين الجم المحتبك للتفرج عليهم وكان عالماً باللغة العربية فعلم القصد ، وكان هو الواسطة في إبلاغهم للدولة فأولته هو على طرابلس وارسلته مع حامية ضعيفة لانهم سهلوا الامر على الدولة لكنه لما وصل ذلك الوالي وعلم حقيقة الأمر أرسل بتفصيل الاخبار الى الدولة .

الاسطول المتوجه الى تونس من الاستانة .

وكان اذ ذاك اسطولها المتوجه الى الاستيلاء على تونس على أهبة السفر تحت رئاسة البـــطل العظيم سنان باشا الوزير المشهور فامرته الدولة بالتعريج على طرابلس أولا فافتكها وبقيت مستقلة بالادارة .

افتكاك الترك طرابلس من يد الطليان .

ليس للدولة عليها الا هدايا و عانات في وقت الحرب الى أن عصى .

عصيان يوسف باشا قاره ماللى ومحاربة الترك له .

عصى يوسف باشا قاره مللى وحاربته الدولة العثمانية في أواسط سنة ١٢٥١ هـ (١٨٣٥ م) .

استيلاء الترك على طرابلس استيلاء باتاً :

فاستولت الترك حينئذ على طرابلس استيلاء باتاً وصارت إدارتها مثل الادارة العثمانية ومركز الولاية مدينة طرابلس . انتهى كلام الشيخ بـيرم وفيه بعض مخالفة لما ذكره الشيخ احمد بن ناصر من أن الترك اخذوها من يد الاسبان طبق ما تقدم آنفاً والله اعلم .

قول الشيخ مقديش في طرابلس :

قول الشيخ مقديش في طرابلس في صفحة ٣٩ من تاريخه ما نصه :

طرابلس كانت حسناء إلا أنها الآن خراب وهي في نحر البحر كانت بيضاء وفي بعض التواريخ تسمى المدينة البيضاء حسنة الشوارع متقنة الاسواق وبها صنائع وأمتعة يتجهز بها إلى كثير من البلاد ، وكانت متصلة العمارة من جميع جهاتها كثيرة شجر التين والزيتون وبها فواكه جمة ونخل [١] إلا أن العرب أفسدت ما حولها وأضرت به وأجلت أهلها وأخلت بواديها وغيرت أحوالها وأبادت أشجارها وغورت مياهها وكانت عديمة المثال في إصابة الزرع ولا يدري في معمور الأرض مثلها في ذلك وكان ذلك عندهم معلوماً مشهوراً ثم أن هاته المدينة أهلكت بالمرة ...

---

(١) لعله يشير إلى غزو جحافل بني هلال المعروفة ، او إلى حركات القلاقل والاضطرابات المتوالية في تلك الاعصر .

انشاء مدينة ثانية بطرابلس :

حتى أنشأ الأمير درغوث باشا احد أمراء الدولة العثمانية مدينة جديدة بالقرب من الاولى وسماها المنشية وهي مدينة لطيفة جليلة في قدر مدينة سوسة. انتهى كلام مقديش . ولهذا الامير مزايا عظيمة على طرابلس منها جامعه العظيم المعروف بجامع درغوث .

المؤلف يصف طرابلس واحوالها .

فصل في أهل بلد طرابلس :

فصل في أهل بلد طرابلس : علم ان غالبهم من البرابرة وطباعهم تميل الى البداوة اكثر من الحضارة وهم على كمال بشري في انفسهم وغالبهم يميلون الى التجار خصوصاً في هاته السنين الأخيرة فلهم متجر عظيم مع أهل السودان من برنو ووادي والشاد وغات وغير ذلك .

أهل طرابلس مع الغريب :

ولا يميلون الى الغرباء في أول الأمر وقد ذكرت هذا في رحلتي لكن تحققت بعد ذلك أنهم اذا عاشروا الغريب أكرموه واعتبروه كأنفسهم وصدق الله تحقيقي هذا ببيتين من الشعر وجدتها ببعض التقارير للفقيه ابي الحسن :

لاهل طرابلس عادة من البر تنسي الغريب الحميما
حللت بها مكرهاً ثم ذ اقمت بها ابدلوا الهاء ميماً

وقول التجاني : ـ [1]

سقى ربوعك يا مغنى طربلس حيا يحييك من كل منبجس

---

(١) تقدمت الاشارة الى هذه الابيات .

فكم يد لك في تأنيس مغترب شطت به الدار عن انس وعن انس
اقمت فيك على حكم النوى زمنا كانني فيـــه للسلوان في عرس

العلوم والمعارف بطرابلس :

اما العلوم والمعارف العصرية فلا توجد عندهم بل لا يشمون لها رائحة كما لا توجد عندهم علماء أعلام من فقهاء الاسلام، على أن هاته المدينة اشتهرت بأكابر من علماء الامة المحمدية كالفقيه أبي عـــلي الحسن ابن موسى بن معمر الهواري الطرابلسي، كما مررت له ترجمته هو وغيره من الأكابر.

خشوع الترك لسماع كلام الله :

وفي رمضان سنة ١٣١٣هـ (١٨٩٥ م) دخلت جامع السوق داخـــل البلد وهو جامع بهيج عليه رونق عظيم فوجدت كثيراً من أعيـــان الترك من ضباط وغيرهم كل منهم جالس على ركبتيه بخشوع وتؤدة ووقـار يسمعون في كلام رب العالمين من مجود عالم بالتلاوة مصريّ له صوت حسن كأنه من مزامير آل داود. وفي أحد أركان الجامع من الجهة القبلية وجدت العـــالم الفاضل النحرير المنعم الشيخ محمد [١] بن مصطفى باشا مفتي السادة الحنفية يقرى الحديث الشريف متن الشفا للقاضي عياض [٢] وعليه حلقة عظيمة من أعيان البلاد وغيرهم =

---

(١) العـــالم الطرابلسي – محمد كامل بن مصطفى مؤلف كتاب « الفتـــاوى الكاملية » من مشاهير علماء طرابلس الغرب توفي عام ١٣١٥ هـ ١٨٩٧ م . راجع ترجمته في كتاب « أعلام من طرابلس » بقلم علي مصطفى المصراتي .

(٢) القاضي عياض : عياض بن موسى ابو الفضل من شوامخ علماء المغرب ومن رجـــالات الحديث ، تولى قضاء مدينة سبتة – ومدينة غرناطة وكانت وفاته بمراكش – ومن اشهر مؤلفاته المتداولة كتاب « الشفا بتعريف حقوق المصطفى – وكتاب المدارك وتقريب المسالك في أعـلام مذهب مالك » لا يزال مخطوطـــاً – ويقوم صديقنا الدكتور باكير التونسي بتحقيقـــه ونشره. وللقاضي عياض أيضاً شرح صحيح مسلم – وقد ألف احمد المقري كتاباً ضخماً في ترجمة القاضي عيـاض وهو « أزهار الرياض – طبع منه ثلاثة أجزاء وبقي الرابع مخطوطاً كان ميلاده – ٤٥٦ هـ ١٠٨٣ م ووفاته ٥٤٤ هـ ١١٤٩ م .

يراجع عنه قضاة الاندلس ص ١٠١ .اعلام الزركلي ج ٥ ص ٢٨٢ . قلائد العقيـــان ص ٢٢٢ .وفيات الأعيان ج ١ ص٣٩٢ .

كيفية إلقاء الدرس بطرابلس الغرب :

= وهو على اسطبل من اللوح ع ل على الارض بمقدار يسير تراه أعلى من جميع من دار به من السامعين . وهاته عادة جلوس المدرسين عندهم الا أن الكراسة لا تنقطع من يـــده وهو أول شهور[1] بالعلم هناك الى أن تم درسه قبيل المغرب بساعة. وفي مدة اقامتي بهاته المدينة رأيت اوباش[2] البلد لهم مخالطة مع الجنس الطلياني وغالبهم يتكلمون معه باللغة الطليانية .

اكثر الاوربيين بطرابلس من الطليان :

واكثر الاوربيين بها طليان .

كيفية بناءات البلد :

والبــــلد القديم بناؤه على الشكل العربي المعروف عندنا بتونس الا اماكن الافرنج فانهـــا على الشكل الأوروباوي والبـــلد الجديد المعروف بالمنشية على الشكل الجيد مثل [3] .

هواء البلد وما يحدث به من الامراض :

أما هواء البلد فهو معتدل ليس برديء وتوجد به الحمى[4] في زمن الصيف .

نعيمها وخيراتها :

اما لحوم البلد وفواكهها وغلاتها فجميعها طيبة ، وفيها من كل ما خلق الله

---

(١) لعله يقصد وهو أول مشهور بالعلم هناك .

(٢) حقيقة كم جر أوباش البلد من كوارث على البلاد بمخالطتهم للطليـان وكانوا من عوامل التمهيد للغزو الاستعماري الذي عانت منه البلاد ما عانت ...

(٣) بياض بالاصل مقدار كلمة ولعله كان يريد التشبيه ببلد في تونس .

(٤) غريب هذا .. اذ أن البلد من نعمة الله لا توجد بها الحمى بل ان هواءها ومناخها من اطيب مناطق حوض البحر الابيض ..

لعباده من أصناف النعم بثمن متهاون ويعظم فيها الدلاع (البطيخ الاخضر) الى أمر عظيم بحيث ان الجمـــل لا يمكنه حمل دلاعتين الا بمشقة وهو في غاية الحلاوة مع لذاذة الطعم .

السلع الواردة والخارجة :

ويأتيها من اوربا غالب السلع التي تأتي الى بلد تونس ويخرج منهـــا القمح والشعير والبقر والغنم والصوف، والتمر وبعض الغـلال كالبردقان والليم الحامض والحلو والفلفل الأحمر الشايح والحنا وسلع السودان كالجلد المسمى بالرقعة وريش النعام وناب الفيل وغير ذلك . وهاته السلع الخارجة ليس عليها ضرائب دولية الا شيء قليل وجميع ما يأتيها من السلع براً مع القوافل السودانية وغيرهـا لا يؤدي شيء من الضرائب .

اجناس التجار بطرابلس :

وغالب تجارها من أهـل البلد وبعض من المالطيين واليهود ، ولا يوجد فيها بانكه ماليـة في وقت حلولي بها ولا طرق من الحديد ولا معامل اوربيـة نارية ولا قهاوي منظمة على الشكل الأوربي . وهي لا زالت بعـــيدة عن التنظيات الاوربية والتحسنات .

الفلاحة بطرابلس :

اما الفلاحة في هذا البلد فتنقسم على قسمين القسم الاول اصحاب البساتين الكبيرة والاراضي المجاورة الى البلد يعني احواز طرابلس واصحاب الآبار والمياه فان هؤلاء يتقنون الفلاحة ويخدمون الارض جداً واما العرب والعروش البعيدة عن البلد وهم القسم الثاني فليسوا باصحاب حزم وكد لا يخدمون الفـلاحة على أصلها مع أن اراضيهم جيدة في غاية الخصب لكن يميلون الى المتاجر اكثرمـــا يميلون للفلاحة على عكس اهل بني غازي كما سنعرف (انشاء)الله فيهذا التاريخ.

الحالة العسكرية في مدة حلول المؤلف في طرابلس سنة ١٣١٣ ﻫ (١٨٩٥ م):

الحالة العسكرية بهاته المدينة ينقسم حال الجيش إلى قسمين امـا ما كان من رتبة شاويش إلى رتبة أمير أمراء فإنهم على أكمل حـــال وأتم منوال يأكلون الطيبات ويسكنون الغرف الرفيعة وفيهم ذوات العيال بكثرة ومرتباتهم جارية يميلون إلى التنزه كالاوروبيين ويلبسون اللباس الفاخر وحريمهم في غـاية التستر لا ترى من جسم المرأة أنملة مـــع العفة والديانة وغالبهم يحسنون التكلم باللغة الافرنسية . أما العساكر فحالتهم دون ذلك ومرتباتهم ليس جارية على أصلهـا في ذلك الوقت.

كم كان في طرابلس من العساكر سنة ١٣١٣ ﻫ (١٨٩٥ م) :

وفيها من العساكر في ذلك التاريخ سنة ١٣١٣ ﻫ (١٨٩٥ م) . مـــا ينيف على الثمانية آلاف جندي تامـة لعدد والعدد وقيل لي إن جميع مرساها كلهـــا محصنة بالالغام البحرية بحيث لا تجوز سفينة كبيرة إلا بدليل . وما ابهج نظـام تلك العساكر العثمانية خصوصاً عندما تكون الموسيقى السلطانية تصدح بنغماتها الشجية في أدواح المنشية والضحى ينشر نسيمه العليل على أفنان الشعاب ذوات الظـل الظليل . وثغر طرابلس في ابتسام والربيع ضارب أطنابه بأريافها وعلى الدنيا السلام . .

ابيات للمؤلف في الموسيقى العثمانية بطرابلس :

خرجت يوماً الى نواحي المنشية فوجدت طائفة من الجيش التركي والموسيقى معه تصدح بتلك النغمات السالبة للعقول وكان معي بعض من له إلمـــام بالأدب فاقترح عليّ بعض ابيات في ذلك المنظر البهيج الحافل فانشدته ما خطر بعد ان تمتع بتلك الهيئة الحسنة كل من السمع والبصر :

جيوش الترك قد صدحت نهاراً ... بالحـــان تروق بهـــا شجية
وثغر طرابلس يزهو ابتساما ... بطلعة حسن هيئتـــه البهيـــة
دعت بالنصر للسلطان فوراً ... وللإســـلام طراً في الـــبرية

وان النـــصر معقود تراه   براية فخر دولتـــه العليـــة

فاستلطفها المقترح .

حالة مرساها :

ومرسى البلد ليس بمرسى صناعي بل تقف فيه السفن قريبة من البر وان اشتد البحر يصعب النزول من السفن على الركاب. ولما كنت هناك وجدت بمرساها مدرعة واحدة للعثمانيين وبابورين للبوسطة أحدهما فرنساوي والآخر طليـاني وكان الطلياني متوجهاً الى تونس وهو الذي حملني الى مسقط رأسي .

تونس تؤنس الغريب فحق   ان أقول لأهلها ياكرام

احكام المدينة وعدليتها :

اما احكام هاته المدينة فهي جارية على مقتضى قانون المجلة التركية على مذهب الإمام ابي حنيفة النعمان رضى الله عنه وارضاه ، وفي بلدانها الكبار نجد حاكماً سياسياً هو المتصرف وقاضياً شرعياً يأتي في الغالب من الآستانة .

اشياء كثيرة يستعملها الترك باللغة الفرنسية :

قد عرفت آنفا ان أمراء الترك وحكامها يتكلمون باللغة الفرنسية جيداً إلا النذر القليل ، ولنذكر لك حكاية تدعم هذا القول وهي انني لما كنت ببلاد مرزق باقصى فزان ارسلت يومـــاً تابعي السيد رمضان الشامي (وسيأتي الكلام على هذا الرجل بمناسبة) الى بيت الدواء المعدة للعسكر المقيمين بمرزق نطلب من السيد احمد اليوزباشي المكلف بالمستخانة الطبية وهو الطبيب العسكري بمرزق شيئاً من الدواء الصالح لجرح بركبتي اليسرى والوقت حال حر شديد فأرسل لي قارورة مـاء نتن الرائحة قائلاً لي ان ثمنها عشرين قرشاً ، خمسة فرنك تونسي ، متعللاً أن الدواء محسوباً عليه من الحكومة فلا يمكن اعطاءه من دون ثمن ولا يباع الا للوجهاء من الغرباء فأرسلت له مع الحامل عشرين قرشاً واستكثرت

خيره . ثم لما بلغته أرسل لي في الحين توصيلاً منه مختوماً بطابعة مكتوباً ذلك التوصيل باللغة الأفرنسية في القدر المذكور وبعد يومين أتاني اليوزباشي المذكور يزورني فكشف عن ركبتي وبشرني بالشفاء عن قريب ووقعت بيني وبينه محادثة لطيفة ، فحكى لي أن صله من بلد السودان غير أنه لا يعلم مسقط رأسه ، كان اشتراه بعض الاتراك من طرابلس الغرب وذهب به الى الآستانة ثم أعتقه سيده وهناك تعاطى القراءة والكتابة بالتركية والعربية ودخل مكتب الحرب وتعلم ما يلزم تعليمه الى أن أتى في نوبته الى طرابلس ثم منها الى مرزق وهو في غاية السواد الفاحم مع رقة البشرة وظرف المحادثة . ثم سألته لم كتبت الي التوصيل المذكور باللغة الأفرنسية والحال انك تحسن اللغة العربية والتركية وأنا عربي . فقال لي أن جميع ما يتعلق بدواء العساكر العثمانية في جميع مملكتها يكون حسابه باللغة الأفرنسية وعندنا اشياء كثيرة نستعملها باللغة الافرنسية لا بلغتنا التركية .

الكلام على أعمال طرابلس وبعض بلدانها المشهورة :

اعلم أن لمدينة طرابلس اعمال كبار ثلاثة اولها فزان وهو في الحقيقة اكبر الاعمال مساحة ، والثاني عمل سرت وهو أخصب الأعمال وأجودها تربة ، والثالث عمل الجبل وبلغني في هاته المدة أن الأعمال صارت أكثر من الثلاثة ولكن مبنى كلامي على ما كتبته في حق طرابلس سنة ١٣١٣ هـ (١٨٩٥ م) سواء كان في هذا الموضوع أو في غيره فلتعرفه حتى لا تنسب إلي وهماً إذا عرفت حالها سنة ١٣٣٠ هـ (١٩١١ م) .

كيفية حكام أعمال طرابلس ولمن يرجع أمرهم :

ولكل عمل حاكم سياسي يسمونه متصرفاً نظره ومتصرفيته على ذلك العمل . وكل عمل به عدة بلدان وفي كل بلد حاكم يسمونه القائم مقام من غير رتبة عسكرية ونظره تحت متصرف ذلك العمل . ونظر المتصرف للباشا العام حاكم

ولاية طرابلس والباشا نظره لوزير الخارجية بالدولة العثمانية .

أحسن الاعمال بطرابلس :

وأحسن الأعمال من جهة حسن الأرض واعتدال الهواء عمل سرت ثم الجبل ثم فزان اما بنغازي ودرنه وبرقة والجبل الأخضر فسنعقد لهـا فصلا يخص كل واحد من ذلك لأنها خارجـــان في هاته المدة عن حكم باشا طرابلس ولهم باشا معلوم وحد خصوصي وقد كانوا تحت نظر باشة طرابلس في الزمن الماضي ونبدأ بعمل فزان وعلى الله التكلان . .



فـــزان

الكلام عن عمل فزان :

اعلم أن عمل فزان يبتدىء من حدود سرت من الجهـة الشرقية وينتهي إلى القاطرون من أعمال مرزق من الجهة الغربية المائلة للجنوب يسيراً مســـيرة ستة عشر يوماً للركب السريع .

فتح فـــزان

ان الفاتح له في صدر الاسلام عقبة بن[1] نافع جهة سرت لما كان قاصداً فتح إفريقية ، قـال المؤرخ البكري ما نصه : لمـا دخل عقبة فزان دخلها بجيوشه وصار يفتحها بلداً بلداً ، وتلاقى بملكهم فأسلموا جميعاً وفرض عليهم ثلاثماية عبد من اسارى السودان الكبـار لكون ذلك حامـــلاً لهم على غزو من يليهم من الكفار امامهم . فلما اسلموا صار لهم مالنا وعليهم ما علينا وهذا بمثابة الخراج وفي هـــذا من عظيم المصلحة مـالا يحصى من المنافع فان بخروجهم من الوثنية ودخولهم في نور التوحيد والعـلم يدخـلون الى المدنية والعدل ومن استرق منهم ووصل الى الاسلام يخرج من ظلمة الاوثان والجهل ومن شر العيش الضنك والوسخ والهمجية الى العيشة الراضية والرياش والانس والعدل. والكثير من هؤلاءالأرقاء صاروا علماء اخيار وحكماء وقواد جيوش وحكام أمصار ومنهم من فتح ممالك

---

(١) عقبة بن نافع فاتح الشمال الافريقي استشهد بالجزائر بارض الزاب عام٦٣ هـ – ٦٨٣م .

شاسعة وكثير من نسائها كانت امهات للخلفاء والملوك والعلماء والاعيان .

أكابر قواد الاسلام من الارقاء :

ولنذكر طرفاً من هؤلاء الارقـاء الذين صاروا اعياناً لتعـلم حكمة الشريعة الاسلامية : منهم الرجل الوحيد الذي لم تكسر له راية في الإسلام طارق بن زياد فاتح الاندلس وأمير طانجة وما يليها وهو مولى الاميرموسى بن نصير [1]، ومنهم طريف مولاه ايضاً وهو فاتح جزيرة طريف المعروفة الآن بالوطن القبلي ومنهم أبو المهاجر دينار . مولى مسلمة بن المخلد الأنصاري أمير مصر فإن مولاه مسلمة اولاه على أفريقية فقلد الجنود وغزا وفتح الى تلمسان وساس البـــلاد . ومنهم يزيد ابن دينار مولى الحجاج بن يوسف الثقفي فقد ولي امارةافريقية . ومن الأمراء القواد عبيد اللهبن الحجاب مولى الحجاج السلولي فقد وليمصر وافريقية والمغرب والأندلس فاختار الأقامة بمدينة القيروان وأولى على مصر والمغرب والأندلس أمراء من قبله فكانت ولايته تمتد من العريش الى أقصى ثغور الأندلس ، ومنهم عبـد الأعلى بن جريح الرومي من روم افريقيه مولى للعرب ، تولى امارة طانجة وما يليها وكان قائداً للخوارج الصفرية في حروبهم ، هؤلاء كلهم من المتقدمين في المئة الأولى وبعض الثانية من الهجرة . ثم استمر ذلك فيما بعد في جميع الأقطار الإسلامية ومنهم ابو شجاع فاتك الأخشيدي الرومي الأصل مولى الأخشيدي صاحب مصر ومنهم كافور مولى عبد الله بن طغج الأخشيدي ، ومنهم جوهر الصقلي مولى المعز العبيدي صاحب المهـدية فاتح مصر والمغرب ومؤسس قاهرة مصر والأزهر ومنهم أفلح مولى المعـــز العبيدي أمير برقة الى غـــير هؤلاء مما لا يأخذهم العد .

العلماء من الأرقاء :

اما العلماء من الأرقاء فمنهم « محمد بن سيرين » مولى انس بن مالك رضي الله

---

(١) موسى بن نصير توفي عام ٩٧ هـ - ٧١٥ م .

عنه فهو فارسي الأصل من أهل جرجرايا ومنهم « عبد الله بن دينـــار » مولى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ومنهم « نافع » مولى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما وهو من سبي الديـلم ، ومنهم « محكول بن سهراز » مولى لامرأة من هذيل وهو من سبي كابل ، ومنهم ابو عبيد الله قاسم بن سلام الرومي اول من صنف غريب الحديث ، وغيرهم مم لا يحصى .

النساء الأرقاء اللائي صرن أمهات للخلفاء والملوك والعلماء والأعيان :

فمنهن شاة فريد بن فيروز ابن يزدشرد ملك الفرس وفيروز بنت شرويه ملك الفرس أيضاً وأم شيروه ابنة خاقان الترك وام جـرد ابنة قيصر الروم وهي أم الخليفة يزيد ابن الوليد ابن عبد الملك من خلفــاء بني أمية بالمشرق فكان يزيد يفتخر بذلك والخليفة ابراهيم ابن الوليد اخوه أمه بربرية من سبي البربر ومحمد ابن مروان . اخي خلفائهم أمه مولاة سبي من سبي الكرد والخليفتان موسى الهادي وهارون الرشيد من خلفاء بني العباس أمهما الخيزران مولاة أيضـاً . والمأمون ابن هارون الرشيد من خلفاء بني العباس أمه مولاة اسمهـا مراحل والمعتصم بن هارون أمه مولاة و لواثق ابن المعتصم أمـه مولاة رومية اسمها قراطيس ، والمتوكل أمه مولاة تركية اسمها شجاع وسيدنا علي زين العابدين ابن سيدنا الحسين رضي الله عنه امه ابنة يزد جرد ملك الفرس المار ذكره ، وقاسم ابن محمد بن سيدنا ابي بكر الصديق رضي الله عنه امه ابنة يزد جرد ملك الفرس أيضاً فهم أبناء الخالة ، وسالم بن عبدالله بن عمر رضي الله عنه أمه ابنة يزدجرد ملك الفرس أيضاً كان آتى بسبي بنات يزد جرد المذكور فاشتراهم الامام عـلي كرم الله وجهه فأهدى واحدة لابنه الحسين والاخرى لعبدالله بن عمر بن الخطاب والاخرى لمحمد ابن ابي بكر الصديق رضي الله عنهم فولد كل واحدة منهم إماماً من أئمة المسلمين وام الأمراء الاغالبة مولاة اسمها حلاحل ومن شعر جـدهم الأغلب بن سالم التميمي متشوقاً إليها :

ما سرت ميلاً ولا جاوزت مرحلة   إلا وذكرك يثني دائماً عنقي

ولا ذكرتك إلا كنت مرتقباً أرعى النجوم كأن الموت معتنقي

وام الامراء الحسينيين[1] ابقاهم الله من سبي الافرنجي كما حكاه التاريخ وانما ذكرت كل هذا وان كان فيه بعض خروج عن الموضوع لنعلم الحكمة الاسلامية في أخذ الرقيق ولنرجع الى ما كنا بصدده : ان عقبة لما فرغ من فتح جميع فزان سأل أهلها هل بقي امامكم شيء ؟ فقالوا له واحات كاوار .

فتح عقبة كاوار :

فسار لهم حتى وصل قاعدتها وبها تنزل العمال وهاته البلاد لا مياه سائحة بها وانما مياهها من الآبار وفيها النخيل الكثير وجناتها ومزارعها كلها تسقى بالنضح مثل فزان ففتح عقبة جميع قصورها حتى اتى على اقصاها وفيه ملكها فأخذه وفرض عليه ثلاثمائة وستين عبداً ثم سألهم هل وراءكم من أحد ؟ فلم يعلموا وراءهم أحداً فكر راجعاً الى أن بلغ زويلة .

رجوع عقبة الى زويلة وصف فزان .

ثم دخل سرت وتوجه الى فتح افريقية ولنرجع الى وصف فزان . فنقول يحتوي هذا الصقع على ثلاثمائة قرية بناؤها من الطوب اذا أصابها الغيث الوابل تنهدم سريعاً ، وماؤهم من الآبار والعيون وبكل قرية من النخيل ما لم يعلم علمه الا الله تعالى ، اذ لم يحص عدده والصحراء والتوارك يمتارون منه ، وغالب اراضيه ليست بصالحة للفلاحة ولا وجود للبقر بأراضيهم الا بقر الوحش البري ، واغلبها ان لم نقل كلها رمال وجبال من الرمال رحالة وجبال من الحجر لونها أكحل لا نبات فيها . وتبلغ الحرارة هناك الى درجة عالية ويقع عندهم الجمود في المياه فكثرته من اكتوبر الى فبراير ان هبت عليهم الرياح الغربية . والرقيق في بلدانهم كثير يباع ويشترى من غير اشهار . ويمكن ان الثلاثة أيام أو

---

(١) يقصد أسرة البايات التي كانت تحكم تونس في عهدها السابق .

اربعة تمشي في اراضي لونها كالقار أو أشد سواداً وجبالها واراضيهـا صلدة لا نبات بها وایاماً تمشي في رمال متصلة بعضها ببعض وبها جبال شامخة من الرمل رحالة، وایاماً في بساط متسع وتنايف ممتد الأطراف ومجاهل تمكث فيها القوافل العديدة واهلها لا خدمة لهم الا حركة النخيل ، وفيهم التجار الذين يذهبون الى السودان وبلدانه؛ وكثير منهم يقصد بنغازي وطرابلس وتونس لأجل الخدمة والتمعش لهم محبة عظيمة في خوض تونس على غيرها لكثرة ارباحهم بهـا ومن مكث مـدة في تونس ثم رجع لى بلده يحسب غنياً في عرفهم ويتفاخرون بالذهاب الى تونس .

طباع أهل فزان :

وطباع أهلها التأني والرزانة ، غالبهم على طريقة الشيخ السنوسي الا القليل، ولا توجد بلدة من بلدانهم المشهورة لم تكن به زاوية من زوايا السنوسيين .

بلدان فزان المشهورة .

اما بلدانهم الكبيرة المشهورة فأولها مرزق

مـــــرزق

وصف مرزق وما كانت عليه قبل الترك :

هي قاعـدة فزان الكبيرة التي بها المتصرف والعسكر ، تبعد على طرابلس بسير ثلاثين يوماً تقريباً للقوافل ولتعلم ان عمل فزان كان مستبداً ليس داخل تحت طرابلس وله حاكم خصوصي من قبيلة اولاد محمد ومحل ملكه مدينة مرزق ولا زالت طائفـة منهم ببلد مرزق الى يومنا هذا ومكث فزان بايديهم مـدة خمسمائة عام الى أن اخذه منهم يوسف باشا سنة ١٢٤٤ هـ (١٨٢٨ م) في مدة ولايته على طرابلس .

ومن بلدانهم المشهورة مرزق[١] كما تقدم ثم القاطرون ثم سوكنه ثم هون ثم ودان ثم الزيغن ثم سمنو ثم القرضة ثم سبهة ثم ديلم ثم الشاطي الى غير ذلك .

وصف آخر لمرزق :

تنبيهات مفيدة في وصف مرزق : بلد كثير العيون والنخيل وماؤه في غاية العذوبة وتكثر به أمراض السخانة بالصيف ، دخلت هاته البلاد في مدة سياحتي الصحراوية سنة ١٨٩٥ — ١٣١٣ هـ في يوم ٢٧ من شهر ربيع الانور قبل الزوال فتوجهت في الحين إلى زاوية الشيخ احمد مختار شيخ مشايخ السنوسيين بعمل فزان

---

(١) مرزق كانت عاصمة اقليم فزان ومن عهد الطليان وعهد الاستقـلال اصبحت مدينة « سبها » عاصمة اقليم فزان .

وقد بلغته قدومي قبل أن نأتيه بأيام مع حسن الوصاية عني ورد البال مني ، وقد وجدته يقرى في كفاية الطلاب للشيخ الصالح المشهور عبدالله بن[1] أبي زيد القيرواني بالزاوية ، فلما تم درسه اقبل علي بشراشر قواده هو وجميع كبار الطريقة السنوسية وبت تلك الليلة بالزاوية مكرماً مبرراً ومن غد أكتروا لي محلاً لنزولي وهي دار ذات طابقين على ملك محمد باشا لي أحد التجار الطرابلسيين فاسترحت بها .

كيفية قراءة فرمان المتصرف الجديد بمرزق :

وصادف بعد قدومي بيومين ، قدوم المتصرف الجديد وهو في رتبة باشا. وكان قدومه البلد صباحاً فنزل بقصر الحكومة وفي اليوم نفسه بعد أن صلى صلاة العصر بالجامع الكبير بإمامة الشيخ احمد مختار المذكور إمام الجامع المذكور. خرج الباشا في جمع عظيم من أمراء العساكر ومدير البلد وقاضيه والجم الغفير من الأعيان والأهالي وسائر الناس ووقف الجميع عند باب القشلة الكبرى والعساكر مصطفة والموسيقة التركية تصدح بتلك النغمات المطربة وكان موكب عليه من المهابة وحسن الرونق أمر عظيم. ثم بعد أن تلي الفرمان باللغة التركية تقدم قاضي البلد وتلا خطبة باللغة العربية يدعو فيها بالخير لمولانا السطان عز نصره وللمتصرف الجديد وسائر الأمة .

توجه الباشا لزيارة الزاوية السنوسية بعد سرد الفرمان :

ومن هناك توجه الباشا للزاوية السنوسية وكنت أنا بالزاوية فكلفني الشيخ احمد مختار وبعض الأعيان من الإخوان بنظم أبيات شعرية تهنئة للباشا ، والحق

---

(١) عبدالله بن زيد القيرواني الفقيه المالكي صاحب كتاب « الرسالة » في الفقه من علماء القرن الرابع الهجري توفي حوالي ٣٩٠ هـ وهو من عمالقة المذهب المالكي ومن اساتذة القيروان بها ولد ودرّس وتوفي . له مؤلفات عديدة في الدراسات التشريعية وقد اشتهرت رسالته في الفقه وشرحت عدة شروح كما اختصر المدونة ـ يراجع عنة معالم الايمان ج ٣ ص ١٣٥ شذرات الذهب ج ٣ ص ١٣١ ـ كشف الظنون ص ٨٤١ اعلام زركلي ج ٤ ص ٢٣١ .

ان هذا الباشا ممن يستحق الهناء ، رجل خير من أهل البر والتقوى والعبادة يناهز الستين من عمره وعليه مهابة ووقار ولطف اسمه « احمد أنور » كان حاكم بغداد قبل هاته النوبة فنظمت تلك التهنئة في الحين بما جادت به القريحة وسردها الشيخ احمد مختار على حضرة الباشا ودعوا له بالخير ؛ ومن الأبيات :

قصيدة المؤلف في هناء المتصرف

ادار من الهنا كأس السرور	قدومك للبلاد بكل خير
قدوم في ربيع كالربيع	ونور لاح في نور الشهور
تبسمت البلاد بكم وأمست	تجر ذيول أبواب الحبور
ولاح البشر عن طرر الأهال	ونار القطر بالمولى الوزير
قدوم بارك الرحمن فيه	يليه السعد بالخير الغزير
وندعو الله أن يبقيك كهفاً	ويحفظ ذاتكم من كل ضير
ويبقى لنا أمير المؤمنين	وسيدنا على أمد الدهور
ففيض الخير من عبد الحميد	وعمدتنا على أمد الدهور

فوقعت عند الباشا موقع الاستحسان .

التعريف بقاضي مرزق

ثم إن القاضي كتب هذه القصيدة بخط يده وكان من أبرع الناس في الكتابة بخطه الثلثي الجميل ، وارسلت القصيدة مع جواب من الأهالي يتضمن الثناء على الباشا إلى الحضرة السلطانية والقاضي هو رجل من أبناء أكابر دار الخلافة شاب لطيف جميل المنظر يلبس الثياب الرفيعة ويتزيا تارة بعمامة خضراء لا يتجاوز الخمسة والثلاثين من عمره ، متحنك ومتفنن وله محبة عظيمة في اللغة العربية والعلوم العصرية يميل كثيراً إلى الشعر العربي وكم من ليالي أحييناها في السمر والتحميض [1] بمحله، وكان يصنع لي الطعام الفاخر اللذيذ وتظهر عليه آثار

(١) التحميض — الافاكيه والنوادر والطرائف والمداعبات الأدبية .

الرفاهية من لباسه ورياشه ، ويبدي الضجر من المكث بمرزق. طلب مني أن أقريه شيئاً من هذا العلم اعني علم لاصول وأعرفه بحقيقته فأقرأته شيئـــاً من الحطاب على الورقات جزاه الله عني خـيراً وكان منور الذات والفكر بحيث لا تشبع العيون عن رؤياه .

ما كانت عليه مرزق قبل سنة ١٣٠٥ ﻫ (١٨٨٧ م) :

كانت محط رجال القوافل السودانية والصحراوية ، وهي منتصف الطريق لمن قـدم من طرابلس قاصداً مدينة برنو يعني كوكة يقصدونهـا من واداي ومصر وجالو وتوات ؛ وكان يأتيها الركب التواتي قاصداً حج بيت الله الحرام يتألف من آلاف من البشر فيقيم هناك مقدار خمسة أيام وعشرين يوماً يبيع ويشتري ثم يسافر . ونمت بها التجارة الى أن بلغت حداً عظيماً من الرفاهية . لكن لما وقع المنع من أحد متصرفي فزان بعدم تجارة الرقيق وأعتق جميع من في البلد منهم ومنع دخول العبيد الأرقاء اليهـ تقهقرت تجارتهـا ولم تأتها القوافل وصار محل التجارة بلد غات إلى هذا اليوم

كم من العسكر النظاميين في مدينة مرزق :

وبمرزق وجدت من العسكر النظاميين ما يقرب من المائتين .

دخلها المالي :

ودخلها السنوي ما يقرب من ثلثماة ألف قرش هي وأعمالهـا تستخلص على النخيل وبعض الرقاب وبعض الأملاك بغير قوانين منظمة ، وجميع بناءات البلد مبنية بالطين والتراب والجير وبها قشلة للعسكر وبها قصر كبير يسكنه متصرف البلد في الغالب وهو محل إدارة الحكومة به أربعة مدافع من الطراز القديم وبه مجلس بلدي رئيسه المتصرف به عشرة أعضاء من أهـالي البلد يجتمع يوم الخميس ويوم الاثنين من كل اسبوع ينظر في مصالح البلد بلا راتب شهري . وكان بالبـلد قنصل انكليزي ثم ابطلته الدولة الانكليزية ولم أدر ما هو السبب. وليس هناك

علماء إلا أن غالب أهل البلد يحفظون القرآن العظيم كما هو عادة بلدان الصحراء.

تجار مرزق وأعيانها :

أما الاعيان والتجار فغالبهم من غير هـذا البلد ونسمي لك من تعرفت من سادتهم : عبد الرحمن تنيتيو. السيد الشريف السنوسي . الحاج الكيلاني الهوني . عبد الحميد اليزباشي . سي الحاج محمد بن علوه . وأخوه سي الحـاج عبدالله . بالحسن الامين. موسى بن عثمان الشيخ احمد مختار شيخ السنوسيين والامام الاكبر بالجامع الكبير .

الغلال والثمار والفواكه بمرزق :

لم يوجد بهذا البلد شيء من الغلال والثمار والفواكه إلا بعض البقول كاللفت والقثاء والسلق والمعدنوس والطماطم والفلفل .

الزيت والسمن واللحوم :

اما الزيت والسمن فيجلب لها من الخارج ولا تسأل عن رخص التمر بها فهو قوت البلد المعتاد. اما الفقر فمفقود .

من يتعاطى بيع المعاش بمرزق :

اما من يتعاطى بيع المعاش من الخبز والتمر والخضر وغير ذلك فهم النساء بسوقه المعتاد أمام البلد الكبير داخل المدينة .

وصف نساء مرزق :

وفيهن خصال حميدة منها حبهم للغرباء ولهم رأفة وحنانة عليهم وجـبر خاطر .

وصف نساء مرزق وصداقهم الشرعي :

وهم في غاية الحسن واللطافة ولا يوجد فيهن الجمال ولهم ثغور كالجوهر النضير ينطبق عليها قول ابن سهل [1] الأندبيلي :

واذا تبسم فإن لؤلؤ ثغره   سلب العقول إذا بـــدا متبسما

أو قول الحريري [2] :

نفسي الفداء لثغر راق مبسمه   وزانه شنب ناهيك من شنب [3]
يفتر عن لؤلؤ رطب وعن برد   وعن أقاح وعن طلع وعن حبب

ولهم عيون مرضى صحاح كأنه عناها من قال :

عيون عن السحر المبين تبين   تسالمها العشاق وهي تخون
مراض صحاح ناعسات يواقظ   لها عند تحريك الجفون سكون

ومن اراد ان يتزوج بهـــاته المدينة فإن صداق المرأة الحسنة الشرعي لا يتجاوز المـأتين فرنك في الغالب وهن متغلبين على رجالهن . وبهـــاته البلدة البيض والدجاج بكثرة .

البيض والدجاج بمرزق :

وبها البيض والدجاج بكثرة مع رخص الثمن .

التوارك بمرزق :

ومرزق ملآنة بالتوارك وهم الذين يبيعون الحطب والفحم .

(١) ابن سهل الاشبيلي ـ شاعر اندلسي .
(٢) الحريري صاحب «المقامات» هو محمد القاسم الحريري ميلاده بالبصرة ٤٤٦ هـ - ١٠٥٤م وتوفي عام ١١١٦ م .
(٣) شنب هو .

سوق البلد :

وبالبلد سوق عام به حوانيت التجار وكل شيء من انواع السلع يبـــاع فيه بالمزايدة ويفـــترق السوق باقي ساعتان الى الزوال فلا ترى بعد أحدا به الا حوانيت التجار تمكث مفتوحة الى المغرب وبعده .

ثروة التجار بمرزق :

ولا توجد عندهم تجار اغنياء فان اول غني عندهم من التجار يسمى المهـدي العامري ، مات ابوه فخلف له مقـــدار الستين الف قرش وهي اثنا عشر الف فرنك وهذا المقدار له بال عظيم بهذا البلد لان القرش يفعل مـــا يفعله الفرنك بهذا البلد .

اسعار الأشياء بها :

وأسعار الاشياء رخيصة جداً ؛ الحمل من الحطب الغليظ يباع بقرش وحمل الفحم مثله بثلاث قروش .

اسعار المحترفين :

اجرة البناء في اليوم قرش ونصف ومثله خدام البساتين وبالجملة إن كل شيء ينسب إلى البلد رخيص إلا القمح والزيت والشعير ويجلبونه التجار من الخارج، أما الزيت فيمسحون به رؤوسهم فهو عندهم كالعطر وأدمهم شحم البعير إلا المثري فيستعمل الزيت احياناً أو السمن ولا يوجد بالبلاد طبيب إلا طبيب العساكـر ويوجد ساعاتي تركي الأصل منفي هنـاك وأحواز البلد عن قريب بهـــا بعض الأراضي الصالحة تعظم بها المقاثي خصوصاً الدلاع . وماؤها على غاية من الحلاوة يجلبونها من الآبار في قلال كبار على شكل صنوبري على ظهور نسائهم أو عبيدهم للشرب ، وفي جميع وطن فزان وغات يخرجون الماء من الآبار بواسطة احمرة في الغالب ظريفة الجرم وغالب كسبهم النخيل ولا ينزل المطر في هذه البلاد إلا

قليلاً في المدة الطويلة .

لا ينزل المطر بمرزق :

وعن عدم نزول المطر في هاته البلاد إلا قليلاً في المدة الطويلة ، حكى لي السيد عبدالله بن علوة ان المطر لا ينزل عن بلادهم الا بعد أحقاب ؛ قال : والآن أربعين سنة لم تجود السماء بقطرة وذلك من فضل الله عليهم لان المطر يضر بالتمر الذي هو قوت البلاد ويهدم دورها .



بنغازي والجبل الاخضر

الكلام عن بنغازي والجبل الاخضر :

الكلام عن بنغازي والجبل الاخضر :هاته المدينة كانت في القديم تحت حكم باشة طرابلس والآن يأتيها باشا خصوصي مثل طرابلس من الاستانة نظره تحت وزير الخارجية يدير شؤونها وهي في الحقيقة من أعمال طرابلس اعتباراً ...

قدوم المؤلف لها :

كان قدومي لبنغازي من مـــالطة عن طريق طرابلس وفي اليوم السادس والعشرين من ذي الحجة الحرام على مـــتن البابور المسمى بالعصملي لشركة من اليونان فبلغناها قبل الزوال بساعتين سنة ١٣١٢ هـ (١٨٩٤ م) ولما نزلنـا من البابور اذ برجلين واقفين على الرصيف فلما وضعت رجلي بالبر طلبا مني تذكرة السفر من بلادي فناولتهما اياها ولم يرداها إلي الا بعد ثلاثة أيام حتى ضمنها شيخ البلد بدفتره الرسمي .

عوائد أهل البلد لما تحل به سفن البوسطة :

ومن عوائد أهل البلد إذا قدم عليها بابور ، تخرج غالب تجار البلد ورئيس البلدية ومدير الجمرك ولفيف الخلق فيصطفون على جوانب رصيف المرسى الذي ينزل فيه المسافرون حتى أن المسافر لما يصل الى البلد يكون معروفـاً بالذات عند جميع أهاليه والحكومة .

قدوم بابورين في كل جمعة :

وجري العمل أن بعد خمسة عشر يوماً يأتيهم بابور اسمه « سعدالله » لإنسان من تجار الاسكندرية كما يأتيهم بابور آخر وهو الذي حملني اسمه « المصملي » بعد خمسة عشر يوماً اليها والحاصل أن في تلك المدة لم تكن مواصلة السفن بثغر بني غازي كثيرة .

موقع المرسى الجغرافي :

وموقع المرسى في الناحية الغربية من البلد ، والبحر يحف بالبلد من الجهة الغربية والجوفية بحيث ان الشمس اذا غربت تسقط بالبحر ولها منظر عجيب عند غروبها فيه لأنني لم اشاهده قبل ذلك وإن شاهدته بعد أثناء سفري لأوربا.

فائدة مهب الرياح :

اعلم أن ريح الصبا بهاته المدينة تهب من الناحية الجوفية والغربية والدبور والنكباء تهب عليه من القبلة عكس ما بديارنا التونسية تكون سموماً حارة عندهم وبذلك يظهر للعبد الفقير ما في كلام بعضهم من السهو في تقاسيم الرياح وأسمائها عن عدم تقويمها بالأماكن والبقاع حيث قالوا :

ما هب من شرق فذلك الصبا ثم الدبور عن يمين ذهبا
ثم الشمال بعد ذا وقد جرت نكباء بين كل ريحين سرت

هذا ما استحضرته من الابيات في أسماء الرياح وقد بقا شيء منها فيما بقي من اسماء الرياح البرية وإن للبحر أسماء غيرها خاصة بالبحر يعلمها الملاحون وتصريفهم لذلك والله أعلم إنما هو بحسب المكان الذي كانوا فيه والبحر شرقيه فاشتهر هذا التعريف من غير تأمل ؛ والله أعلم .

اجناس التجار ببنغازي :

يوجد بها اثنا عشر رجلاً من الجرابة وبعض من الصفاقسيين وبعض من

الطرابلسيين دون العشرة وجانب عظيم من اليهود ؛ أما أهالي البلد فلا يتعاطون هاته الصناعة .

أهل بنغازي :

وليست لهم إلا صناعة الفلاحة . وأهل هاته المدينة لهم همم عالية وسيرة مرضية متولعون بحب الاطلاع على أحوال غيرهم من أمم المشرق والمغرب فرأيت لهم عزماً عظيماً وتولعاً بحب قراءة الصحف ، والحق أن الطريقة السنوسية هي التي هذبتهم .

أنواع السلع الداخلة والخارجة :

لا تدخل السلع الأوربية في ذلك الوقت إلى بنغازي إلا بعض من الفخار كالقدور والأواني يأتون بها بعض الطليانيين، اما السلع الداخلة فهي الجرود وهي عبارة عن الأحرمة الجريدية والجربية واللفة بتمامها والقماش بأنواعه ، السكر بأنواعه ، ، العطرية ، الابزار ، الملف بأنواعه ، محارم حرير وخيط قطني ، بشاكر صفاقس ، ماعون حديد ونحاس سكاكين وأمواس ، مناجل وأصحنة ، صناديق لوح مدهونة ، ورباع من صنعة تونس ، الكاغد بأصنافه ، أنواع الروائح الطيبة والأعطار كماء الياسمين والزهر وأعطارها ، والمسك والزبد ، وانواع الشاشية التونسية ولا يلبسون غيرها وغير ذلك . وهاته البلدة يباع بها كل ما يأتيها من السلع بثمن عال خصوصاً السلع الردية فإن بها يربح الارباح الباهظة لأنهم لا يفرقون بين الغث والسمين فكثيراً ما يشترون من عند من لا يخاف الله عطر الفتنة ويظنونه عطر ورد من العال بثمن عطر الورد الحقيقي ، وهكذا في كل الاشياء بالتجار تتوافر أرباحه اذا كان عنده السلع الردية ، وربما أتى بعض التجار بالسلع الغالية فلا تخرج لوفرة سعرها لأن البلد بلد بوادي وأعراب وغالبهم أهل الجبل الأخضر والقصاب والبقال والخباز والزيات غالبهم من أهل طرابلس ومسراطة ، أما أهل البلد فليست لهم حرفة إلا صناعة الفلاحة .

صناعة الفلاحة ببنغازي .

وهم مختصون بها ولا يتقنونها . ولو أنهم معتنون بإتقانها لكانوا أثرى بلاد في أفريقية لخصوبــة أراضيهم بحيث أن العام الذي لم تنتج لهم فيه الفلاحة تتعسر احوالهم فتمدهم الدولة العلية بما يه ودونه تلك السنة القاحطة والغــالب عندهم الخصب الذي لم يوجد نظيره في كثير من بقاع أرض الله الواسعة ، فقفيز القمح بالأرض ينتج في العام المتوسط من الأربعين إلى الخمسين قفيزاً وفي العــام الصابة يبلغ المائة ومثل ذلك الشعير .

اتيان السفن لكيل القمح والشعير .

وفي زمن الصيف تأتي لها السفن من أوربا إذا كان العام خصباً فتشتري منها القمح والشعير يأخذ منه الانكليز الكثير لصنع البيرة وهو أحسن من غيره .
حكى لي يوماً السيد محمد المهدوي شيخ البلدية انه أخذ من بنغازي إلى أوربا في سنة ١٣١٢ ﻫ (١٨٩٤ م) ستين الف قفيز ونيف ما بين قمح وشعير .

أنواع اللحوم ببنغازي :

اما انواع الحيوانات بهاته البلدة وكثرة وجود اصنافها فحدث عن البحر ولا حرج ، كفاك ان الكثير من لحوم مصر والشام تأتيهم من بلد بنغازي من بقــر وضأن ومعز طعمه في غاية اللذة . واللحوم لا تتجاوز الوقة نصف فرنك عبارة عن رطلين ونصف والدجاج والبيض بهــا رخيص جداً والحمــام كذلك الأربعة بنصف فرنك .

رخص المعيشة :

والخضر والبقول والغلال فلا قيمة لها بهاته البلد وجميع ما فيها من الطعــام

رخيص ،والسمن والزيت والعسل كذلك . والحاصل انني لم أر مكاناً فيما وطئته رجلي ارخص اسعاراً من هذا البلد .

هواء البلد :

أما هواء البلد ففي غاية الاعتدال والنعومة فلا تحلها الأمراض العادية .

أراضي بنغازي :

وجميع أراضي احواز البلد الخارجة عنهـا مسافة ستة كيلومتر يملكونها الاهالي وفيها بساتينهم ثم بعدهـا تجد اراضي شاسعة ممتدة الاطراف ليس على ملك أحد إلا الله ، خصبة ناعمة يحرث بها من شاء من أهل البلد أو عرب الجبل الأخضر بلا أجر ولا يؤدون شيئاً للدولة، وكلما بعدت عن البلد اتسعت الأرض مع الخصب والجودة بحيث تراها كأنها محترثة والحال انها من عهد آدم لم تحرث فهزول الأحمرة يثيرها فحز ما شئت واحرث ما شئت وما عليك من الأداء إلا ما اوجبه الله على عباده من الزكاة الشرعية .

قيمة الارض بوطن بنغازي :

ومن أراد أن يملك أرضاً بوطن بنغازي بعيدة عن البلد بمقدار الخمسين أو الستين كيلو مـتر فإن المائة ماشية التي هي الف اكتار لا يتجاوز الخمسة آلاف فرنك وكل ما بعدت عن البلد انخفضت اسعار الأرض وانعدم بيعها وشراؤها من مسافة السبعين كيلومتر تقريباً .

أرض برقة وغلالها :

ارض برقة وغلالها وبعض ارض برقة من جهة الجبل الأخضر على مسافة عشرة أميال من بنغازي بها غابات كثيرة من الخروب والمشمش والليمون

والتفاح والاجاص والرمان وغير ذلك .

عرب برقة :

وأهلها عرب بادية ينسبون انفسهم الى عرب المحاميد بوطن طرابلس وكانوا على عهد الدولة الحفصية يرتحلون في بعض السنين الجدبة إلى باجة القمح بأرض تونس يتزودون منها القمح والشعير ثم يرتجعون إلى بلدهم .



الجبل الأخضر

الكلام على الجبل الاخضر وما يخرج منه :

ومن أعمال بنغازي الجبل الأخضر وبه المياه العذبة وجميع الفواكه المتقدمة الذكر ويخرج من هذا الجبل العود المعروف عندنا بالسرداوي لسقوف البيوت ويخرج منه لحا بعض الشجر يعني قشوره لصبغ بعض الاقمشة يرفعونه لكل من مصر والشام والاسكندرية ، ويوجد باطراف الجبل الملح الجيد فقد رأيت جبلاً من الملح بمرسى بنغازي ترفعها السفن العظيمة من مرساها .

انواع سكة البلد :

اعلم ان سكة هاته البلد كسكة طرابلس واعمالها ؛ وانواعها : ليرة عثمانية ، قطعة من الذهب صرفها مائة وتسعة وعشرون قرشاً ، المجيدي عبارة عن قطعة من الفضة صرفها اربعة وعشرين قرشاً ، البوشليك قطعة من الفضة عبارة عن فرنك تقريباً . والبارة عبارة عن قطعة صغيرة الحجم من الفضة صرفها ثمانية زلطات . الزلطة قطعة نحاس مقدار الصولدي التونسي في الجرم صرفه سانتيم تقريباً ولكن له اعتبار في البيع والشراء .

شكل بنغازي :

شكل البلدة وجميع البلاد على الشكل العربي المعروف عندنا بتونس

الاّ حومة الافرنج التي بهـــا محل قناصل الدول فعلى الشكل الأوربي وبعض بناءات للوجهاء والحكومة كذلك .

مساجدها وزواياها وأسوافها :

وفيهـا مساجد كثيرة نخص بالذكر منها الجامع الكبير الذي بالسوق وبه منـارة عظيمة . ومسجد الحنفية وهو مسجد عظيم في غاية الاتقان والنظافة والاتساع . ومسجد زاوية شيخ الطريقة المدنية وغير ذلك ، وبها زاوية عظيمة للشيخ السنوسي . وزاوية لشيخ الطريقة المدنيـة ، وبها اسواق منتظمة تشبه اسواق تونس وأعظمها سوق اللامة .

لباس أهلها :

شاشية من عمل تونس تحتها عراقية بيضا يظهر من تحتها شيء قليــــل وسراويل الى الكعبين كسراويل عساكرنا التونسية وسورية[1] فوق السراويل الى نصف الرجل وفرملة[2] اسكندرانية او تونسية يلتف فوق ذلك بحرام تونسي. ولم تجد من يلبس برنسا من أهل البلاد ؛ وانعلتهم شبه البلغة التونسية وبعضهم يلبس في زمن الشتاء املة تونسية وكذلك لباس اهل مسراطة ودرنة والخمس والساحل وطرابلس .

سفر ركب من بنغازي الى واداي في كل سنة :

وفي هاته السنين الاخيرة يخرج من بنغازي ركب عظيم يتألف من خمسمائة جمل فما فوق في مبادىء شهر كتوبر من كل سنة يتألف من بعض تجار أهل طرابلس ومسراطة ويبلغ الى واداي في ظرف ثمانين يوماً . فيحمل =

---

(١) سورية باصطلاح الشمال الأفريقي – جلباب او قميص .
(٢) الفرملة – شيء يلبس مثل الصديري .

ما يحمله الركب من بنغازي :

=من بنغازي جميع اصناف السلع خصوصاً انواع القماش واللفـــة والسكر والشاي ويقيم في الطريق اياماً قليلة منها ايام ٣ ثلاثة في الكفرة القاطن بهاالشيخ سيد محمد المهدي يزورون ذاته الشريفة ويتزودون منه الدعاء ذهاباً وإياباً .

ما يأتي به الركب من سلع واداي :

ثم يأتي هذا الركب بسلع من واداي منها العبيد والريش وناب الفيل والجلد ولا يمكث الركب ازيد من سنة إلا لحادث .

من كان السبب في فتح هذا الطريق بين بنغازي وواداي :

والذي كان سبباً في هذا الركب وفتح هـــذا الطريق هو سيد محمد المهدي شيخ الطريقـــة السنوسية وأمّنه من اللصوص بحيث انك تسير من بنغازي إلى واداي لن ترى بالطريق ما ينكد عيشك ولم تسمع بأحد من التجـار اختلس له عقالبعير ، خصوصاًوأن الطريق يأتي علىواحات الكفرة التيبها الشيخ السنوسي.
وبنغازي منعدم من جهة دخله المالي .

مدينة شحات

مدينة قورنة وعين شحات من آثار الرومان :

وفي شرقي البلاد على ثلاثة مراحل منه تجد مدينة هائلة ذات بناءات وأسوار وقصور شاهقة وكذلك مدينة عين شحات وتسمى شحات على مسافة يومين ونصف من الجهة الشرقية، بها آثار عجيبة من بناءات الرومان ايضاً وموقعها على شاطىء البحر أيضاً حكى لي السيد الحاج احمد المهدوي شيخ البلدية ببنغازي حكاية نصها انه في سنة ١٢٨٥ ﻫ (٨٦٨ م) كانت الدولة الانكليزية طلبت من مولانا السلطان عبد العزيز نعمه الله أن ترسل سفينتين الى عمل بنغازي لأخذ شيء من النشاف [١] لأن هذا الشط يوجد به النشاف بكثرة ولأنه صار غنيمة باردة لليونان فأذن بذلك فلما وصل السفينتان كان دأب الانكليز الحفر تلك الأطلال البالية واستخراج الآثار العتيقة من مدينة شحات كأوان من الفضة والنحاس والمواعين والخواتم المنقوش عليها صوراً عجيبة والتماثيل المرمرية والرخامية وغير ذلك .

تمثال شحات :

حتى أنهم عثروا على تمثال شحات الذي تسمت باسمه وهو من الذهب الخالص فأخذوا الجميع وكان ما حملوه وقر سفينتين فأخذوا الجميع وأقلعت السفينة قاصدة مدينة لندن ثم فطن بعد ذلك السلطان بالمكيدة فجعل حينئذ حراساً على تلك الاطلال .

---

(١) النشاف هو الاسفنج .

إذا نفذ القضاء بجسم عبد   فما يجدي المحنك والطبيب

وهاته الحراسة لا زالت موجودة ليومنا . انتهى كلام شيخ البلدية .

التقاط البوادي للآثار القديمة :

والبوادي والعربان تعلمت كيف تلتقط تلك الآثار من الماعون والسكك والخواتيم رغماً عن الحراسة المذكورة وتبيع ذلك خفية للاجانب ببنغـــازي؛ ويعاقب بايعها إن ظفرت به الحكومة .

بعض مدن رومانية خالية :

وتوجد اطلال كثيرة من بناءات الرومان خاوية على عروشها يسمونها المدن الخالية في اصطلاحهم وموقعها في الغالب في النواحي الشرقية مثــل الحنية ، مسا ، توكره ، القبة ، توجد بها الاثار القديمة. وآخر بناء وجدوه من بناءات الرومان آثار قديمة اعتلى غالبها الرمل في مكان يقال له الحطّيه بالقرب من عين عبيدة القريبة من بلد الزيغن من عمل فزان ؛ وبعد ذلك لا يقع بصرك على شيء من الاطلال الرومانية فيا وطئته قدمي من الصحراء واقاصي فزان والقاطرون وغير ذلك؛ والظاهر انه الى هناك انتهى[1] بهم العمران وهو معقول لان الرومان انما تعمر على وجود الماء .

في أي مكان تكثر وتقل وتنعدم الآثار الرومانية :

وبالجملة فإن الصحراء لا يوجد [2] فيها شيء من تلك الآثار وفي غير الصحراء لا تكاد تمشي ميلاً واحداً من غير أن تجد طللاً بالياً ويكثر هــذا من الحدود

(١) ولم يشر الرحالة المؤلف الى آثار الليبيين القدماء وحضارتهم أقدم من الرومان والفراعين. ويلاحظ انه خلط بين آثار الاغريق والرومان ولم يستطع التمييز بينها على أن مدينـــة شحات « قورينة » من آثار الاغريق لا الرومان ! .

والآثار الليبية بها حضارات الفينيقيين ـ والاغريق ـ والرومان ـ والعرب ـ الذين حمـــلوا شعلة الاسلام ! .

(٢) ولكن أثبتت الاكتشافات المتوالية على وجود آثار كثيرة في جوف الصحارى ولكن المؤلف كان يتحدث عن مشاهداته وعصره .

الطرابلسية التونسية الى أن تصل لاسكندرية تغور وتنجد وتكثر بالقرب من البحر .

قرية المرج في غاية من الخصب :

وهناك مكان يقال له المرج على مسافة يومين من مدينة بنغازي به أسواق وبناءات وهو في غاية الخصب الذي لا مزيد عليه وسكانه بوادي .

قبر سيدنا رويفع ابن ثابت السامي رضي الله عنه :

وبه قبر[1] سيدنا رويفع بن ثابت الصحابي رضي الله عنه . وبالجملة فإن الجهة الشرقية من بنغازي كلها خصبة ذات أشجار عظيمة وأعين من الماء العذب جارية.

عود كلام مفيد على الجبل الاخضر وثماره الخصبة :

وهي المسماة بالجبل الأخضر وهي في غاية العمارة ممتـدة تلك العمارة إلى أطراف الاسكندرية مسافة عشرين يوماً وفيه الغلال الطيبة ما شاء الله في غابات وتلول عالية كالزيتون والرمان والانجاص والسرو بكثرة والصنوبر . اما فاسوخ الصبغ فهذا الجبل معدنه ترى على حافات مرسى بنغازي جبالاً منه شامخة تأخذ منه اوربا وجميع الأقاليم .

سكان الجبل الاخضر :

وسكان هذا الجبل اعراب بادية لسانهم طلق فصيح بالعربية وطباعهم حسنة وأخلاقهم طيبة لينة معتقدون في شيخهم سيدي محمد المهدي السنوسي اعتقاداً لا تزحزحه الجبال ويخافون الله ورسوله اصحاب عبادة ، والامن وعدم الخوف قد ضرب أطنابه بأرضهم .

---

(١) من المعروف أن قبر سيدنا رويفع في البيضاء لا في المرج وبينهما مئة كيلو متر.

الأمن بالجبل الأخضر :

فالغريب والسواح عندهم لا يهضم له جانب ولو كان معـــه حمول الذهب والفضة . وهاته الاراضي الخصبة هي عبارة عن مكان متسع خصب للغاية كما علمت بمقـــدار عمالة تونس أو أزيد تقريبـاً وسكانها لا يتجاوز الستمائة الف نسمة تقريباً .

الدولة التركية لم تلتفت لعمارة الارض :

ومن سوء البخت أن الأمة العثمانية نصرها الله وايد ملكها لم تلتفت الى عمارة هاته الأراضي التي هي من اخصب ارض الله ، ولم أر ولو معمرا واحـداً يملك شيئاً من الأرض في ذلك التاريخ ، والى الله عاقبة الامور كلها .

الجهة القبلية من وطن بنغازي :

والجهة القبلية المائـــلة الى الغرب من وطن بنغازي دون غيرهــــا في كثرة الخصب .

عود كلام على الفلاحة ببنغازي مفيد :

عود كلام مفيد على الفلاحة : اعلم ان كيفية حرث الارض عندهم ليس بتفنن كما علمته لا من جهة آلات الحرث ولا من جهة الدواب التي تثير الحرث ولا من جهة العلم بالحراثة وإصلاح الارض من التغبير وغيره ، فكيفية حرثهم هو ان لا يتجاوز الحراث في الارض اربعة سانتيم مع طراوة الارض ولينها وبين الخط والخط مسافة خمسة سانتـين لم تحرث ، واكبر محراث عندهم لا يتجاوز طوله شبراً من حديد ، والزريعة عندهم ليست بمتقنة مع وجود الصـــابة عندهم وليست لهم مصاريف باهظة على الفلاحة كما هي عندنا بتونس ولا يعرفون الخماس بل يسمونه الرباع لأخذه الربع من الصابة . وجميع آلات الفلاحة رخيصة جــداً وكذلك الدواب من البقر والجمال والبغال والبهائم والخيل ، والرباع

يمون نفسه ونوع المونــة جانب من الشعير والقطانية البيضاء . وهـــذا التقرير اخذته من العارف بذلك السيد عمر بن شتوان احد امناء فلاحة بنغازي .

ما بلغني عن بلاد درنه والتعريف بها :

مدينة درنه لم تخطها قدمي، بلغني عنها عندما كنت ببنغازي انها بلاد طيبة الهواء وأهلها كرام في غاية اللطف وهي باختصار تماثل بنغازي فيما قلناه سابقاً ولم نجد لها معلومات كافية وهي من مراسي مملكة طرابلس المعتبرة ولهـــا باشا خاص مثل بنغازي وانا بعد البحث عن مزيد التعريف بهـــا وإن شاء الله تأتي عودة [1] على الكلام عليها قبل ختم هذا الكتاب .



(١) ولكن المؤلف لم يرجع إلى الكلام عن مدينة درنه كما وعد إمّا لسهو منه أو لأنه لم يجد بين يديه مصادر تسعفه !

مدينة مسراطة

التعريف بمدينة مسراطة :

هذا بلد عظيم من أعمال طرابلس يقال له مسراطة [1] بينه وبين البحر إثني عشر كيلومتر . وهواؤه جيد للغاية وماؤه طيب وأراضيه خصبة ؛ به النخل الكثير فلكل واحد من أهـل البلاد بستان يخصه وهم يخدمون الأرض حتى يصيرونها كالحرير الناعم على نمط أهل صفاقس وضد أهل بنغازي،وفيها من جميع الغلال والفواكه ما لم يعلم علمه الا الله لأن المياه بها كثيرة جداً . وأهلها عالمون بالفلاحة وخدمتها يخرج منها القمح والشعير لأوربا بكثرة في سنـين الخصب وكذلك الزيت لأن زيتونها على غاية من حسن الاتقان وهو كثير عندهم متولعون به ويخرج منها السمن الطيب بأنواعه .

وصف البلد :

وهو بلد كبير بناؤه متفرق عن بعضه بعضاً في الغالب كبساتـين صفاقس وأرضها أجود من أرض صفاقس وأخصب وأكثر مياهاً .

وصف أهلها :

امـا أهلها ففي غاية الحسن والجمـال والرفاهية وحسن المعيشة ورخيصة

---

(١) هكذا يرسم كلمة « مسراطة » وهي تكتب ايضاً مصراته بالصاد والتاء. وقـد تعددت اشكال كتابتها وتركنا هنا ضبط الاسم كما ورد في كتابه .

الاسعار مثل بنغازي وأرخص ، وكلهم تجار اصحاب جد واجتهاد .

اسواق مسراطة وما يباع فيها :

وبها ثلاثة أسواق ، سوق الاحد وهو السوق الكبير تأتي لهم العرب من جميع انحـــاء طرابلس من كل حدب ينسلون على مسافة خمسة أيام أو اكـثر فتتجمع به ألوف من العرب خصوصاً في فصل الربيع كعروش ورفـــلة . والسعادة . وطرهونة . وعرب بن وليد . والجبل . وأهل طرابلس نفسها . وأهل بلد زليطن . والخمس . وا ساحل وغير ذلك ، وتعظم اسواقها . ويباع بهاته الاسواق جميع انواع الحيوانات من البغال والخيل والحمير والجمال والبقر والغنم والمعز. وترى ألوفاً من هاته الاصناف . ويباع بها السمن الجيد الصافي عديم النظير والعسل المصفى والزيت الحـلو الطيب والدجاج والبيض، ويخرج منه الى طرابلس الوف من الصناديق الدجاج ، وبـه انواع الطيور من الحمـــام والوز والجرمـان يعني البط بثمن زهيد ، ويجلب لسوقها من أنواع الصيد البري ما لم يعلم علمه الا الله كلحم الغزال وبقر الوحش والأرانب والحجل والقطا والدرج والحمام البري وغير ذلك . والتجارة رائجة بهذا البلد ويختص بصناعة المرقوم الجيد المختص بهذا البلد مثل اختصاص القيروان بصناعة الزرابي ومثـل السوق المذكور سوق الخميس وسوق الثلثاء . الا أن سوق الاحد يعظم اكثر منهما .

القفل الخارج من مسراطة الى طرابلس كل جمعة :

وبعد صلاة الجمعة من كل اسبوع تخرج قافلة كبيرة في مقـدار مائتي جمل واكثر ذاهبة الى طرابلس فتبلغ ليها صبيحة يوم الثلثاء لكنها تسير ليلاً ونهاراً سيراً مجداً بحيث يمنع النوم إلا وقت الاستراحة القليـلة وهي مقدار الثلاث سوايع في الليل ومثلها بالنهار .

اليهود بمسراطة :

وغالب تجار مسراطة من اليهود[1] وهم كثيرون في غاية الرفاهية يتمتعون بحرية تامة في كسبهم وارتزاقهم ودياناتهم. ولا توجد في البلد قنـاصل للدول الاوربية . وبها كثير من اليهود التونسيين والجزائريين ولم يوجد بها من الجرابة الا نفراً واحداً ولم يوجد بها أحد من الصفاقسيين .

حراسة البلد :

ويوجد بالبلد خمسة وعشرون عسكرياً ومعهم ضـابط من رتبة يوزباشي وحاكم تركي إلا أن عسة البلد في مدة إقامتي فيه غير كافية للأمن .

سريقة من جامع اليهود بمسراطة :

ولما كنت هناك عمدت عـدة من الاشقياء إلى جامع اليهود فدخلته ليـلاً وأخذت منه جميع الفضة التي كانت بها أسفار التوراة . وقنـاديل من الفضة وصندوقـاً به عشرة آلاف قرش كانت موضوعة هنـاك لتوزع على الفقـراء والمساكين منهم ثم مزقت الكتب التي ذكرت .

بطش حكومة الترك بالجناة :

ولما بلغ الأمر الحكومة خرجت العساكر للبحث وأُلقي القبض على أنفـار متهمين بهذا الفعل وبطشت الحكومة بالجاني البطش العظيم بالغرامة والعقـاب الشديد .

التجار الاوروبيون في مسراطة :

ويوجد بمسراطة رجل من رعايا اليونان لكنه شهر على نفسه أنه من رعـايا الانكلير يتجر هذا الرجل في القمح والشعير وله دكان في غاية النظافة يبيع فيه

---

(١) اما الآن فلا يوجد بها أحد من اليهود ولا في دواخل ليبيا .

انواع المملحات والمقرونة والجبن . ويتعاطى رهن الرباع والعقار بفايظ معلوم .
ورأيت الكثير من أعيـــان البلد يجلس بدكانه حتى حاكم البلد نفسه . رسكة
نقوها مثل طرابلس وبنغازي .

بناءات البلد وآثار الروماز بمسراطة :

بناءات البلد بالجير والآجر والحجر بناء محكماً ليس على الشكل الأورباوي
وبها كثير من الآثار الرومانية .

احمد زروق

ضريح سيدي احمد زروق مسراطة .

وبهـذا البلد ضريح الشيخ العـــالم الولي الصالح المشهور سيدي احمد زروق
المغربي العباسي البرنسي صاحب التآليف المباركة والكرامة المشهورة توفي بمسراطة
سنة [1] .. ومقامه يبعد عن البلد من مقدار الستة أميال قريب من البحر في ربا
على غاية الانشراح وقبره في بيت متوسط مصلا المقـام ووجدت الدولة العثمانية
مشتغلة ببناء مدرسة [2] هائلة مجاورة لمقامه أمر بصنعها السلطان عبد الحميد
المخلوع فقضيت مناسك الزيارة ثم رجعت من حيث أتيت .

تركة سيدي احمد زروق :

ولنذكر هنا لمحب الاطـــلاع لطيفة : ذكر العياشي في رحلته في مقدار تركة
الشيخ سيدي احمد زروق قـال بن شيخنا ابي العباس : ورقة فيها تركة الشيخ
سيدي احمد زروق وعدد أولاده ونسائه ومن خلفه من بعده وعدة متخلفة من

(١) بياض بالاصل ولكن من المعروف ان وفاة سيدي احمد زروق كانت عام ٨٩٩ هـ ...
يراجع عنه « الطراز » ، لأحمد بابا التمبكتي .

كتبه وامتعته ولننقلها هنا بحروفها متبركاً بما اشتملت عليه من الفوائد منها استفادةعدد اولاده واين استوطنوا بعده، ومنهالتأسّي به في قلةما خلفهمنالدنيا مع كونه ذا اولاد ونساء في بلد يشق فيها العيش ولا يعوزه ما يخلفه لهم لو شاء لأمرين : صيته وخدمة الدنيا وأهلها له ، مع ذلك لم يخلف منها إلا ما ستراه .

نص وفاة شيخ احمد زروق :

ونص ذلك بعد الافتتاح : بعد أن توفي إلى عفو الله تعالى الشيخ الفقيه العالم العلامةالصالحالعارف المحقق القدوة المتبرك به أبو الفضلاحمد ابن الشيخالمقدس المرحوم ابي العباس احمد بن محمد بن عيسى البرنسي العباسي الشهير بزروق غفر الله له ولوالديه انحصر ورثته في زوجته أمة الجليل ابنة احمد المكرم ابي العباس احمد بن الفقيه العدل ابن زكريا يحيى الغلياني واولاده منها احمد ابي الفضل واحمد ابي الفتح وعائشة وزوجه فاطمة الفاسية وولده منها الفقيه القدوة الشاب ابي العباس احمد الاصغر وابنه الشيخ القدوة المدرس ابي العباس احمد الاكبر لا غيرهم في علمهم . ثم توفي احمد ابو الفتح المذكور وانحصرارثه في أمه أمة الجليل واخويه احمد أبيالفضلوعائشة المذكورينواخيها لأمه احمد بن الشيخ الفقيه احمد (وبعد هذا نصف سطر ممحي لا يعرف ما به تكملة للوفاة) ثم توفيت عائشة المذكورة وانحصرارثها في امهاأمة الجليل المذكورة وشقيقها ابي الفضل وشقيقها لامها بل واخيها لامها احمد بن الشيخ منصور المذكور ثم توفي ابو الفضل وانحصرارثه في والدته امة الجليل واخيه لأمه احمد بن الشيخ منصور المذكور واخويه لابيه احمد الاكبر واحمد الاصغر المذكورين لا غيرهم في علم شهودهم .

مخلف الشيخ زروق :

وكان من مخلف الشيخ نصف فرس شهباء اللون ، كبيرة السن ، شركة بينه وبين الحاج عبد الله بن عزازة التكيراني المسراتي ، بالنصف الثاني ، مع برنوس

ابيض، وجبةصوف من مختم ، مع ثوب بالغزل ، وسبحة كان اخذها المذكور من الشيخ سيدي احمد بن عقبة الحضرمي اليمني ، نفعنا الله تعالى بهما آمين . مع اربعة عشر سفراً وكناشة . فمن الكتب في الفقه مختصر بن عرفه رحمه الله مع حاشية الوانوغي والمشدالي على احمدونه – مع سفر به مختصر الشيخ خليل ، والشامل للشيخ بهرام ، مع شرح بن عسكر في الفقه ، للشيخ صاحب الترجمة – ومن غير الفقه الديباج المذهب في التعريف برجال المذهب لابن فرحون ، ومعه تأليف الشيخ زروق في القواعد التصوفية ، وشيء من علم الطب ، مع سفر به الزركشي ، والسبكي ، في اصول الفقه ، وبلوغ المرام لابن حجر ، والبلالي ، اختصار الاحياء مع سفر به شرح التفتزاني في اصول الدين ، والحكم لابن عطاء الله ، والمدخل الروي في علم الحديث ، وغيره ، مع سفر في الحديث بخط الشيخ زروق نفسه . وتأليف للشيخ سيدي عبد الرحمن الثعالبي ، مع اجازة له ، وشيء للعلامة ابن حجر في اللغة – وسفر به تفسير للقرآن – وكناشة تحوي على وظائفه – وغير ذلك .

استقرار ولد الشيخ بمدينة قسنطينة بالمغرب :

وكان قد استوطن الشيخ احمد الاكبر بعد موت ابيه بلاد المغرب واستقر آخر ذلك بمدينة قسنطينة ، وارسل مراسيل للاتيان بالخلف المذكور ، بخط يده ، وكان جميع الخلف تحت يد الشيخ منصور المذكور وامتنع لذلك لعدم الأمن والأمين . حتى وصل الفقيه ابو العباس احمد الاصغر ثم عام تاريخه لمدينة طرابلس ولم يأت بموجب يقتضي قبض ذلك لأخيه ، فتوقف الشيخ المذكور ، فطلب الشاب احمد الاصغر المذكور من الشيخ ان يعطيه نصيب والدته فاطمة المذكورة ، لكونه وارث لها ونصيبه أيضاً ، ويبقى نصيب احمد تحت يده – ففصل الشيخ عدى نصف الفرس ، فإنه قبض ثمن ذلك وهو ثمانية دنانير مشجرة ذهباً من الشيخ منصور – قبضاً تاما ، وأبرأه وذلك بتاريخ أوائل ذي الحجة الحرام عام٩١٣ هـ الموافق أبريل ١٥٠٨ م.انتهى بحرفه من غير زيادة ولا نقصان.

وقد شاع وذاع عند جميع اهالي طرابلس، وضمن ذلك في الكتب والرحال أن من زار قبر سيدي « احمد زروق » ودعا الله بخير فإنه يستجاب خصوصاً الحجاج، فإنهم يزورونه، ويستودعونه أموالهم وأنعمهم عنده - وبقدرة الله لا يصيبهم مكروه حتى يرجعوا إلى ديارهم سالمين، ويفعلون ذلك إذا حازوه بحراً، فيسلمهم الله من اهوال عواصف البحر، ولا بدع في ذلك فإن الله حفيظ لا تضيع ودائعه فمن أودع الله شيئاً عند باب من أبواب أوليائه فإن الله حفيظ لا تضيع ودائعه، والأولياء أبواب الله، والله خير حافظ وهو أرحم الراحمين.

ضريح الشيخ المدني صاحب الطريقة المدنية بمسراطة :

وبمسراطة قبر القطب الرباني العارف حضرة الشيخ سيدي[1] شعيب المدني صاحب الطريقة المدنية المتوفى سنة **٥٩٤** هـ الموافق **١١٩٧** م بزاويته المشهورة.

سفر الركب الى طرابلس وبه المؤلف :

وفي يوم الجمعة **١٠** من رمضان المعظم في الساعة الثامنة بعد الزوال خرج الركب المعتاد من مسراطة قاصداً طرابلس فبتنا تلك الليلة مسافرين ومن غد صباحاً رأينا نخيل بلدة زليطن.

زليطن

زيارة للشيخ سيدي عبد السلام الاسمر :

ومن هناك تخلفت عن الركب فعرجت عن الطريق لزيارة الشيخ العارف

---

(١) وهنا أخطأ الحشائشي في عدم التفريق بين شعيب المدني وبين محمد بن حسن بن حمزة المدني - فالأول مغربي توفي عام ٥٩٤ هـ ١١٩٧ هـ ولم يكن في ليبيا وأما الثاني الذي كان بمصراتة فهو من مواليد المدينة المنورة عام ١١٩٤ هـ وساح خمسة وعشرين عاماً ووصل طرابلس ايام يوسف القره مانللي وبنى زاويته بمصراتة وتوفي عام ١٢٦٣ هـ فليلاحظ. - ع. م.

بربه الغوث سيدي عبد السلام الاسمر ولم نتمكن من الدخول الى بلد زليطن .

مقام الشيخ عبد السلام الاسمر :

اما مقام الشيخ[1] فهو على ساحل البحر في غاية الانشراح بعيد عن زليطن بقدر خمسة أو اربعة أميال ، ودعونا الله بما تيسر ووجدت على قبره الشريف التابوت الذي تسبب في صنعه المرحوم المنعم السيد حسونه بن المرحوم السيد حمودة بن عمار شقيق السيد الكيلاني بن عمار جزاه الله خيراً ولقي ثوابه في كافة حسناته . وبعد اتمام الزيارة رجعت الى القافلة مسرعاً فوجدتها قربت من بلاد الساحل وعند مساء اليوم نزلنا ببيت على الطريق العام تابع لقرية بلاد الساحل وهاته البلدان والاراضي كلها نخيل وزيتون . ثم رجعنا صباحاً ، وسرنا النهار كله فتارة نقرب الى البحر واخرى نبعد عنه ، وبتنا جوار بلد الخمس ، وهي مرسى تأتيها السفن لأخذ الحلفاء ، ثم رحلنا صباحاً وبتنا في نفس بلد تاجورة وهو بلد تسمى بالمعيدي خير من أن تراه تأتي ترجمته ان شاء الله ؛ ثم رحلنا منه صباحاً فسرنا الى الابعة قبل الزوال ودخلنا مدينة طرابلس البيضاء وكان ثغرها مبتسماً في وجهي . ومن بلد مسراطة الى طرابلس دائماً المسير محاذياً الى شاطىء البحر وكثيراً ما توجد بطريقنا بناءات الرومان خصوصاً بين الخمس وطرابلس على رؤوس الهضبات المرتفعة .

مدينة لبدة وآثارها الهائلة :

وتوجد هناك آثار مدينة لبدة وهي من أعظم مدن الرومان وبها عين ماء عظيمة تنحدر إلى البحر من ناحية الخمس وسيأتي لها مزيد الكلام .

---

(١) ولد الشيخ عبد السلام الاسمر عام ٨٨٠ هـ ١٤٧٥ م وتوفي عام ٩٨١ هـ ١٥٧٣ م وله أثر في المحيط الصوفي في المغرب والمجتمع الليبي ، وقد ألف عنه كريم الدين البرموني المصراتي كتاباً في مناقبه ، واختصره محمد بن عمر بن مخلوف التونسي ، ولا يزال كتاب البرموني مخطوطاً اما المختصر فطبع في تونس .

غات والتوارق[7]

الخبر عن بلاد[1] غات :

الخبر عن بلد غات مع الالمـــاع إلى ذكر طرف من أحوال التوارق . حيث كانت هاته البلدة من أعمال طرابلس لزمنا التكلم عليها حسب الطاقة . هذا البلد بعيد عن طرابلس من جهة الغرب المائل إلى الجنوب بمقدار اربعين يوماً على الجمال مشياً وسطاً ، وينقسم إلى ثلاثة بلدان صغار بناء الجميع بالطين والتراب وزعف الجريد، وهو على شكل مثلث في رأس كل خط منه بلاد واسماء البلدان الثلاثة، غات . والثانية تونين . والثالثة بلاد العتارة ، والجميع يطلق عليهم غات مجازاً وبها مسجدان وزاوية للشيخ السنوسي لان غالب البلد سنوسيين والبلد هو ذات عيون ونخيل وهواؤه متوسط .

المعادن بغات :

اشتد فيه الحر وفيه بعض المعادن التوتية والكحل والطرونه وبعض الملح رديء .

(١) وهكذا يقفز المؤلف من مدينة طرابلس الى جوف الصحراء في غات مما يدل على أن تقيداته كانت غير منتظمة وجميعاً على وجة الاستعجال ويلاحظ عدم الترتيب والتناسق في ذكر البلدان والانحاء .

أوصاف اهله :

وصفة أهل غات وعاداتهم كلها على صفات التوارق وهي في الحقيقة بلد من بلدانهم يتغالون في حبها .

حاكمها وترجمته :

اما حاكمها في سنة ١٣١٢ ه (١٨٩٤ م) فهو سيدي الحسان بائبان السيمن ابن احمد ابن سيدي الحسن الأنصاري ؛ له من الحكومة مرتب سنوي قدره في كل شهر الف وستمأة قرش يأخذها من متصرف مدينة مرزق. وهذا الحاكم تولى حكم البلد بعد موت ابن عمه السيد الضاوي ابن الحاج الامين الصديق الأنصاري. أخو السيد أيوب الانصاري وستعلم ترجمته . وكان السيد الضاوي حاكماً عدلاً ثقه منصفاً عالماً بأحوال السياسة تهابه التوارق وتخشى بأسه وتوقره . ومن طباعه الحسنه انه لا يرضى النهب والقتل والظلم ، وفي مدته اطمأنت البلاد والعباد ، وشاع خبره حتى أن بعض الاتراك من حكام مرزق يقول ان هذا الرجل يصلح للصدارة العظمى وسمي في جميع اعمال طرابلس بالرجل المنصف ولما منع التوارق من الإغارة عن الأركاب والنهب دسوا الغدر والخديعة فتفطن بأعمالهم . وسلم البلاد للدولة للعثمانية فجعلت به خمسين عسكرياً وبنت به قشلة للعسكر وجعلت بها مدفعاً واقرت الحاكم المذكور على البلاد في حراسة العسكر المذكور وبعث الكثير من مشايخ التوارق الى مرزق من الذين فعلوا ما لا يليق بالأمن والراحة. وكان استيلاء الترك هذا على البلد المذكور سنة ١٢٩٣ ه الموافق (١٨٧٦ م) .

ثورة التوارق على عسكر الترك بغات وقتلهم :

ثم لما رأت التوارق ما حل بمشايخهم دهموا على العسكر ليلاً والعسكر نائمون فقتلوا جانباً منه وفر الباقون الى مرزق .

قتل حاكم غات :

واما الضاوي حاكم البلد فدهموا عليه وهو بمحله وهو على حين غفلة وما عنده شيء من السلاح إذ ذاك فضربوه بسيوفهم بعد أن قتل منهم اثنين بخنجر صغير كان بيده ثم اثخنوه جراحاً ومثلوا به في القتل فحزن عليه جميع من يحب العدل والانصاف . وحين مات كان أخوه السيد أيوب بوطن توات لتجارة له . وخلف ولدين ، أحدهما اجتمعت به مع عمه السيد ايوب بمرزق وهو ضجيع الفراش بمرض الحمى ، وقد باشرت علاجه بنفسي وهو أني ناولته صباحاً جانباً من زيت الخروع فوقع له إسهال عظيم حتى خاف عليه عمه المذكور وحيث كان نحيف الجسم شاب ظريف الشمائل ثم من غد ناولته ثلاثه قراطيس من روح الكينـــا فشفاه الله على يدي وقام كأنما نشط من عقال .

موت ابن اخ السيد ايوب الضاوي :

ثم لما أراد الذهاب لبلده خرج من مرزق في جماعة من التوارق قاصدين غات ولما سار مقدار ثلاثة أميال على مرزق سقط من أعلى الجمل الذي كان راكباً عليه وبذلك مات من حينه ، رحمه الله ، فرجعوا به الى البلد ودفن بخارج بلد مرزق رحمه الله ، ولقب اخي الضاوي سيد ايوب المذكور عن بلد غات استولى غات ابن عمه سيدي الحسن ابن الحاج احمد بن الحسن الأنصاري استيلاء وقتياً الى ان يأتي أخو الضاوي من توات ولما اتى سيد أيوب اقر ابن عمه على غات ولم يرض بالولاية .

ذهاب بن قداره من طرابلس الى غات لاخماد الثورة :

ولما بلغ الدولة فشل الحاكم والعسكر بعثت لهذه الحادث متصرف فزان اذ ذاك الرجـل العربي المشهور الحسمي بن قـداره وهو من الرجال المعروفين بالشجاعة والرأي الثاقب لحسم الثورة وأمن بلاد غات من سطوة التوارق ، ففعل ذلك بحسن تدبير ورأي مصيب وانحسمت النازلة وعم الأمن بلاد غات .

معلوم حاكم غات على الجمال التي تحل بالبلد في كل عام وكم عددها :

واعلم ان غات لا تدفع شيئاً من الضرائب للدولة العثمانية بل ان الدولة تدفع لها هدايا في بعض الأحيان ، والحال ان حاكمها السياسي يخلص معلوماً سنوياً وهو ريال فرنك على كل جمل يدخل غات .

اصناف السلع الداخلة لغات :

وفي كل سنة يدخل ما ينيف على الثلاثين ألف جمل من السودان الأقصى والأدنى ، وهذا المال له بال في غات التي قرشها بمثابة فرنك في غيرها فتأتي هاته القفول بسلع كثيرة كالعبيد وريش النعام والنعام نفسه وناب الفيل . وقد شاهدت بعين رأسي نابين من نياب الفيل يحملها جمل واحد كأنهما اسطوانتان والجلد والزبد والبخور السوداني وغير ذلك . والغالب ان هاته القفول تحل بغات في شهر اكتوبر الاعجمي .

الكلام على تجار غات واسمائهم :

الكلام على تجار غات: فمنهم المقيمون بالبلد والمشهورين منهم الحاج محمد مامه المنتقي . الحاج ابراهيم بن سليمان ، الحاج عمر النفوتي . الحاج عمر الذي كف بصره . محمد بلخوا . عبد القادر عيسى . هؤلاء غاتيون في الأصل . ومن الغدامسة ابناء الحاج عون الله . البشير بن عون الله أبن الأكحل . أولاد الثيني وغيرهم . ومن عادات تجار أهل غات انهم لا يفتحون دكاكينهم بأنفسهم فان ذلك يعد عندهم من العيوب بل ان لكل تاجر رجل عتري =

اعرف الأعتارة بغات :

= من بلد العتارة متقدمة الذكر . والأعتارة أصلهم عبيد ارقاء لأهل غات وخدامهم في القديم ثم تناسلوا فيفتح ذلك العتري دكان سيده ثم بعد حصة زمانية يأتي سيده فيجلس بدكانه وهو عبارة عن بيت صغير بناؤه بالطين

والتراب والجريد .

فصل في حدوث التجارة بطرابلس مع السودان ودواخل الصحراء .

اعلم أن التجار بالسودان ودواخل الصحراء هم من أهل مدينة طرابلس ومن أهل فزان وغالبهم من أهل غدامس اما الطرابلسية فقد أنشبت أظفارها بهاته التجارة في سنة ١٢٩٠ هـ (١٨٧٣ م) .

وكانت في القديم يعني قبل سنة ١٢٩٠ هـ (١٨٧٣ م) جارية بين أهل تونس والغدامسية وغات لا دخل لاحد من الطرابلسية في هاته التجارة وبيـان ذلك أن غـات وغدامس كانت تحت [1] الدولة التونسية . ولا زالت الآثار التونسية فيهم خصوصاً في اللباس .

لباس أهل غات :

تلبس أعيانهم الجبة التونسية والبرنس المصنوع بالحرير والحرمـلة والصدرية والمنتان والشاشية التونسية والحزام التونسي وسيوفهم تونسية الاصل و جميع ما يعزّ عليهم من الأثاث تونسي حتى إذا أرادوا مـدح شيء من السلع قالوا هذا تونسي الاصل .

طريق أول من فتح تجارة واداي من الطرابلسية :

وفي سنة ١٢٨٥ هـ (١٨٦٨ م) ظهر انسان من وطن طرابلس اسمه ناصوف أراد ان يفتح طريقاً من طرابلس الى واداي ويذهب له بنفسه ، فاخذ جانباً من أحد المثريين الاجانب وجهز قافلة صغيرة وحيث لم يكن له عـلم تام بالطريق الموصل المأمون الى واداي تشارك في الرأي مع رجل يقال له محمد بن علوه من أعيان تجـار بلد مرزق مقيم اذ ذاك – بطرابلس لتجارة له ؛ فقال محمد بن علوه لناصوف ان كنت عازماً على الذهاب لا محالة فاني نبشرك بالربح العظيم ، وكان

---

(١) كان ذلك ايام حكم القيروان وتكوين الامبراطورية الاسـلامية حيث كان الاسلام دولة قوية والمغرب مسلماً قوياً في اطار واحد.. كان ذلك ايام ازدهار الحضارة الاسلامية ـفليلاحظ.

محمد بن علوه ممن له خبرة بمتجر السودان فارسل معه ابنه وقصـــد واداي على طريق مرزق ولما بلغ مرزقا توفي محمد بن عـلوه وابنه ، ثم إن ناصوف توجه بنفسه الى أن بلغ واداي سالماً وباع سلعته باوفر الاثمان الباهظة واخذ من واداي الريش والناب وكرّ راجعاً الى طرابلس فباع ما اتى به من السلعة بما عوضه الريال الواحد خمسين ريالاً .وهذا أول رجل دخل واداي من أهل طرابلس وهو المشهور وقيل سبقه غيره ثم اقتفى اثره غيره من أهل الطرابلسية فسافروا لواداي وغيره من الممالك السودانية ومن ذلك الوقت اشتهرت التجـــارة بطرابلس مع الممالك السودانية ولا زالت تتـأ ف الشركات وتذهب القفول الكثيرة الى تلك البلدان القاصية .

اجتماع المؤلف بناصوف :

هذا الرجل من أهل طرابلس أصالة اجتمعت به ببنغازي بــدار سيدي الحـــاج محمد المهدوي شيخ البلدة نعمه الله وتسامرت معه عدة ليـــالي كانت كاختلاسة من الدهر وفرصة من العمر وهو رجل فصيح اللسان باللغة العربية الدارجة طلق اللسان حلو الكلام ذا دعابة وفذلكة في حديثه رحب الصدر انور الوجه قصير القامة له وجاهة في قومه نفاه الباشا احمد راسم في جملة من ثار عليه في نزول العسكر ، وله ابناء في غاية الجمال والرجولية والهمة العالية حكى لي انه سافر لمرسيليا ليبيع الريش والناب ودخل تونس في سنة ١٣٠٦ هـ (١٨٨٨ م) فاضافة الحاج علي بن عامر الطرابلسي ببستانه باريانه خـارج الحاضرة واثنى عليه خيراً .

ومما يشهد أن غات وغدامس تحت حكم ملوك تونس سابقاً مـا هو مسطر في بعض اسواخ مخلفات جدود سيدي أيوب الانصاري من ذرية حكام غات .

العلائق الودية بين حاكم غات ومحمد باي أمير تونس المرادي :

وذلك أن بعض جدوده المسمى بأحمد الانصاري قدم مدينة تونس وكان

معه عشرة من الخدم الرقيق يقصد بيعهم فقصد بهن الامير محمـــد باي صاحب الجامع الضخم امام ولي الله سيدي محرز ابن خلف رضي الله عنه فأخذهم الامير المذكور جميعاً منه بما أرضاه وسره ولما أراد السفر إلى غات ارسل معه محمد باي هدية إلى حاكم غات وحثه على العوائد التي كان يرسلهـا حاكم غات لامراء تونس وكتب محمد باي أيضاً جواباً الى أمير طرابلس يحسن الوصاية عنه وان يكن ببال من المتاجر الواصلة إلى تونس مع الغدامسية .

مضمون جواب محمد باي عن حاكم غات :

ولما وصل إلى طرابلس وجد اميرها سار إلى عفو الله وقام بالامر بعده ابنه فمكنه من جواب محمد باي ومضمونه على ما في تلك الاوساخ البالية المشار إليها ولا زالت عند سيدي ايوب إلى يومنا هذا ما نصه : إن حكام غات تبقى حكاماً بغات على نظرنا ومهما احتاجوا إلى شيء يخبروننـــا عنه لنكون في إعانتهم والسلام من محمد باي . ثم لما بلغ الجواب ارسل حاكم غات في الحين هدية إلى محمد باي المرادي وبقيت حكام غات ترسل في كل عام هـــاته الهدية إلى ملك تونس واستمرت المواصلة من ذلك الحين .

من أي شيءتتألف الهدية :

وهـــاته الهدية تتألف من عشرة جواري سود ومثلهم ذكور أو طواشي وجانب زبـد سوداني وجانب بخور وبعض طيور من البوبغا والنعام احياء ثم صارت هاته الهدية تأتي على طريق الركب الغدامسي الذي يأتي من غدامس في كل عام .

وصول الركب الى حمام الانف وما يقع :

ولما يصل الركب الى حمام الانف يرسل الامير له بوابا من طرفه لابلاغ سلام الامير على اعيان الغدامسية والفرح بقدومه .

ما يقع عند وصوله تونس :

ولما يصل تونس ينزل في الفندق المسمى بفندق الطبرية جوار باب العلوج داخل تونس .

ضيافة تجار الغدامسية من طرف الاميروما هي :

فيجعل لهم الامير ضيافة اكراماً لهم وهي قصاع كبيرة من الفازين والملوخية باللحم البقري تكفيهم فيأكلون ويشربون ويدعون للأمير بطول البقاء .

عوائد المقيمين بتونس :

ولهم عوائد جارية من الدولة في كل عام للمقيمين منهم بتونس جارية في كل عام وهي قفيزان من الملوخية وعشرة روس من البقر وجانب من القمح وهؤلاء الطائفة هي أول من كشف الغطاء عن التجارة التونسية السودانية وسيأتيك تفصيل ذلك عند التعرض لترجمة غدامس ان شاء الله .

حركة الغدامسية بتونس :

هؤلاء التجار منهم يبيعون السلع السودانية كالجلد بانواعه والريش والناب وكل ما يأتي من السودان كالتبر والرقيق والنعام والببغاء وكان لهم بداخل تونس دار كبيرة مشهورة يبيعون فيها لرقيق من ذكور واناث صغاراً وكباراً وهي الدار الكائنة الآن بنهج البلاعجية رقم ٦ —

يجلس بهاته الدار كبير من التجار الغدامسية المعروف بالحاج محمد الثيني وهو من الأعيان الأغنياء . فيأتيه إلى مكانه المذكور من أراد شراء الرقيق من أهل البلد فيجلس المشتري بمكان مخصوص بالدار المذكور ثم يعرض عليه من أراد شراءه من الرقيق فبعد البيع والشراء والتقليب وسلامة العيوب يدفع المشتري الثمن ويرفع ما اشتراه إلى محله . أخبرني المنعم السيد الحاج احمد بن الكيلاني انه ذهب مع والده صغيراً إلى هاته الدار ليشتري منها خادماً فاشتراه بثلاثمائة

وخمسين ريالاً تونسياً فرنكاً ٢١٠ ودامت عنـــده سنيناً عديدة وكان موتها سنة ١٢٩١ هـ ١٨٧٤ م عتيقة وأخذ ولاءهـا السيد احمد المذكور وبيع الرقيق ليس بممنوع في تلك العصور .

سوق الرقيق بتونس :

وله سوق خاص به. وهو المكان المعروف في يومنا هذا بالبركة بناها المرحوم يوسف داي لهذا القصد .

انقطاع الركب الغدامسي عن تونس وسبب ذلك :

ودامت مواصلة الركب الغدامسي إلى تونس الى أوئل دولة المشير احمد باشا باي الحسيني اخذ الركب في التقهقر وانقطع بالمرة في أواسط الدولـة المذكورة وصـار يقصد طرابلس بسلعه وعبيده . والسبب في ذلك أحد أمرين الاول هو: صدور أمر الامير بمنع بيع الرقيق والعقاب الشديد لمرتكبه والعتق جبراً، والامر الثاني هو : أن محمود بن عياد لما استبد بالضرائب التونسية على الاشياء المباعة ودخل الدولة التونسية جميعه كان بيده وكان الغدامسية يجلبون في ذلك الوقت الذهب المعروف بالتـبر من السودان يبيعونه بتونس لليهود والأفرنج وبعض أهل البلد بأثمان وافرة تسبب ابن عياد في اصدار امر من المشير احمد باشا والي البلد في لزوم الغدامسية الأداء على التبر فضاق الحال بالغدامسية من ظلم بن عياد مع ما لحقهم من عدم بيـوع الرقيق فدبروا في تحويل الركب الى مدينة طرابلس. للخروج والتخلص من هذا الاداء .

تحويل ركب الغدامسية الى بلد طرابلس :

فاخذت الطرابلسية تتعلم منهم السفر الى السودان الى يومنا هذا .

غات مركز تجاري

مركز تجارة الصحراء غات :

ثم نرجع الى الكلام على غات فنقول ان غات هي مركز عظيم للتجارة

الصحراوية ومرسى السودان ولها تجارة كبيرة مع أهل توات وأهلها اصحاب عقيدة راسخة على مذهب الامام مالك رضي الله عنه متمسكون بالطريقة السنوسية وكانوا قبلا لا يتعاطون الا في تجارة الوثنيين الذين لا دين لهم .

التوارق وعاداتهم

ترجمة التوارق والالماع بشيء من اخبارهم واحوالهم وطباعهم :

ولما كانت من سكان غات التوارق وأميرهم واعيانهم يسكنون هذا البلد الذي هو من أعمال طرابلس في اوقت الحالي ناسب أن نتعرض لبعض اخبارهم باختصار مفيد لمن لا يعرف احوالهم . فنقول قال العلامة ولي الدين عبد الرحمن أبن خلدون ما نصه : الطبقة الثانيه من العرب صناهجة وهم الملثمون وما كان لهم بالمغرب من الملك والدولة الى هذه الطبقة من صنهاجة هم الملثمون الموطنون بالقفار والرمال الصحراوية في الجبالات هناك والتنايف والمجاهل منذ دهور قبل الاسلام لا يعرف أولها، فأسحرو على الأرياف ووجدوا بها المراد وهجروا التلول وجفوها واعتاضوا منها بلبا الانعام ولحومها ، انتباذاً عن العمران واستئناساً بالأنفراد وتوحشا بالعز عن الغلبة والقهر . فنزلوا من ريف الحبشة جوارا وسكنوا ما بين بلاد البربر وبلاد السودان حجزاً واتخذوا اللثام خطاماً تميزاً بشعاره بين الامم — وكثروا وتعددت قبائلهم — من كذالة ، فلمتونة — فوتريكة — فناواكة — فزغاو: ثم لمطة اخوة صنهاجة ومحلهم ما بين البحر المحيط الغربي الى بلد غدامس قبلة طرابلس وبرقة وللمتونة فيهم بطون كثيرة منهم بنو ورتنطق — وبنو زمال — وبنوسولان وبنو أناسحة — وكان موطنهم من بلاد الصحراء يعرف كاكرم وكان دينهم جميعاً المجوسية. شأن برابرة المغرب ولم يزالوا مستقرين بتلك المجالات الشاسعة حتى كان اسلامهم بعد فتح الأندلس .

دخول التوارق دين الاسلام

دخول التوارق دين الاسلام

وكانت الرياسة فيهم للمتونة واستوسق لهم ملك ضخم مند دولة عبد الرحمن ابن معاوية الداخل توارثه ملوك منهم ، تلاككين وورتكا ابن ورتنق جـدابي بكر بن عمر امين لمتونة في بداية دولتهم . وطالت اعمالهم ودخلوا البـــلاد الصحراويةوجاهدوا منبها من أمم السودان وحملوهم علىالاسلام فدان لهم كثيرهم.

وقال ابن خلدون نقلاً عن ابن أبي زرع[1] :اول من ملك الصحراء من لمتونة بنولوثان ، فدوخ بلاد الصحراء واقتنى مغارم السودان وكان يركب في مائةألف نجيب توفيسنة ٢٢٢ ه (الموافق ٨٣٦ م) وملك بعده بلثان وقام بأمرهم ومات سنة ٢٨٧ ه الموافق ٩٠٠ م، وقام بالأمر بعده ابنه تميم إلى سنة ٣٠٦ ه(٩١٨م) وقتله صنهاجة وافترق أمرهم . انتهى كلام ابن زرع . وقال ابن خلدون كان من أشرهم تـــيزاو ابن وانشق ابن بيزاو استولى ملك الصحراء بأسرها على عهـد عبد الرحمن الناصر وابنه المنتصر في المائة الرابعة وفي عهـــد عبدالله وابنه أبي القاسم من خلفاء الشيعة كان يركب في مائة ألف نجيب وعمله مسيرة شهرين في مثلها. وادان له عشرون ملك منملوك السودانيعطونه الجزية وملكمن بعده بنوه ثم تفرق أمرهمبعد تميم ابن بلتان مائة وعشرين سنة إلى أن قام فيهم ابو عبيد الله ابن يتفاوت المعروف بناثرت اللمتوني فأجمعوا عليه واحبوه وكان من أهل

---

(١) ابن أبي زرع هو : مؤرخ المغرب ، من مؤلفاته « زهرة البستان ... » و « الانيس المطرب ... » و «تاريخ مدينة فاس» .

الدين والصلاح وحج وهلك من ثلاثة اعوام من رئاسته في بعض غزواته وقام بالامر بعده صهره يحيى بن ابراهيم الكندالي وبعده يحيى بن عمر ابن تلاكاكين انتهى . ثم نخص بالذكر من هؤلاء التوارق الضاربين بالاعمال الطرابلسية حول غات وغدامس وفزان .

الكلام على قبائل التوارق الثلاث أزقر – وهقار – وفوغاس :

هؤلاء ضاربون آلاف حول غات وجباله إلى بلدهم الاصلية وهم من الملثمين المار ذكرهم ولذلك ترى اللثام دائماً لا يزال عن أوجههم ولو عند الأكل والشرب ولنبدأ بذكر رجالهم المشاهير الموجودين بغات ولهم التصرف في جميعهم .

مشاهير رجال التوارق :

أولهم الرجل أنقدازن . وهو الحاكم على التوارق وولد أخت نخنوخ حاكم التوارق ايضاً قبله . تاكروب وهو رجل مسموع الكلمة في القبائل بمثابة وزير – مولاي – هو رجل ذو شهرة واعتبار . سيدي محمد بن نخنوخ من الوجهاء . بنايت ابن موسى رجل من العالمين بأحوال التوارق. حميدو ابن بو وافزن مثله. الشيخ محمد بن ابراهيم مثله . هؤلاء أعيان التوارق اصحاب الشورى الذين عليهم الحل والعقد وإذا صار أمر عظيم في قبيلتي أزقر وهقار فإليهم [١] يرجع أمره .

بعض شيء من طباعهم :

ومن طبائعهم عدم الحمق والتأني في الكلام فلا ترى من يتكلم منهم صارخاً أو رافعاً صوته بتقطيب . وقل من يحسن الكتابة والقراءة منهم ولهم تعظيم لأرباب العلم والشرف خصوصاً من تمسك بالطريقه السنوسية وهؤلاء القسم من التوارق يسمون انفسهم المشاك بمعنى مستقلين وأشراف . قال ابن خلدون واسم

---

(١) لعل الصواب فإليه يرجع أمرهم .

التوارك أطلقته عنهم العرب لتركهم الحق في الصدر الاول وعلى هذا يكتب لفظ التوارك بالكاف لابالقاف .

ضبط لفظ التوارق :

وهم ينطقون به بالقاف المصرية وكذا أهل طرابلس اما الآن فيهم مسلمون ولغتهم تسمى تماشك وهم بيض الوجوه حسان الخلقة .

زيهم في حمل السلاح :

وليس لهم شيء من السلاح الجديد يحملونه . ولا ندري الآن هل وجد ذلك عندهم أم لا فغاية ما يحملونه من السلاح حربة طويلة وسيفاً ماضياً من الجانبين وخنجراً ظريفاً على شكل الصليب مربوطاً مع ذراعه الأيمن وبعضهم يرفع بندقية وذلك قليل يأخذها في الغالب من بلد مرزق ذات جعبة واحدة من الطراز القديم ولم يحملها ربها الا لما عسى ان يصادفه في طريقه من بقر الوحش والغزال .

كيفية ركوب التوارق على الجمال :

ولهم كيفية خاصة لا يستطيعها الرجل الجسيم وهي جعلهم خرجا من اللوح يربطونه فوق اكتاف الجمل ربطاً محكماً ويجعل زاده وسلاحه فوق ظهر الجمل بمزود من جلد المعز مدبوغاً ويعلق سيفه امامه بقربوس سرجه ويجعل رجليه مختلفتين فوق عنق الجمل ويمسك الشكيمة بيده اليمنى .

كم عدد ازقر وهقار :

اعلمني السيد ايوب الانصاري ان عددهم لا يتجاوز الثلاثة عشر ألف وقيل تسعة آلاف فالامر داير بين ذلك وكانوا يتجاوزن هذا العدد في سنة ١٣٠٠ هـ (١٨٨٢ م) وسبب النقصان هو الشيء الذي وقع في بلادهم والجوع ووقع غزوهم لبعض القبائل المجاورين لهم فكثر فيهم الموت وفي سنة ١٣٠١ هـ

(١٨٨٣ م) غزوا قبيلة تبو فقتل تبو منهم سبعماة رجلا واثخنوا فيهم .

موقع اراضيهم الجغرافي :

واعلم ان ازقر وهقار هؤلاء المتحدث عنهم وفوغاس ايضاً يمتدون من حدود توات الى بلاد غات ومرزق في فلوات من الرمال والجبال قاحلة من الرمل وبينهم اراضي فارغة وقفار هاملة لا يسكنونها -

ركوبهم الهجاين :

أما اشرافهم فيركبون الهجاين السريعة وغاية ما يكون من سرعة الهجين عندهم ان يسير الثلاثة أيام في يوم واحد ولا اصل لما ينقلونه بعض المؤرخين من أن هناك جمال يعبرون عنها بالمهاري العشريات بمعنى انها تسير في اليوم مسير عشرة أيام فهو حديث خرافة .

لباس التوارق :

اما لباسهم فغالب السوقة منهم يلبسون القميص الأبيض وهو الغالب أو الاسود احياناً ويجعلون اكمام ذلك القميص كبيراً جداً بحيث انه اذا لم يرفعه ربه يصير مطروحاً فوق الارض، ويجعل فوق رأسه عمامة ووسط رأسه عرياناً ويحلقون رؤوسهم الا انهم يبقون بعض الشعر برؤوسهم ممتداً من قفاه الى جبهته في غلظ خمسة سانتيم ويجعلون على أوجههم لثاماً . وقليل منهم من لم يعلق التمائم والحروز بعنقه ويتنافسون فيها . اما اعيانهم فيجعلون طرابيش حمر طوال على رؤوسهم أرتفاعها مقدار عشرين سانتيم من صناعة تونس يتنافسون فيها .

خيلهم وانعامهم :

اما الخيل فهي قليلة جداً عندهم ولا يركبونها .

بلادهم وأوصاف منازلهم وبيوتهم :

ولهم واحات كثيرة بالصحراء بها نوع من التمر رديء كتمر تاورغاء [1] يقتاتون منه وتوجد عندهم الغنم والمطر عندهم قليل جداً اكبر بلدانهم تسمى أدلى.

بعض عادات لهم وطبايع وصنايع :

ومن عاداتهم ألا يتزوج الرجل منهم اكثر من امرأة شرعية . ومحل سكناهم في بيوت من الجلد محزمة بالقصب الجيد مصنوعاً كالحصير وبلدانهم البلد عبارة عن واد ذات نخيل فيه بيوت مبنية ،اما بالقصب أو الجريد مع شيء من التراب الخالص، وولد أخت الملك عندهم هو وارث الملك. ومن طباعهم أنك إذا حللت بأرضهم ولم تكرمهم ولو بأقل الاشياء التافهة فإنك تهان في أعينهم ،والكثير منهم يطلبك جهاراً ولو كان من اعيانهم الاغنياء وأقله أن تطعمه في بطنه ، وكبراؤهم الأعيان ليست لهم صناعة ولا تجارة وقد وقعت لي معرفة ببعض اعيانهم خصوصاً عندما كنت بمرزق ، فهديت لهم بعض حقق ملئانة بزيت الياسمين مع شيء قليل من عطره فوقع ذلك عندهم موقع الاستحسان .

حب التوارق لمدينة تونس وسلعها :

ومما هو مركوز في عقولهم أن ليس يوجد بلد في العالم اعظم من مدينة تونس، ويرون ان سلعها احسن سلع مدن الدنيا بحيث أن التاجر إذا أثبت لهم أن الشيء الذي يريدون شراءه اصله تونسي اشتروه بما يطلب من غير مساومة . اخبرني السيد أيوب الضاوي ان له سيفاً تونسياً اشتراه بمائة دور بوطيرة ثلاثمائة فرنك تقريباً ومع هاته الدراهم عبد رقيق وجانب من ريش النعام وقد قدم لي هذا السيف فشاهدته بعين رأسي فاذا هوا سيف ممضي من الجانبين راسه من حديد طوله ثمانين سانتيم وعرضه سته سانتيم ونصف وله غلاف من الجلد قديم.

---

(١) تاورغاء بلد قرب مسراطه .

قـــال السيد ايوب ان هذا السيف صنع في مدينة تونس الخضراء في مدة الامير الجليل حمودة باشا الحسيني سنة ١٢٢٩ هـ (١٨١٢ م) .

زيادة تعريف لبعض أعيان من التوارق المشهورين :

ثم اعلم أن قبيلة فوغاس الممتدة بين توات وغدامس اشجع من قبيلتي أزقر وهقار المـــار ذكرهما، ومن أعيانهم اصحاب الكلمة والجاه والنفوذ رجل اسمه بوفينايت . ومثله لكن من المتجبرين رجل يقـــال له الكرب . وأبو فينايت المذكور له يد على قبيلة الشعانبة ونفوذ ولهم حيل عظيمة في الحرب لاشجاعة .

اعرف حيل التوارق في الحرب وترجمة التارقي تاكروب وقدوم كراجي لغات وذهابه لقشلة العسكر :

يحكى عن رجل من قبيلة أزقر اسمه كراجي . له اعتبار بين قومه ذهب يوماً الى دشرة[1] من عمالة الغرب الجواني ومعه عشرون نفراً ولمـا بلغهم قال لاهلها : اني أريد ان اشتري بندقية طيبة، فإن اعجبتني ندفع لربها مائة مثقال من التبر الذهب الخالص والنقد حاضراً، فلما سمعت اهل الدشرة كلامه ذهب منهم كل من له بندقية فاتاه بها ثم انه يأخذ البندقية ويزيل زنادها لينظرها في زعم اهل البلد ولما غلب على ظنه انه لم يبق بندقه في البلد امر العشرين نفساً التي معه فعاثت في البلد واخذوا بعض اثاثهم وساقوا ابلهم بعض ان قتلوا منهم خلقـــاً كثيراً وهذا الرجل تهابه جميع التوارق قدم الى غات فأكرمه جميع التجار واعيان التوارق غاية الاكرام،فطلب منهم يوماً ان ينظر القشلة العسكرية فنظرها وكان فيها مدفعاً واحداً . ولمـــا اراد أن يرجع الى ارضه جمع غالب الاعيان والتوارق وذهب بهم الى القشلة حتى وقف على عين المدفـــع المذكور فخاطب من كان معه بقوله : يا معشر اعيان ازقر وهقار، اعلموا انه ما دام فيكم

---

(١) دشرة : قرية صغيرة .

هذا الحديد الخشين لا راحة لكم في هاته الديار والسلام . وانتهى بعض ما تيسر من ترجمة ازقر وهقار الضاربين بأرض غات وحواليها ، ومن أراد زيادة البيان فعليه بالرحلة[1] الصحراوية للعبد الفقير وترجمت الى اللغة الافرنسية بواسطة العــالم الحاذق موسيو سير المراقب المدني بتونس والسيد محمد الاصرم رئيس الخلدونية ثم طبعت باللغة الافرنسية .



(١) يفهم من هذا ان الكتاب الذي طبع بالفرنسية به عن الطوارق اكثر من هنا .

غـــدامس

الكلام على بلد غدامس والغدامسية :

قال المؤرخ ابن الشباط [1] غدامس قرية كثيرة النخل وأهلها برابرة أكثر طعامهم التمر والكمأة وهي تعظم عندهم. افتتحها الامير عقبة سنة ٤٢ . انتهى . ويقولون أهلها إن قبر هذا الصحابي بغدامس وهو مخالف لما قاله غـير واحد من أنه مات بالزاب وقبره بهـا والله اعـلم . وفي كتاب معجم البلدان لشهاب الدين ابن عبدالله ياقوت عبدالله الحموي الرومي البغدادي المتوفى سنة ٦٢٦ هـ الموافق (١٢٢٨ م) ما نصه : غدامس بفتح أولها وبضم وهي عجمية بربرية مدينة في المغرب في جنوبيه ضاربة إلى بلاد السودان بعد بلاد زاغون تدبغ فيها الجلود الغدامسية وهي من أجود الدباغ لا شي فوقها في الجودة كأنها ثياب قز في النعومة والإشـراق وفي وسطها عين أزلية [2] وعليهـا أثر بنيان عجيب رومي ينبض منه المـــاء ويقسطه أهل البلد بأقساط معلومة لا يقدر أحد أن يأخذ أكثر من حقه وعليه يزرعون وأهلها بربر يقال لهم تناورية . انتهى.

---

(١) ابن الشباط من أدباء وعلماء القرن السابع الهجري ولد عـــام ٦١٨ هـ وتوفي ٦٨١ هـ واسمه بالكامل — محمد بن علي بن محمد بن علي بن عمر ابو عبدالله — ويعـــرف بابن الشباط وهو تونسي الاصـــل من بلاد توزر — من مؤلفاته « صـــلة السمط » جعله شرحاً لتخميس القصيدة الشقراطيسة في التاريخ والسيرة — من الذين اشاروا لابن الشباط — الرحـــلة العياشية وصدور المشارقة — وشجرة النور — وكشف الظنون — واعلام الزركلي .

(٢) ازلية أي أثرية قديمة .

وطبائعهم شبيهة بطبائع التوارق يتكلمون بلغة بربرية خاصة بهم مع معرفتهم مبادىء القراءة والكتابة . ومنذ اعتلقوا بالطريقة السنوسية صار منهم من يحفظ القرآن العظيم مع حسن مشاركته في العلوم الاسلامية . وكان تخرج منهم أناس عالمون فقهاء كالشيخ الغدامسي صاحب شرح الحزب الكبير للامام الشاذلي رضي الله عنه ، ومن امثالهم الدارجة قولهم « غدامس تولد ، وتونس تربي » ، وذلك إذا ازداد مولود لأعيانهم يمكث عندهم بغدامس إلى أن يبلغ سنه سبعة أو ثمانية سنين إلى العشرة ثم يرسلونه إلى تونس لقراءة جانب من القرآن العظيم وتعلم الكتابة ثم يباشر خدمة بعض الحرف إلى أن يحصل على جانب من المال فيشتري به جانباً من السلعة المطلوبة ويقصد بلاده على طريق وادي تطاوين .

وهم اول من احيا التجارة السودانية مع أهل تونس ودخلوا ممالك السودان وانتشروا في اصقاعه وتسلطوا على تجارته وربحوا الارباح الباهظة .

الغدامسية في السودان :

ولنذكر لك على سبيل الاختصار بعض اعيانهم الذين لهم تقدم عظيم في بعض الممالك السودانية وتجارة عريضة .

تجار برنو أعيان التجار به :

محمد بن محمد بن ابراهيم الغدامسي . وهذا الرجل له اعتبار عظيم وشأن وعلو مكان وغناء حتى صاهر السلطان برنو المعروف بالحاج عمر . وعبدالله بن عثمان القبيل . محمد بن مطيش . البشير بن خلف الله . احمد بن سالم .

تجار الشاد المشاهير :

حامد بن محمد الصياح الغدامسي . البشير بن محمد بن هيبة القبيل .

تجار دامرقو :

المختار بن محمد القبيل ، السيد محمد البشير الوحيشي رجل غني عظيم القدر .

موسى بن محمد الهشمي . احمد بن محمد بوزمالة القبيل. محمد بن الحاج المرتضى. البوخاري بن يوشح القبيل . محمد بن قنون .

تجار كنو :

الشيخ محمد بوزمالة الغدامسي وهذا الرجل بمثابة وزير حاكم كنو . عتيق الثني اباندي . عتيق الحاج محمد ابن ابراهيم الثني اسمه زفريا . علي بن بركة . شوشان محمد ابن ابراهيم الثني . التاجر بوبكر بن احمد الثني . محمد بن سالم القبيل . التاجر عبد الله بن خلف الله القبيل . علي كسوف من اصحاب الكلمة والأعتبار . محمد بن احمد حوداذه . باوه بن محمد حيدة من الوجهاء في الصحراء ، مصطفى بوشي ، محمد بن احمد الموفق . مصطفى بن محمد الموفق . محمد بن علي ابن حمودة . احمد بن موسى الحاج محمد بن عبد الرحمن . بركة عتيق بوبكر الثني.

تجار نوفي :

الشيخ محمد العبيدي من اعيان الغدامسية . محمد بن احمد الموفق . عامر الحاج محمد الباهي .

تجار ادماز :

تجار ادماز . علي بن محمد رباهي . بوبكر بن عبد الحميد . احمد بن عنكس . مسعود بن ممدوا .

تجار زارية :

محمد بن محمد بن رشيد . السنوسي عكو . ياروحيدة .

تجار تنبكتو :

التاجر حمّو البليلي كثير ما يرسل سلعته الى طرابلس على طريق بوسطة

بلاد السنغال . عبد الرحمن بن كياري الغدامسي . محمد بن محمد بن علي رشيد القبيل . البشير بن احمد الغنجي القبيل . احمد بن الحاج ابراهيم غـــلام الثيني القبيل . التجار صرصوا المازغني .

تجار سكتو :

الحـــاج محمد الموفق الغدامسي . عمر بن الحاج محمد الباهي القبيل . محمد بن الحاج علي بن رشيد . سالم بن عبد الله عرف عبيشة .

تجار بوشي :

الفنيدي بن كياري . الحـــاج قاسم الباهي القبيل . محمد بن محمد عثمان . الطاهر المانع .

تجار واداي :

محمد الصّياح الغدامسي من المعتبرين وله مخالطـــة مع سلطان واداي عليو عتيق الحاج محمد الثيني .

تجار كانم :

محمد بن محمد ميمون . الطاهر بن محمد بن الفقيه هيبة .

تجار غات :

تحم بن الحـــاج محمد عرف بالاكل . الحاج بوبكر الثيني . المصطفى بن محمد الثيني . المختار بن الحاج محمد الثيني. ابوبكر بن محمد بن وليـــد . السنوسي بن احمد الموفق . محمد بن بلقاسم بن عثمان . عمر بن محمد المانع . بوبكر الموفق . المصطفى المؤمن . الحاج المختار عون الله . الحاج البشير عون الله . محمد بن الحاج البشير بن سليمان. احمد بن الحاج ابراهيم بن سليمان . عثمان بن محمد . احمد بن الحاج ابي بكر الثيني. علي بن ميلود بن علي. محمد بن سالم . عثمان بن مسعود . السنوسي

بن الحاج سالم . عبدالله بن صالح بن علي .صالح بن موسى . صالح بن عزى. احمد ابن عزمي .

تجار غدامس القاطنين بها :

ولهم شركات مــــع ابناء عمهم في أقاليم السودان وهم الحاج احمد بن محمود الغدامسي . الحاج المختار بن قاذ، . الحاج عبدالله بن هارون. الحاج محمد حورة. الحاج القاسم الباهي . حيان بن سهل . محمد بن مليود سهل . محمــد المصطفى بن محمد احمد بن الحاج قاسم . الحاج سالم سوله . الحاج متبنغل . الحــاج ابراهيم بن عبد الحميد .

الغدامسية التجار بتونس :

ولهم اتصال مع أبناء عمهم من تجار الممالك السودانية. كنت في سنة ١٣١٩هـ الموافق (١٩٠١ م) بعد رجوعي[١] من سياحتي الصحراوية إلى مسقط الرأس تعلق فكري بأن أحرر كتابة فيما يتعلق بشعب الغــــدامسية وعددهم بتونس وذلك لما رأيت من نفوذهم في الأصقاع الصحراوية وبلدانهــــا ونفوذ كلمتهم في الممالك السودانية وهم أول شعب دخل السودان بسلع تونس واحتوى على أطرافه بأوفر ثروته. وقد كانت لي علقة ومودة مع بعض أعيانهم وكان إذ ذاك ماينيف على الثلاثمائة نفس منهم قاطنين بتونس اخص منهم بالذكر في تاريخي هذا أعيانهم الملاك وإن مات منهم احد فورثته باقية إلى اليوم . الحاج عومر الوحشي . محمد الطاهر الوحشي . الحاج الطاهر بن هارون . الحاج محمد بن الحــاج احمد الثيني . محمد بن بلقاسم بن عبد الواحد. بو بكر بن الحاج .الحاج محمد بن عزى واخوانه. البشير بن الإمام . قاسم بن علي محلا. محمد بن وليد. محمد بوزمالة واخوانه. الحــاج محمد هيبه وإخوانه . متيضن القنجي وإخوانه . الحاج علي الثيني

---

(١) ويفهم من هذا ان الحشائشي قام برحلة صحراوية اخرى وكان يزمع الكتـــابة عن غدامس .. ترى هل ترك شيئاً من كتابته ؟؟

واخوانه. الحاج محمد الثيني عرف الناظر . محمد بن جميع. محمد بن سالم بن علي. قاسم بن موسي بن موسى بن عنكس . محمد بن عمر الوحشي . احمد بن الحاج قاسم وابناء عمه . محمد بن محمد الزملي . محمد بن عبد الرحمن بن رشيد . محمد بن احمد بن رشيد. ابنــاء محمد بن محمد بن رشيد . ابناء الحاج علي بن رشيد . ابناء الحاج علي ديفو . خميس بن علي واده . الحاج محمدلا بن خالد . محمد واحمد ابناء القاسم بن أحمد محمد وخميس ابناء جردو . الحاج علي مسوى . محمد بن علي بن عمر الثيني . القاطنين بالممالك السودانية ولهم خــبرة عظيمة بأحوال السودان وممالكه وجدودهم منذ أحقاب متطاولة بتونس يرون أنفسهم كابنــاء تونس في جميع الحقوق ولقد كان المشير الاول احمد باشا جعــل منهم حراساً للبلاد مثل اولاد البلاد يسمون باللواجة وكان لهم مركز للعسة في المكان المعروف اليوم باساباطبن نجم قرب بير الاحجار داخل تونس ولهم عوائد على الدولة يأخذونها كل عام وهي :

خمسة روس من البقر. قفيزين من الملوخية . اربعة أقفزة من القمح .

عوائد الغدامسية من الدولة كل سنة :

وانقطعت هاته العوائد في اواخر الدولة الاحمدية . وفي سنة مدة المشير الثاني محمد باي لما عم المجبا على سكان القطر التونسي الا الست مــدن – تونس – القيروان – سوسه – صفاقس – المهدية – المنير . استثنى الامــير المذكور الغدامسية عن أداء المجبا كابناء تونس الا أنه في سنة صدر قرار من الوزير الاكبر سيدي محمد العزيز بوعتور رحمه الله بأداء خمسة فرق المجبا وهم العبيد السودانيين الحاليين بالحاضرة . وأهل فزان . والقرابة . والطرابلسية . والغــدامسية . ثم إن الدولة ابطلت الاداء على القرابة وأهل فزان والعبيد والبعض من الطرابلسية ولم يبق إلا الغدامسية فساءهم ذلك واستاؤوا غاية الاستياء والحق معهم لانه ما الفرق بين أهــل فزان والغدامسية لأنه كان لما أزيل المجبا على أهل فزان أن تزال عن الغدامسية أيضاً وإلى الآن في نفوسهم من هــذا الأمر شيء ولكنهم

أول ناس يمتثلون لما تأمر به الدولة وهم في الحقيقة أهل ديانة وعفة وصدق وجد نرجو من جناب حلم الحكومة التونسية ان يتساووا مع اخوانهم الفزازنة في عدم اداء المجبا وفيما ذكرته في حقهم كفاية والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .



لبدة وغريان والخمس

مدينة لبدة من عمل طرابلس :

لبدة بفتح اللام وسكون الباء[1] هـاته المدينة كانت كثيرة العمران جـداً مشتملة على الخيرات الكثيرة فتسلطت عليها يد الاعراب وعلى أرضها فغيرت ما كان بها من النعم وأجلت أهلها إلى غيرها فلم تبق منها إلا الاطلال محتهـا يد الزمان. وآثارها يقال عنها كان وكان. وتشهد آثارها انها مدينة عظيمة منمدائن الرومان الهايلة ولم نعثر في التاريخ على من فتحها من الاسلام والظاهر أن فتحها كان مع فتح طرابلس الغرب المسافة[2] بينهما ثم عمرهـا قوم من هوارة البربر[3] . ولها على نحر البحر قصر كبير عامر آهل وسوق عامرة وللبلد نخيـل كثير وزيتون . ومن لبدة الى قصر بني حسن سبعة عشر ميلاً ومنه الى قصر باكور ميلاً واحداً وهو مرسى حسنة ، ومنه إلى قصر هاشم إلى قصر ساميةاثني عشر ميلاً ومن قصر سامية إلى سويقة بني مزكور اثني عشر ميـلاً ومنـه إلى طرف قانانالمشهور عشرين ميلاً فمن طرابلسإلى طرف قانان مائة وثمانون ميلاً.

كم من ميل من طرابلس إلى قانان :

وعلى التنوير البحري ماتان وعشرة أميـال والسويقة تنسب الى ابن مزكور

(١) هذه النصوص التي ساقها الحشائشي مأخوذة حرفياً من كتاب ـ نزهة المشتاق في اختراق الآفاق للادريسي وهو من جغرافي القرن الحادي عشرولم يسجل الحشائشي ملاحظاته الشخصية عن لبدة وما حواليها من البلدان مثل الخمس وغيرها واكتفى بنصوص جغرافي قديم .

(٢) يظهر أن كلمة « لقرب » سقطت في النسخة الاصلية .

(٣) والآن كل سكان المناطق حول لبدة والساحل عرب .

يسكنونها وما حواليها قبائل من هوارة برابرة وبها سوق مشهور حواليها قصور كثيرة يخزنون بها العرب طعامهم .

فائدة جغرافية فيما بين لبدة وطرابلس من المسافة :

فائدة في تعيين المسافة بين طرابلس ولبدة : من مدينة طرابلس إلى قصر علي رأس قليوشا اربعة [1] عشر ميلاً . ومنه إلى قصر الكتاف[2] ثمانية اميال . ومنه إلى قصر بني غسان اثني عشر ميلاً إلى مصب وادي لادس ثمانية عشر ميلاً . ومنه إلى طرف رأس الشعراء اربعة عشر ميلاً . فمن رأس قليوشا إلى رأس الشعراء اربعون ميلاً وعلى النوير اثنان وخمسون ميلاً . ومن رأس الشعراء إلى قصر شريكس أربعة عشر ميلاً إلى قرطيل المسن وهو طرف داخل في البحر أربعة أميال ومنه إلى لبدة أربعة أميال[3] .

جبل نفوسة :

من الاعمال الطرابلسية جبل نفوسة بينه وبين مدينة طرابلس ستة مراحل وأهل هذا الجبل كلهم اسلام على مذهب [4] الخوارج يتبعون امامهم أبي منبه اليماني اما وصفه فسيأتي الكلام عليه .

جبل غريان :

ومن أعمالها الجبل المعرف بجبل غريان يبعد على طرابلس بثلاثة مراحل وسيأتي الكلام على أحواله .

---

(١) في كتابه نزهة المشتاق للادريسي ١٢ ميلاً .
(٢) في نزهة المشتاق قصر الكتاب .
(٣) وهذه النصوص أيضاً مأخوذة حرفياً من كتاب الادريسي مع أن كثيراً من أسماء المواضع لم تكن جارية الاستعمال والاطلاق في عصر الرحالة الحشائشي وعصرنا هذا ..
(٤) ينفي أهل المذهب الأباضي عن أنفسهم كلمة خوارج وينكرون هذا الوصف وقد كتب بعض الأفاضل منهم دراسات حول هذا وهو من المذاهب الاسلامية المعتمدة .

الخمس :

ومن اعمالها الخمس مرسا عظيم يوسق منه الحلفاء بكثرة .

التعريف بتاجوراء :

ومن اعمال طرابلس تاجوراء كعاشوراء قال التيجاني : هو بـلد صغيرة به قصر متسع يتجمع على دور كثيرة قال : وفي وسط هذا القصر حصن أقدم منه بناء يقال ان حميد ابن جـارية ابتناه وشارك فيه بالعمل بنفسه ليحرض أهـل المكان على إتمامه، وهو الذي عمر هاته القرية ونقل إليها أهلها من هناك فتعرف بأرض عبد ربه وكان ابتداء عمارتها في سنة خمسين وخمسماة الموافق ١١٥٥ م وهم يدعون أنهم من العرب وينسبون إلى تميم ويذكرون أنهم سكنوا الأرض المعروفة بأرض عبد ربه من حين الفتح الاسلامي ثم نقلهم منها حميد إلى هـاته القرية . قال: وبتاجورة السفرجل الذي لا يوجد في بقاع الأرض مثله إلا السفرجل الذي يوجد بنفزاوة . قال الشيخ بن ناصر: والذي اعرف في ضبطهاتاجوراء كعاشوراء اما العبد الفقير فقد بت بهاته الدشرة مع جملة الركب القـادم من مسراطة إلى طرابلس ففي الصباح تجولت بهـا فرأيت قرية بها بعض دور بناؤها بالطـين والتراب وغالبها عديمة الابواب ولا قصور ولا آثار تدل على ما كانت عليه والله يرث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين بينها وبين طرابلس مرحلة صغيرة .

برقـــة

التعريف ببرقة :

برقة أرض متسعة جداً تمتد إلى أحواز بنغازي وحدود الاسكندرية مـن جهة الجبل الاخضر إلى حدود سرت وفزان من جهة الجفرة ولهـا عند العرب اسمان برقة البيضاء وبرقة الحمـــراء . باسم لون الأرض بحيث أن الأركاب إذا دخلوا أرضا يتلونون بلون الأرض فترى ثيابهم بيض أن دخلوا البيضـاء ويحمر

ان دخلوا الحمراء ووقع للعبد الحقير مثل ذلك .

التعريف بسكان برقة ونتاجها :

وتسكنها قبائل كثيرة من اعرب منهم التمامة . وأولاد سليمان . والمياببس والشريدات . والهوات . والسهب . والقدادفة . والعمارة . والـتمامة . ومنهم سيف النصر المتسلط على الجميع بمثابة امير عليهم ينقادون الى أوامره ونواهيه ولا بأس بالتعريف بهذا الامير اعربي المحض وقبيلته لما في ذلك من الفوائد الغير معروفة اليـوم لمتطلع اخبار البشر فنقول : اعلم أولاً انني اجتمعت بهذا الرجل مشافهة مـع صحبة قاضي عرش التمامة الشيخ المتفنن سيدي عبد الحفيظ الـتمامي وهو رجـل مشارك في بعض العلوم لطيف الطبع والذات نيف على السبعين من عمره وكان اذ ذاك عرش التمامة ضارب اطنابه باحواز بلد ودان لانه في كل عام يمكث العرش المذكور في هذا الـبلد في وقت اجتنـاء التمر فيمتار منها قوت سنته ، ثم يرجعون الى اوطانهم المتجولين بها من الصحراء . وقد فارقتهم عندما بارحوا بـلد ودان بثلاثة مراحل فدخلوا مجاهل الصحراء الشواسع وعرجت عن طريق الزيقر .



سيف النصر

ترجمة سف النصر :

ولنترجم للشيخ سيف النصر طبق ما استطلعته من اخباره. هو سيف النصر ابن عبد الجليل ابن سيف النصر كان جده حاكماً على عموم فزان ثم توفي جده واستولى بعده ابنه عبد الجليل فثار هذا الرجل على الترك وحاربهم حروباً كثيرة عدة سنين فكسر لهم احالاً عديدة ايام يوسف باشا امير طرابلس ثم ظفرت الترك بوسائط من عيون الأعراب المعادين له فقتلوه غدراً واتوا براسه[1] الى طرابلس ولم يبق من ذريته الا صاحب الترجمة ، فمكث مع ابناء عمه في اعماق الفيافي والقفار الى ان كبر سنه وكانت له نباهة تامة وشجاعة وكرم حاتمي.

فاتبعه عرشه وكثير من العروش الرحالة. وفي بعض السنين غزا عرش الحسون من رعايا الترك فأخذ منهم ما يقرب من ألف جمل ولما طلبته الحكومة الطرابلسية في رد ما أخذه فر إلى دواخل الصحراء والحكومة متحيرة منه حتى أنها وعدت بمليون فرنك لمن يأتي برأسه ومن هاته القبيلة من يقصد في كل عام بلد غات ومرزق والقاطرون للمتجر وليمتاروا منها ولهم أبناء عم كثيرون في بلاد نواحي كانم من السودان.

---

(١) كان ذلك حوالي عام ١٢٥٨ هـ - ١٨٤١م. وللقنصل الانكليزي الكولونيل وارنتجنون يد في تدبير القبض على عبد الجليل والايقاع به حتى وقع في يد الاتراك وما زالت حركات غومة وعبد الجليل سيف النصر في حاجة إلى دراسة باعتبارها حركات انتفاضية تحررية ! .

لغة عرش تمامة :

اما لغتهم فهي اللغة العربية الصرفة ويدخلها بعض تحريف قليل سمعت بعض صعاليكهم يحدو بصوت مطرب بكلام عربي قديم مغرب :

ارحها فقد ابلى السنابك وخدها   واتعبها غور الفلاة ونجدهـــا

فقلت له : هل من قائل هذا البيت . وهل حي قائله او ميت ؟ فقال لي: ما صورته بحروفه حفظته عن والدي منذ كنت يافعاً . وقليل منهم من يعـــرف القراءة والكتابة وكثيراً ما كنت أُداعبهم وأُنشدهم الأشعار العربية فيفهمونهـا ويطربون لها سجية، وفيهم من يقول الشعر سليقة إلا أن غالبه غير موزون كقول بعضهم يخاطب ناقته :

سير على مهلك يا ناقتي الغرا   واقطعي ما حاط بالكفرا

الكفرة واحة من واحات الصحراء الشرقية تحيط بها فلاة من الأرض بساط مجهل لا ماء فيه ولا مرعى مسيرة عشرة أيام من كل جهة وهي الواحة التي هجر إليها الشيخ الاكبر سيدي محمد المهدي تغمده الله برحمته وأسكنه فسيح جنته .

تعظيم عرش التمأمة لنسائهم :

ولهم تعظيم كبير لنسائهم مسدولة عليهم آمة الحجاب ولا يمكن ان يرى اجنبي عنهن ولو ظفر منهن . يركن الهوادج في الخدود الملتفة بالملاحف المصبغة ذات الالوان المختلطة :

يطرزها قوس السحاب بأصفر   على اخضر في احمر اثر مبيض
كاذيال خود اقبلت في غلائـل   مصبغة والبعض اقصر من بعض

وفي يوم رحولهن ترى مناظر تلك الهوادج سائرة فوق بساط الارض كانهـا السفن الشارعة ذوات الأعلام المختلفة الألوان على متن البحر النائم موجه ومـا هي في التحقيق الا سفاين :

سفاين البر كم انجـا لراكبها   سفاين البحر كم فيها من الخطر

ومن العجيب ان الوانهن مع تعمقهن في الارض الحـارة هو البياض المشرب بسمرة يسرة تميل شيء يسير الى الحمرة ويغلب عليهن الحسن لا الجمال وغالبهن رشاق القدود ميس الاعطاف ضامرات الخصور . اختلس ناظري نظرة من محيا مصونة منهن عندما نادى الركب بالرحيل فحيرت اللب . وملكت القلب :

وذكرتني عهوداً كنت اعهدها   ما بين سقط اللوى والبان والعلم

واعطيت الحق لأبي الحسين المتنبي[1] رحمه الله تعالى في قوله :

من الجـآذر في زي الأعـاريب   حمر الحـلى والمطايا والجلابيب
سوائر ربمـا سارت هوادجها   منيعة بين مطعون ومضروب
وربمـا وخدت ايدي المطي بهـا   على نجيع من الفرسان مصبوب
قد وافقوا الوحش في سكنى مراتعها   وخالفوهـا بتقويض وتطنيب
مـا اوجه الحضر المستحسنات به   كاوجـه البـدويات الرعابيب
حسن الحضـارة مجـلوب بتطرية   وفي البداوة حسن غـير مجلوب
افدي ظباء فـلاة ما عرفن بهـا   مضغ الكلام ولا صقل الحواجيب
ولا برزن من الحمـام مـاثـلة   أوراكهـن صقيـلات العراقيب
ازورهم وسواد الليل يشفع لي   وانثنى وبياض الصبح يغري بي

فانظر الى هذه الابيات البديعة ، وتطبيق هـاته الابيات الشاهد الصدق على تفضيل نساء البادية على نساء الحضر يظهر الحق .

ومبدأ اراضيهم تبتعد عن طرابلس من جهة الشرق المائـل الى القبلة نحو شهر للاركاب .

---

(١) ابو الطيب المتنبي الشاعر العملاق كان مولده بالكوفة عام ٣٠٣ هـ وتجول بـين الشام ومصر وقتل عام ٣٥٤ هـ واسمه بالكامل - احمد بن الحسين بن الحسن الكندي الكوفي والقصيدة التي أشار اليها المؤلف نظمها المتنبي عام ٣٤٦ هـ بمدح كافور وهي من بدائع شعره الوصفي ويلاحظ أن المؤلف لم يسق من الابيات مرتبة بل قدم وأخر وتجارز بعض الابيات ولعله كان يسطرها من الذاكرة والقصيدة من ديوان المتنبي ص ١١٤ ج ١ طبعة عبد الرحمن البرقوقي .

ودان

وصف ودان وفتحها والتعريف بأهلها :

هذا البلد هو الآن من أعمال طرابلس الغرب تابع لمتصرفية فزان في التاريخ فناسب أن نذكره فنقول ان الفتح له في الاسلام عقبة بن نافع سنة ٤٢ﻫ (٦٢٢م) وفي يوم التاسع من ربيع الانور سنة ١٣١٢ ﻫ (٢٩ سبتمبر سنة ١٨٩٥) دخلت صباحاً الى ودان في رفقة من عرش التمامة المذكور فتلقتني اهل البلد بالفرح والسرور ونزلت بدار وجيه البلد السيد الأمين الشريف وهو بلد داير به النخل ادارة السوار بالمعظم وموقعها على رأس ربوة عالية تسمى المنارة وارضها رمال متراكمة بعضها على بعض . وماؤها حامض رديء مسهل للبطن . وغالب أهلها ان لم تقل جميعهم من الأشراف المعروفين بالشراف ودان يكرمون الأضياف ويحسنون للغرباء وكانت اعيانهم الاشراف لا تفارقني مدة اقامتي عندهم نخص منهم بالذكر .

وجهاء ودان :

السيد الامين ابن عبد المالك السيد عبد المالك بن عبد الهادي . كولان ابن عبد الله . محمد بن حسين بن أحمد. محمد بن عبد اللطيف . عبد اللطيف بن علي. الشيخ بوبكر بن احمد وهذا شيخ زاوية السنوسية وعندي له جواب خاص فزاد في اكرامي وهو رجل محب في أهل الادب الا ان نور بصره انتقل الى عيني بصيرته . الجميع أشراف وبناء البلد جميعه بالطين والتراب وسقوفه وابوابه

من جذوع النخيل وبين سوكنة وهاته البلد مرحلة . والجميع يطلق عليهم الجفرة بينها وبين طرابلس خمسة عشر يوماً بها جامع عظيم في رأس القارة طلبني بعض اعيانهم بأن اسرد عليهم شيئاً مما يتعلق بمولده صلى الله عليه وسلم وكانت معي المواهب[1] اللدنية فسردت عليهم شيئاً من هذا الكتاب بعد ان شرحت لهم قوله تعالى : انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا . وكان ذلك بعد صلاة الجمعة بالجامع المذكور في موكب لم يتخلف فيه انسان من أهل البلد وبعد ان فض الركب اثنوا علي بأجمعهم وفي الليل اجتمعنا بالزاوية السنوسية وقد أعدوا بها مبيتة حافلة تعظيماً بشأن المولد النبوي الشريف يقرأون القرآن العظيم وجانباً من الأحاديث النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام . ثم لما أردت السفر من هناك قاصداً بلد مرزق اشتروا لي جملين عظيمين من عند رجل اسمه علي بن زيد من عرش التمامة . أصحاب سيف النصر وكان المذكور قاصداً بلاد القاطرون ليمتار منها . وفي يوم سفري عندما ودعتهم وهم وقوفاً يودعونني تلوت لهم قصيدة لم يخطر عندي منها بمحفوظي إلا بعض أبيات مستهلها :

على معشر الأشراف من أهل ودان　　　سلام كنثر المسك من قلب ولهان

إلى أن قلت :

وقد طال مكثي سادتي برحابكم　　　فسرحوا ابن العم تسريح إحسان

ولما بلغت في سرد القصيدة إلى هذا البيت سمعت أحدهم يقول: واللهلم يطلياشيخ . ثم سرنا بسلام قاصدين جبل زاكم . واعلم أن هاته البلد ذكرها الكثير من المؤرخين كابن الشباط في شرحه على الشقراطسية والشيخ مقديش الصفاقيسي في

---

(١) المواهب اللدنية – تأليف الامام شهاب الدين ابن العباس احمد بن محمد القسطلاني المصري من علماء القرن التاسع توفي عام ٩٢٣ هـ وعنوان كتابه المواهب اللدنية بالمنح المحمدية – وهو من خيرة كتب السيرة النبوية كتبه في عشرة فصول ذكرى مولده ورضاعه ونشأته وغزواته وحياته الزوجية وكل ما يتعلق بحياته صلوات الله عليه فرغ من تأليفه في شهر شوال عام ٨٩٨ هـ.

تاريخه والادريسي وغيرهم . قال مقديش الصفاقسي : وودان هي آخر بلد عامر وما بعدها إلا القفار إلى الاسكندرية وفيه نظر .اهـ.ثم نرجع إلى ما هو المقصود مما يتعلق بالمملكة الطرابلسية قبل أن يذهب بنا القلم إلى ما يخرجنا عن المقصد المهم فنقول :



الطـــرق الصوفية

فصل في الطرق الصوفية الضاربة بالاعمال الطرابلسية :

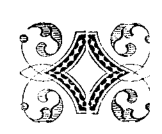
توجد عدة طرق صوفية منها الطريقة السنوسية وتسمى الطريقـة المحمدية . والسلامية . وهي العروسية . والمدنية . والزروقية . والتيجانية . والرحمانية . والقادرية . والشاذلية . والعيساوية . والطيبية .

وأكثرها انتشاراً هي السنوسية خصوصاً أهل الصحراء. لكن بلغني في هاته السنين الأخيرة أن الطريقة التيجانية زادت انتشاراً خصوصـــاً في واداي التي كانت كلها سنوسيين . ولنبدأ بالطريقة السنوسية وما يتعلق بها تفصيلاً من تاريخ حدوثها وترجمة صاحبهـا ونستكمل القول فيها حسبما أمكنني الاطـــلاع عليه مشافهة وسماعاً من الأعيان . وأذكر حياة نجلي شيخها الأكـــبر سيدي محمد السنوسي وهما سيدي محمد المهدي المشهور بالبـــدر وسيدي محمد الشريف تغمدهما الله بالرحمة والرضوان واسكنهما فسيح الخلد من دار رضوان مع بيان أهل الطريقة الاخوان ذوي الفصل والشأن وذكر علمـائهم ونبذة من أشعارهم الفائقة ومحاضراتهم الرائقة . وسيرتهم في الحياة الدنيا إلى غير ذلك . ولم أر من تكلم على هاته الطريقة الشريفة من الأعلام ومشايخ الاسـلام . ولا يخفى مناسبة ذكرها هنا قاصداً إفادة أهل التقوى والأعيان وعلى الله التكلان .

نسب السنوسي الكبير

التعريف بالشيخ الاكبر مؤسس الطريقة :

هو الشيخ سيدي محمد(١) بن علي(٢) . بن السنوسي (٣) . الحسني الخطابي الادريسي بن العربي(٤) . ابن محمد(٥) . ابن عبد العزيز(٦) . المشهور بالشجاع ابن شهيدة(٧) . بن محمد(٨) بن يوسف(٩) . ابن عبد الله(١٠) المشهور بالإمام واستولى القطابة . بن الخطاب(١١) بن علي(١٢) منجد الغرقا ابن يحيى(١٣) . ابن راشد(١٤) .ابن احمد(١٥) المرابط. ابن منداس(١٦) ذي الفضل ابن عبد القوي (١٧) . ابن عبد الرحمن(١٨) . ابن يوسف(١٩) المشهور بالقصب المهند. ابن زيان(٢٠) كان يستسقى به الغمام عند المحل. ابن زين(٢١) العبادة. ابن يوسف(٢٢) ابن الحسن(٢٣). ابن ادريس(٢٤) ابن الخليل(٢٥) المشهور بجود الجود . ابن عبد الإله (٢٦) . بن احمد(٢٧) . بن محمد(٢٨) . بن عبد(٢٩) الإله بن حمزة(٣٠) . بن علي (٣١). بن عمران(٣٢). ابن ادريس(٣٣) . بن عبد الاله(٣٤) بن حسن(٣٥) المثني . ابن الحسن(٣٦) السبط . ابن فاطمة(٣٧) البتول الزهراء. ابنة(٣٨) رسول الله صلى الله عليه وسلم .



قصيدة في نسب السنوسي الكبير

القصيـــدة المسماة بسلسلة الذهب تتضمن جـــدود الشيخ سيدي محمد السنوسي صاحب الطريقة :

وللمرحوم المنعم العلامة الشيخ سيدي محمد[1] عبد الرحيم بن احمد شيخ زاوية بنغازي السنوسية قصيدة لطيفة سماها سلسلة الذهب الشريفة . وشجرة النفس الحنيفة . تتضمن ذكر النسب المذكور الى رسول الله صلى الله عليه وسلم. وجعلها على سبيل التوسل والاستنجاد الى الله بنسبه الشريف وهي مما جربت فصحت لقضاء المضطرين كم توسلت بها الى الله وقضى الله حوائجي ونصها بحروفها :

حمـدا لرب باسط النعماء	مجري السحاب وكاشف الظلماء
وكذاك شكرا لا يزال مسرمدا	متجـدداً بتجـــدد الآلاء
وصلاتـه تغشى النـبي محمـدا	بـدر الظلام مزيل كل عنـاء
والآل والصحب الألى اعلنوا	دين النـبي بغـارة شعـواء
وبعد ربي إنـني لـك ضارع	متضرع في حسن نيـل رجاء
متوسل في حـــل كل عويصـة	قـد اعضلت بالصفوة النجباء
بمحمد محيي الحقيقـة غوثنـا	مولى العـلوم وناصر السمحاء
وباصله المـــولى علي كم لـه	من همـــة تسمو على الجوزاء

(١) توفي في مدينة بنغازي ١٣٠٥ هـ - ١٨٨٧ م .

وبأصله الحبر السنوسي الذي　　اضحت معارفه كنوز ذكاء
وبأصله العربي من شهدت لـه　　أقرانه بالسبق في الهيجـاء
وبأصله المولى محمد الذي　　حمد السرى فارتاح بالاضواء
وبأصله عبد العزيز فباله　　من ضيغم ذي رتبة شماء
وبأصله المولى شهيدة انه　　لشهيدة فاقت بطيب ذكاء
وبأصله عمر الذي بمحامد　　حمدت مزاياه لدى الفقراء
وبيوسف الحبر السميع اصله　　من قد ربي في مربع العلياء
وبأصله عبد الله امامهم　　قطب الورى متوارث الابناء
وبأصله الخطاب كم خطب عدا　　فأزاحه رغما على الاعطاء
وبذي أهل المولى علي أصله　　حاوي المكارم منجد الغرباء
وبأصله يحيى الذي احيا اندى　　قد مات من كرم وحسن ثناء
وبأصله ذو مرشد راشد دصره　　كم قد شفا من مقلة عمياء
وبأصله المولى المرابط أحمد　　اكرم بـه من ناسك بكاء
وبأصله منداس ذي الفضل لذي　　لم يحكه طود على القراء
وبأصله عبد القوي الذي همـا　　بين الانام بسيرة حسناء
وبعابد الرحمن دوما أصله　　عطر الشذا ذي الراحة الشمّاء
وبيوسف القضب المهنّد أصله　　حامي الزمان وذايد البؤساء
وبأصله زيان من زان اعلا　　بعد المحول بدعوة غراء
وبأصله زين العبادة مز اذا　　يتلي المثان لان ذوى الصفواء
وببوسف الشهم الغضنفي أصله　　عند الندى ذي الحلم والأفضاء
وبأصله الحسن الذي ما شأنه　　الا اقتداء محاسن الآباء
وبأصله ادريس من درست به　　رغم الحسود مظالم الشغواء
وبأصله المولى سليمان الذي　　كان الثبات لمزع الدهياء
وبأصله الخليل جود الجود من　　جوده غارت يد الانواء
وبأصله عبد لإله من اهتدى　　بهدى سناه شواسع الانداء

وبأصله سامي المكانة احمد زين المـــلا ذي القامة الهيفاء
وبأصله المـولى محمد الذي نشرت ثناه شوافع الورقـاء
وبأصله عبد الاله من امتطى صهوات مجــد من سناً وسناء
وبحمزة نامي العـوارف اصـله منمي الرياض بزهر كل عــلاء
وبأصـله المـــولى علي كم الى أوج المكارم قـد عـلا بولاء
وبأصله عمران عامر غربنـا وفلايك الاقمـار في الظلمــاء
وبأصله ادريس شمس الغرب سولان السـرى منـــاط كل بهـــاء
وبأصله عبد الاله الكامـل الأ خلاق مـولى القـادة الفضلاء
وبأصله الحسن المثنى من غدت انواره فمحت دجى الاهـــواء
وباكبر السبطين اكمل طايع غمر الحمى مع منتهى الانحاء
وبأكرمي زوجين حيدرة العلا ثم البتـــول الـــبرة الزهراء
وبمنبع الشرف الأصيل محمد خـير الأنـام وملجيء الضعفاء
مصباح عين الحق خير من اصطفا ه الله من عجـــم ومن عـــرباء
صلى عليه الله في ملاء الرضى مــا حن شوقاً مغرم الاحشاء

انتهى



ترجمة الاستاذ محمد بن علي السنوسي

أصل الشيخ السنوسي :

اما أصل الشيخ سيدي محمد السنوسي فمن أرض الجزائر من مدينة مستغانم من قبيلة الخطاطبة وجده سيدي عبدالله الخطاب من مشاهير عصره .

رحلته لفاس وقراءته ومشايخه :

رحل الشيخ سيدي محمد السنوسي لمدينة فاس لأخذ العلوم العالية بعد أن حفظ القرآن العظيم وجوّده بالسبع وحصل على مبادىء العلوم العقلية والنقلية وسنه إذ ذاك ثمانية عشر سنة وكان ارتحاله لفاس في حدود سنة ١٢٢٩ هـ (١٨١٣ م) .

فانكب رحمه الله على القراءة والتحصيل والمطالعة واخذ عن الشيوخ الأكابر الأعلام المشاهير كالغوث سيدي أحمد بن سالم التيجاني رضي الله عنه ، وغيره من أكابر الصالحين ومن مشايخه سيدي احمد بن إدريس . وسيدي أبي العباس العراشي . وسيدي محمد بن عبد الغفور السندي . وسيدي عبدالله المنياوي . وسيدي عبدالله شاه القادري الملقب برئيس الخلفاء. وسيدي محمد بتاني. والشيخ ابو الوفا الهندي وغيرهم . ولما بلغ المرتبة العليا في سائر العلوم خصوصاً تبحره في علم الحديث والأصلين التوحيد و لأصول والفقه كما تشهد له مؤلفاته =

ذهاب الشيخ الى الحج :

= قصد حج بيت الله الحرام وزيارة القبر الشريف على صاحبه أكمل الصلاة

والسلام في سنة ١٢٤٥ هـ (١٨٢٩ م) من جهة وطن الجريد ولم يدخل مدينة تونس، ويقال إنه دخل جزيرة جربة لأن مروره كان على قابس . ولما سافر الشيخ سيدي ابراهيم الرياحي إلى الحج اجتمع به في مكة المشرفة ولما أقام بمكة بنا بها زاويته المشهورة رضي الله عنه ، أنه لما شرع في بناء هذه الزاوية =

بناء زاويته بمكة وظهور كرامة له مع شريف مكة .

= بعث له شريف مكة يقول له انك أسأت الأدب مع الله ورسوله وينبغي لك أن تهدم ما بنيته لأنه لا ينبغي أن يعلو بناء على بيت الله. فقال الشيخ للشريف: إنني مأذون في بنائها. ثم إن الشريف رأى في منامه تلك الليلة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول له: (يا بني إن رب العزة أذن في بنائها فأذن محمد السنوسي في بنائها). ومن هاته الزاوية انتشرت الطريقة السنوسية وتمهدت خصوصاً ما بين مكة والمدينة .

قول الشيخ بيرم في انتشار الطريقة السنوسية في الحجاز :

ومما يؤيد ذلك ما حكاه الشيخ بيرم في رحلته (صفوة الاعتبار [١] في مستودع الأقطار والأمصار) في آخر الجزء الخامس منها قوله:

اعلم أن وطن الحجاز الذي هو منبع الدين المحمدي وأرض الوحي ومحل بيت ذي الجلال والاكرام قد تدفقت عليه سحب الجهل وأمسى في ظلمات من البغي والنفاق والسلب والنهب حتى تعطل حج بيت الله الحرام وزيارة القبر الشريف لعتو أرباب الجور إلى أن تدارك الله تعالى بانتشار الطريقة السنوسية في أصقاعه وبناء زوايا في أنحائه ترشد إلى طريق الشريعة المطهرة وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتبث مبادىء علم الشريعة فبسبب ذلك زالت سطوة الجهل إذ انقشعت سحب الخوف وأمنت السبل وسلكت الخلائق مسلك الارشاد إلى طريق الله ورسوله وصدت الناس عن فعل المحرمات والبغي. ولا زالت هذه

---

(١) طبع بالقاهرة بمطبعة الاعلامية عام ١٣٠٢ هـ. ١٨٨٥ م .

الطريقة تنتشر في بساط الأرض حتى عمت سائر أنحاء اليمن والعراق والحجاز ومن هناك ازدادت في الانتشار .

رجوع الشيخ من الحرمين الى الجبل الاخضر :

وبعد أن أقام الشيخ مدة بالحجاز صدر له الإذن الالهي بانتقـــاله إلى الجبل الأخضر من وطن درنه وبنغازي يمهد به السبل كما فعل في الحجاز فأقام عامـين في مكان يقال له تمسة =

ارتحاله إلى جغبوب وبناء زاويته التي هي أم الزوايا :

=ثم منها ارتحل إلى جغبوب فبنا بها زاويته المشهورة وهي أم الزوايا السنوسية ومنبع سر الطريقة ومحل ضريحه الشريف كما سيأتي في ترجمتها إن شاء الله .

مروره على مصر ودخوله الأزهر :

وبعدما رجع من الحجاز قاصداً المكان المذكور مر على مصر ودخل الجـامع الأزهر وكان طافحاً بدروس العلم فنظر إليه أحد المدرسين فقام من حينه قائلاً : انصتوا أيها العلماء، لقد حل بين أظاركم عالم الأمة المحمدية ونبراس الشريعة المطهرة وشمس سماء المعارف الإلهية .

إذا صلصل الباز فلا ديك صارخ ولا فاخت في أيكه يترنم

ألا وهو الشيخ الكامل سيدي محمد بن علي السنوسي الحسني الادريسي فارتج الجامع الأزهر بعلمائه ولم يمكث الشيخ بمصر إلا مدة قليلة ثم سافر .

الجغبوب

التعريف بجغبوب :

جغبوب بلاد بينها وبين بنغازي مسيرة خمسة عشر يوماً من الجهة القبلية المائلة الى الغرب ذات نخيل ومياه ، ومن هاته البلد انتشرت الطريقة السنوسية بوطن طرابلس ودرنه وبنغازي والجبل الاخضر وفزان وغات ووادای وتبو وكاوار والصحراء الشرقية والوسطى والسودان وغيره . وصارت جغبوب مناخ العلوم ومنبع القرآن العظيم . وموقعها في هضاب مع انخفاض وارضها صلبة بحيث من يريد حفر بئر فيها فلا يمكن له ذلك الا بلغم البارود وفيه آبار كثيرة وفيه آثار وعين ماء مجلوبة وبها بعض الغلال والبقول وغالب ثمرها التمر لكنه غير جيد .

خزانة كتب جغبوب :

اما الكتب الموجودة بخزائنها فقد نيفت على[1] الثمانية آلاف مجلد من تفاسير

---

(١) مكتبة الجغبوب من حسنات السيد محمد بن علي السنوسي وكانت من أهم المكتبات القيمة في الشمال الأفريقي جعل لها نساخاً وقيمين وارسل الى البلدان والاقطار من يجلب له الكتب..ثم غزا الاستعمار الطلياني أراضي ليبيا وزحفت القوات الفاشية واحتلت واحة جغبوب في رجب ١٣٤٦ هـ - عام ١٩٢٦ م وعبثت قوات الاستعمار بهاته المكتبة ثم بقية منها حملت إلى واحة الكفرة في الحرب العالمية الثانية وتعرضت لغارات عنيفة واحرق الكثير ثم بقيت منهـا بقية يسيرة وما تزال الآن في جامعة محمد بن علي السنوسي ولكن الأهم والأكثرية قيمة سرقته أيـدي ايطالية وضاع في كوارث ليبيا المسلمة العربية .

وأحاديث واصول وتوحيد وفقه، وغير ذلك من كتب العلوم المعقولة والعلوم الطبيعية وغير ذلك . ولا يطبع كتاب في العالم باللغة العربية الا ويبحثون عنه ويظفرون به فيوجد عندهم ديوان العلامة الشاعر المفلق الشيخ سيدي محمود قابادو الشريف التونسي . وتاريخ الشاعر الاديب الشيخ سيدي محمد الباجي المسعودي التونسي .

علمـــاء الجغبوب

علماء جغبوب :

ومن أُدباء هذا البلد من يحفظ عشرة آلاف بيت من الشعر الرقيق، ومن علمائه البحر الزاخر العلامة سيدي احمد الريفي كبيرهم وقدوتهم وهو تلميـــذ الشيخ الأكبر صاحب الطريقة الشيخ محمد السنوسي وهو شيخ أبنائه سيدي محمد المهدي وسيدي الشريف؛ يقال إن هذا لرجل يحفظ ما يقرب من عشرين ألف حديث. ومنهم سيدي الفالح [1] أديب زمانه وعالم عصره وأوانه ، وهذا الرجل كان في حدود سنة ١٣١٢ هـ الموافق (١٨٩٤ م) ضيفاً كريماً عند أمير المؤمنين السلطان عبد الحميد وسيأتيك سبب هاته الضيـــافة . ومنهم الشيخ سيدي هاشم مؤدب سيدي المهدي وسيدي الشريف في القرآن العظيم ،أصله من بلدة صفاقس ومنهم

---

(١) الاديب العالم فالح الظاهري من أكبر الاساتذة في مدرسة الجغبوب ومن رواد الاخوان الأوائل وهو محمد فالح بن محمد عبدالله بن فالح الظاهري - من أهل المدينة المنورة صحب الاستاذ السيد محمد بن السنوسي الكبير وله في ليبيا آثار علمية وتلامذة. ولد عام ١٢٥٨هـ وتوفي ١٣٢٨هـ الموافق - ١٨٤٢ م ١٩١٠ م ومن مؤلفات ظاهر : انجح المساعي في الجمع بين صفتي السامع والداعي . في الفقه - وصحائف العامل بالشرع الكامل ومقطوعة في مصطلح الحديث - وكتاب آخر مهم ما زال مخطوطاً وهو شيم البارق في ديم المهارق . ويبدو انـــه على منوال الفهارس والمجاميع وله كتاب حسن الوفا وقد علق على كتابه النائب « المنهل العـــذب » عندما كان في اسطامبول . وللشيخ فالح حواشي على البخاري والموطأ .

سيدي احمد السني عالم جليل أرسله سيدي محمد المهدي في هاته السنين الأخـيرة إلى السودان وأصله من الغرب يقصد الراحة في بعض القبائل وبيت الطريقـــة هنالك سنة ١٣١٤ هـ (١٨٩٦ م) كان رابح المتسلط علي برنوا في خوف منه . ومنهم سيدي محمد البسكري أصله من بسكرة الجزائر وهو بمثابة وزير سيدي محمد المهدي شيخ الزاوية وصـــاحب مشورته . ومنهم الشيخ سيدي محمد التواتي . أصله من توات على يده جميع الصادرات والواردات من الأجوبة وهؤلاء كلهم أطواد في سائر العلوم النقلية والعقلية خصوصـــاً في التفسير . ومن أكابر تلاميذ الشيخ الأكبرصاحب الطريقة العلامة النحرير الأديب الشيخ سيدي محمد حيدرة الهوني أصله من بلد هون وشيخ زاويتهـــا وله باع عظيم في المحاضرات ويحفظ آلافاً من الشعر الرقيق اجتمعت بحضرته الشريفة بزاوية « الطليمون » عندما كنت راجعاً من جغبوب الى بلد بنغازي متوجهاً الى هون فقضينا ليلة كاملة في المحاضرات والتاريخ وختمنا بمساجلة شعرية دامت بيننا ساعة كاملة وهو في غاية الفصاحة واللطافة ووفور الأدب وحفظ الشعر الرقيق على عادة السنوسيين الا ان سنه اذ ذاك يناهز السبعين .

قدوم الشيخ الى وطن بنغازي :

ثم نرجع الى ترجمة الشيخ فنقول ان الشيخ سيدي محمد السنوسي قدم الى وطن بنغازي مرتين مرة قبل ذهابه الى الحج وذلك عند اتيانه من المغرب على طريق قابس فنزل «بالبيضاء» وبنا بها زاوية . ثم ذهب من هناك الى الحج واقام بأرض الحجاز مدة ثم اتى من الحجاز على طريق مصر الى وطن درنه وبنغازي فنزل بتمسة والعزلان ومكث هناك عامين .

ارتحالة الى جغبوب ووفاته :

ثم ارتحل الى جغبوب فاقام بها اربعة سنين ثم انتقل الى عفو الله ورحمته عن سن الخمسة وسبعين سنة فكان رحمه الله من المجددين على رأس المائة الثالثه عشر

كما قاله صاحب كتابه (خزينة[1] الاسرار) واخذ عنه بمكة وله رضي الله عنه كرامات لا تحصى افردت بالتأليف .

كرامات للشيخ :

منها انه لما كان قادماً من المغرب الى الحجاز على طريق قابس من أعمال تونس نزل بحي من احياء العرب لم يظهر الشيخ انه من العلماء وليس معه الا أربعة انفار فاكرم نزله رب الحي المذكور لما رأى عليه من المهابة الألاهية فلما اراد المسير من عنده اهداه رب المكان بغلته ليركبها بالطريق فأخذها الشيخ من عنده ولما ركبها في اليوم الأول من سفره عثرت به فسقط من أعلاها وانكسرت بسبب ذلك ذراعه الأيمن ومن حينه رجع إلى رب الحي المذكور فتلقاه مذعوراً وفي الحال أحضر له اناساً عالمين بجبر الكسر جبر الله كسره فطفقوا يعالجون الشيخ بمطارق من الحديد تحمى في النار ثم تجعل على محل الألم ومع ذلك فإن النار لم تؤثر في ذراعه رضي الله عنه فتعجب الناس من ذلك وعرفوا فضله . ومن هناك أخذ الشيخ في الاشتهار . ومن كراماته أن ضريحه الشريف لم يخل قط ولو لحظة واحدة من تلاوة القرآن العظيم وعلى ضريحه تابوت برداء من الحرير منقوش عليها آيات من القرآن العظيم وفوق القبر لوح به بيتان من الشعر نصهما :

هذا الحمى روضة بالفضل منظورة   صارت بنجل رسول الله مشهورة
سرت بسوسنا المهـــدي أرخه   على السنوسي شمير اليمن مقصورة

---

(١) خزينة الأسرار كتاب من تأليف الحاج محمد بن علي ابراهيم النازللي الكوز لحصـــاري المتوفى عام ١٣٠١ هـ-١٨٨٣ م - وله كتاب أحكام المذاهب ايضاح المكنون ج ١ للبغدادي اسماعيل ص ٣٦ - ٤٢٩ - .

وفاة الشيخ السنوسي :

وفي سنة ١٢٧٦ هـ (١٨٦٩م) من شهر محرم الحرام[١] انتقل الشيخ إلى الدار الآخرة فاهتزت اوطان الصحراء لحادث مصابه وقد رثاه الشعراء منهـــا مرثية جليلة يأتي شيء منها ومن عجيب الاتفاق أن خسف البدر ليلة موته وظهرت أنجم لها أذناب عظيمة زعم بعض العالمين بعلوم الحدثان أن ذلك يقع عند موت عالم على قدم الصحابة .

تآليف الشيخ :

وله رضي الله عنه عدة تآليف في علوم مفيدة فله كتاب بغية المقــاصد في الاصول وطرق الاجتهاد، وهو كتاب جليل القدر لم يؤلف مثله في بابه وكتاب السلسبيل المعــين في الطرائق الأربعين . وكتاب في كيفية [٢] العمــل بالحديث والقرآن وكتاب في طرق أسانيده ، وله تكملة على كتاب موضوعـــات العلوم للشيخ سيدي محيي الدين ابن العربي زاد عليه في عشرين علماً ، وله تفسير جليل للقرآن العظيم سماه (الإرشاد) وله شرح عظيم الفائدة على مختصر خليل لان الشيخ مالكي المذهب لا كما تزعمه بعض الناس من أن الشيخ مجتهد لا مذهب له ،

---

(١) هكذا يشير الرحالة الحشائشي الى وفاة السيد محمد بن علي السنوسي الكبير مع ان المعروف الثابت ان وفـــاة الاستاذ كانت ٩ صفر وعلى هـــذا تجري الى الان مهرجانات ذكرى الاستاذ العربي الفاضل .

(٢) يقصد الرحالة كتاب « ايقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقرآن وقد طبع بالقاهرة » ومن مؤلفات الاستاذ السنوسي الكبير ايضاً :

* المسائل العشر المسمى « البغية » وقد طبع على هامشه الجليل المعين .
* الدرة السنية في اخبار السلالة الادريسية .
* المنهل الرائق في اساليب العلوم والطرائق .
* الشموس الشارقـــة في اسماء مشايخ المشارقة والمغـــاربة ورسالة في فن الحديث النبوي وغير ذلك .

فكان يقول رحمه الله أن أحب شيء إلي بعد الله ورسوله وخلفائه الراشدين الإمام مالك ابن أنس وقيل إنه كان يعمل بالقرآن والحديث ولا يقلد مذهباً .

ارسال الشيخ بعض تلاميذه الى اسلانبول في أمر بعض زواياه التي تعمل بطرابلس :

ومن جهة بركاته ما حدثني به العلامة النحرير الشيخ سيدي محمد حيدرة الهوني أحد تلامذته وهو شيخ زاوية بلد هون السنوسية أن جناب الشيخ الأكبر حدثته نفسه يوماً أن يرسل إلى حضرة أمير المؤمنين ببلد اسلانبول[1] ليزيل الأداء الميري الموظف على عقارات زو ياه بأعمال طرابلس وبنغازي فبينما هو جالس يوماً مع الشيخ سيدي عبد الرحيم والشيخ سيدي محمد إذ قال لهما إني عازم على إرسال بعض تلاميذي إلى السلطان في الإعفاء المذكور ويقصد الشيخ في نفسه أن يذهب الشيخ سيدي عبد الرحيم إلى الآستانة في هذا الشأن؛ فالتفت الشيخ محمد قائلاً : انا يا سيدي نذهب لذلك. فسكت الشيخ لأنه لم يرد ذهابه فسافر الشيخ محمد في حينه من غير علم الشيخ به فلما وصل إلى طرابلس ساقته مقادير الله تعالى إلى الاجتماع بالباشا فحكى له مطلب الشيخ فوافقه الباشا على ذلك ، ثم اشترى الشيخ محمد ستة روس من العبيد وركب بهم البحر على طريق مالطا قاصداً دار الخلافة وقد أسبل الله ستره على العبيد من صولة الانكليز القائم بمنع الرق إلى أن بلغ الاستانة سالماً اباعهم بجانب وافر من المال واستعمل الوسائل اللازمة في مقابلة السلطان ولكن لم يتيسر له مقابلته فمكث بالآستانة يقري العلم الشريف مدة ثلاثة سنين ولما كان سفر الشيخ محمد المذكور بغير علم أستاذه أمر الشيخ الاستاذ تلميذه سيدي عبد الرحيم بالسفر فقصد الاستانة في حينه وذلك سنة ١٢٧٣ هـ ١٨٥٦ م فلما بلغ إليها اجتمع بالشيخ محمد فوجده يقري العلم الشريف فاستعملا الوسائل اللازمة لمقابلة السلطان فلم يمكن لغلظ الحجاب في ذلك العصر إلى أن أراد الله بإتيان باشا طرابلس إلى إسلانبول فوجدهما لم يقابلا أمير المؤمنين فوعدهما بمقابلته وكان له منزلة عظيمة عند السلطان .

---

(١) هكذا كانت تكتب اسطامبول في بعض الكتب والمراجع .

امتحان تلميذي الشيخ باسلانبول :

ولما اجتمع الباشا بحضرة السلطان قال له ان هناك عالمين جليلين من علماء المسلمين بعثهما إنسان يقال لهمحمد علي السنوسي صاحب خيرات يهتدي به العباد إلى طريق الله ورسوله وصاحب كرامات ونوه بشأن الشيخوهما يريدان الاجتماع بمولانا عز نصره ويطلبان منه إزالة الأداء على عقارات زواياه بالأوطان الطرابلسية . فقال السلطان : لا أقبل منهما هذا إلا بعد أن نجمع لهما مجلساً. فأمر السلطان بجمع مجلس من كبار علماء الآستانة وغيرها فاقترحوا عليهما أن يقرأ كل منهما درساً في قوله تعالى (طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى)الآية؛ فقرأ كل واحد منهما درساً في معنى الآية الشريفة أتى فيه بالعجب العجاب فشهدت لهما العلماء بالباع المديد وفي الحين أصدر لهما الفرمان الشاهاني في إعفاء الأداء على جميع عقارات زوايا الشيخ السنوسي. انتهى . ولما سار الشيخ إلى عفو الله وسعة رحمته وفدت عليه المراثي من جميع الأقطار منها مرثية الشيخ سيدي[1] عبد الرحيم تضمنت جميع الحوادث التي وقعت لموته مستهلها :

مراثي الشيخ الاكبر :

ما بال عينيك لا بالنوم تكتحل	ولا تزال بفيض الدمع تنهمل
كأنما سملت بأسواك أو كحلت	من الغضا بشواظ كان يشتعل

وهي طويلة تحتوي على مئتي بيت ضمنها عدة كرامات فهي روضة من الأدب يانعة الثمار وحيث كانت مدائحه سنفرد لها رسالة خاصة إن شاء الله أضيفها لتلك الرسالة وقد ترك بعد موته ابنين احدهما الشيخ سيدي محمد المهدي المشهور بالبدر والآخر الشيخ سيدي محمد الشريف .

---

(١) هو الاستاذ الشاعر — عبد الرحيم المغبوب .

السيد محمد المهدي

فصل في ترجمة الشيخ المهدي :

هو العلامة الاكمل الثقة الفاضل النحرير المربي مولانا سيدي محمد المهدي ويلقب بالبدر لجماله واشتهاره في العالم الارضي واهتداء الناس به رضي الله عنه . ولادته سنة ١٢٦٠هـ (١٨٤٤م) بالمكان المعروف بالزاوية البيضا من الجبل الاخضر من عمل درنة في حقب محل بقرب الزاوية المذكورة فكان في مهده مهديا جمع القرآن وحفظ المتون في حجر والده صبياً ثم اشتغل بالعلم على الاستاذ سيدي محمد الريفي وغيره من الفحول اكابر تلاميذ والده وارتشف كاسات الاسرار الربانية عن ابيه . يحكى عنه ان حضرة والده كان يقبل كفه لما سيكون له من عظيم الشأن والجاه عند الله والعباد فحاز قصب السبق في كل مضمار وظهرت عليه لوائح الخصوصية الإلاهية في كل حلبة كالشمس في رابعة النهار وولي مشيخة الزاوية الكبرى التي هي أم الزوايا بعد أبيه وصار صاحب المشورة واليه تساق الرحال . توفي رحمه الله بعد تمام سياحتي الصحراوية فيما بلغني عن أهالي غدامس الثقاة سنة ١٣١٩ هـ[١] (١٩٠١ م) والله اعلم بذلك وتولى المشيخة الكبرى بعد ابن اخيه سيدي الشريف .

ترجمة الشيخ سيدي محمد الشريف

هو العلامة النحرير المشهور بالتقارير والتحارير . له ذكاء مفرط وقدم راسخ

---

(١) ولكن السيد المهدي رحمات الله عليه اشار الى تاريخ وفاته السيد احمد الشريف في — الدرة الفريدة — بأنه يوم الاحد ٢٤ صفر سنة ١٣٢٠ هـ لاكما اشار الحشائشي .

في المنقول والمعقول كانت ولادته بعد أخيه سيدي المهدي بسنتين سنة ١٢٦٣ ﻫ في ٢٧ من شهر رمضان الموافق ٧ سبتمبر سنة (١٨٤٧ م) ليـلة القدر على ما قيل وهي الليلة التي ازداد فيها كما ستعرفه، جمع القرآن في حياته والده . وحفظ المتون العلمية ثم تجرد لطلب العلم وكثرة المطالعة فظهرت براعته واشتهر علمه وفضله .

وفـــاته :

وفي ليلة السابع والعشرين من رمضان المعظم سنة ١٣١٢ﻫ ٢٤ مارس ١٨٩٥م اختطفته يد المنية عن سن احدى وخمسين سنة بسبب داء الخناق اسبل الله عليه سرادق الرحمة . ودفن مع والده بقبر واحد وقد رثاه اديب زمانه [بقصيدة[1]] تفتت القلوب القاسية وتميـد الجبال الراسية وهو العلامة الاديب سيدي محمد بوسيف احد تلامذة والده ولحسنها واسلوبها العجيب اثبتها في هـذا التاريخ افادة لاهل الادب ولمن تروقه لغة العرب .

قصيدة في السيد الشريف

مرثية سيدي بوسيف في سيدي الشريف مستهلها :

س	سرنا بنعشك خضع الاعناق	سيراً دوين العدو والأعناق
ي	يا خير محمول لأعلى جنة	ولحورها يلقينه بعنـاق
د	داء اصاب المكرمات فغالها	واغتال روح مكارم الأخلاق
ي	يجري على وفق القضا حتماً فلا	تبقى مواضيه على الأرماق
و	والدهر يعتام الأخاير والردى	يعتاد نهب نفائس الاعلاق

(١) لاتوجـــد في الأصل كلمة قصيدة ولكن سياق الوصف يناسب كلمة مرثية أو قصيدة قبل كلمة تفتت القلوب ، فليلاحظ .

م ما ضرّه لو أن صارم صرفه ابقاك للعافين والطراق
و والعلم والحلم الذي شمخت به افاق جغبوب على الآفاق
ل لكنه لا ينتهي عن قصده بتطبّب أورقية من راق
أ أودى الشريف ابن الشريف محمد من للمعالي بعده من راق ؟
ي يا جامعاً أصل العلوم وفرعها جمعاً لمن ناواك غير مطاق
أ انت الإمام لكل من أم الهدى والدين بالأجماع والأصفاق
ل لك كنز معارف وعوارف تحت الصفائح محكم الاطباق
س سرٌ ثوى في روضة موشية وشي الربا غب الحيا الغيداق
ي يا ثاويا مع أصله في لحده هذا قران السعد في الأعماق
د دار حوت أصل المكارم والعلا مع فرعه شبت على الأطواق
م ما تلك جنة قد زخرفت ورثت يا مولاي باستحقاق
ح حزت النعيم بها وكنت منعماً والله يمنحك النعيم الباقي
م ماعذر من ينعاك إذ لم يرتشف كأس الردى من دمعه المهراق
د دمع من العين منها مرسل تهمى بذاك قريحة الآماق
أ إن قصرت يوماً فإن قلوبنا أسرى لفقدك في آشد وثاق
ل لو كان يفدى الميت با.ر كلنا يفديك بالآجال والأرزاق
ش شرفت ياجغبوب حقبا بالذي أعلى منارك بالثناء الباقي
ر روت اليك وجوه آمال الورى عطشاً لورد نواك الدفاق
ي يسعى لأرضك كل جلب مملق فيثاب بالآداب والأرماق
ف فازت رجال بأحتلال رياضه ورياضه الخلد النعيم الراقى
ر راضى الأنام بعلمه وبحلمه فتقدموا في حلبة الأسباق
ض ضار إذا ما ربته في دينه أو رمت نقض العهد والميثاق
ي ياصفة صفوة يا شبل صبراً على ريب الزمان وخطبة الفراق
أ إن المنايا غاية ما دونها من ناصر كلا ولا من واقي
لا لا تخطىء الأحيا سهام حتوفها من فاته هذا فذاك يلاقي

ل   لكن إذا كان المصير لجنة   كمصير سيدنا على الإطلاق
ه   هان المصاب به وإن دك القوى   وجرت مدامع بالدم الرقراق
ع   علمي بأنه لاحق بمحمد   واري أوار لواعج الأشراق
ن   نوحي عليه توجعاً وتفجعاً   لمبرح قد ضاق عنه نطاقي
ه   هم همى بالقم في تأريخه   يجلوه فطر القدر بالإشراق

فإذا جمعت أوائل بيوت القصيدة المذكورة حصل لك منها: سيدي ومولاي السيد محمد الشريف رضي الله عنه. وهذا من أنواع البديع المسمى بالترصيع وقد اقترح علي العالم الفاضل الشيخ سيدي مختار شيخ زاوية مرزق أن أخمسها فخمستها وقد أثبت هذا التخميس [1] برحلتي الصحراوية وهاك بعضاً منها :

تخميس المؤلف :

لما ارادت حكمة الخلاق   انفاذ امر واجب الأطراق
وانثل عرش العلم والإشراق   سرنا بنعشك خضع الأعناق
سيراً دوين العدو والأعناق

ومنهــا : —

حــبر تصدر للعلوم فنالها   بلغت بــه كل الورى آمالها
والآن منه قد اذاب رجالها   داء اصاب المكرمات فقالها
واغتال روح مكارم الاخلاق

ومنهــا : —

لا راحة في الدهر تبقى سرمدا   كلا ولا أمن يدوم ممهــدا
والعيش ان راق لديك تبددا   والدهر يغتام الاخاير والردى
يعتاد نهب نفائس الأعلاق

---

(١) وهنا تأكيد لوجود كتاب آخر للحشائشي هو الرحلة الصحراوية !!

ومنهـــا : —

عتباً على حكم الزمان وسرفه   وخداعه وقضاء لازم حتفه
تبـاً له هـلا فداك بنفسه   ما ضره لو أن صارم صرفه
ابقاك للعافين والطراق

ومنهـــا : —

ابقاك للمجد الاثيل وحزبه   والجود والفضل العميم وسربه
والجد والخير العظيم وصحبه   والعلم والحلم الذي شمخت به
آفاق جغبوب على الإطلاق

ومنها : —

كم لمتـه لوم الحبيب لسده   ونصحته نصح الصديق بجده
ونذرته عن ذنب زلة وده   لكنـه لا ينتهي عن قصده
بتطبب أو رقية من راق

ومنها : —

انت الذي بعلومـك الدهر اقتدى   طود المعارف كيف حـل بك الردى
انت الذي بالنفس حقـاً تفتـدى   انت الإمـام لكل من أم الهـدى
والدين بالإجماع والاصفاق

ومنها وهو بيت التاريخ الأخير :

يبكي الورى متقطباً عن شيخه   فلذاك ما بالغت في توبيخه
ويقول قولا في سباق صريخه   هم همـــا بالغم في تاريخـه
يجلوه فطر القدر بالاشراق
عام ١٣٠٣ هـ (١٨٩٥ م)

ابناء سيدي الشريف :

وقد ترك هذا المرحوم اربعة ابناء كبيرهم سيدي احمد الشريف ومحمد العابد له ثمانيـة عشر سنة من العمر حين مات والده وهو الذي خلفه سيدي المهدي على زاوية جغبوب الكبرى نائباً عنه حـين هاجر للكفرة بوسط الصحراء الشرقية سنة ١٣١٢ هـ الموافـق (١٨٩٤ م) وهو شيخ الطريقة الاكبر في يومنا هذا وصاحب التصرف واخوه الثـاني (الاول) سيدي احمد الشريف شقيق المذكور والباقي صغار السن .

مكث الشيخ المهدي بجغبوب وبعض سيرته :

ثم بعد انتقال الشيخ سيدي محمد السنوسي صاحب الطريقة للدار الدائمة مكث سيدي المهـدي بزاوية جغبوب تفيض عنه الكرامات تأتيه الوفود من اقصى بلاد الله زياراً تلتمس منه البركة وتتزود الدعوات الصالحة فترجع غانمة سالمة . ومن الناس من يهاجر الى بلاد جغبوب =

المهاجرة لجغبوب لقراءة العلم :

= الإقبال على قراءة العلوم غير انه ما دام في هذا البلد لا[1] يمكن له أن يتزوج وذلك عادة جارية عندهم . وذاعت كرامات سيدي محمد المهدي في مشارق الارض ومغاربها وازدادت الناس دخولاً في الطريقة السنوسية ووفدت عليه الهدايا من الملوك العظام ووجهاء العـالم وشرقت شمس سعادته في تلك القلوب وامتزجت اسراره الربانية بالارواح الطيبة وألقى الله عليه سكينة المحبة والاقبال بحيث ان من يلقاه تنغرس في قلبه شجرة محبته وذلك ادل دليل على

---

(١) لست ادري من اين جاء المؤلف بهذا مع ان هذا لا يوجد في نظام مدرسة الجغبوب ولا عند الأخوان السنوسية وكثير من طلاب المدرسة كانوا متزوجين ولا يفرض عليهم هـذا الذي اشار اليه الحشائشي.. وقد يكون بعض طلاب العلم يؤثر تأخير زواجه الي بعد اكماله الدراسة من تلقاء نفسه ولكنه ليس من النظام المفروض .

اصطفاء الله له .

وجه عليه من التحية رونق ولطافة تجري مع الأنفاس
فاذا اراد الله يوماً بعبده ألقى عليه محبة النـــاس

وفد السلطان عبد الحميد زائراً الشيخ المهدي بالكفرة :

وفي شهر ذي الحجة من سنة ١٣١٢ هـ (مـــايو سنة ١٨٩٥) ارسل له السلطان عبدالحميد مأموراً من رتبة أمير أمراء[١] ومعه هدية فاخرة قصد بها بلاد الكفرة التي ارتحل لها الشيخ. وكان اتيان هذا الرسول على طريق مدينة بنغازي فسار له في قافلة متألفة من عشرة جمال الى أن بلغ جالو ثم دخل الى بساط القفر فبلغ الشيخ سالماً وقضى عنده مدة الزيارة ضيفاً كريماً ثم أخذ جواباً من الشيخ الى حضرة أمير المؤمنين مضمونه الدعاء بخير الى حضرته المنيفة وكر راجعاً بسلامة الى بنغازي ثم توجه الى الآستانة .



(١) كان مبعوث السلطان الى السيد المهدي هو صادق المؤيد احد رجال البلاط العثماني في أواخر عام ١٨٩٥ م .

مواقف وصفات للسيد المهدي

كيفية قبول الشيخ المهدي الأضياف:

فصل في كيفية قبول الشيخ المهدي الأضياف: إعلم أن كل من وفد على الشيخ وإن كان المقصود مجرد الزيارة فإنه يكرم نزله لا كما تزعمه بعض المقبلين =

معاملة الشيخ المهدي لغير المسلم :

= الذين لا يعرفون أحوال الشيخ من أنه يتقطب في وجه السواح إذا كان غير مسلم. كلا بل لا يرى منه غير المسلم إلا البشاشة واللطف والرفق وحسن الخلق ؛ وعند إيابه يرسل معه من يوصله إلى المكان الذي يريد سواء إلى مصر أو درنة أو بنغازي على حسب ما يريد ، ويقول للاخوان بعين أهل الطريقة : لا بد لنا من إكرام الأجنبي، ويعني غير المسلم، عسى أن يهديه الله إلى الدين الحق لأن واجبات المسلم وشعائره إكرام الضيف كيفما كانت ديانته ليبلغ عنا ما شاهده منا والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

قدوم بعض السواحين الافرنج على الشيخ المهدي :

وفي سنة ١٣١٢ هـ ١٨٩٤ م قدم على جغبوب على حين غفلة رجل انكليزي فأراد بعض الاخوان العبث به ، لكنه لما طلب مقابلة الشيخ المهدي أذن له فى ذلك، فاجتمع بالشيخ وسئل له حاجة عند الشيخ !؟ فقال: ما عندي حاجة، إنما القصد من إتياني النظر في وجه الشيخ لما اسمع عنه . وحظي هذا الرجل الاجنبي بالاكرام وحسن القبول ومكث عنده ثلاثة أيام ضيفاً كريماً ثم كر راجعاً على

طريق مصر . وأتاه أيضاً سواح آخر ومعه امرأة ولكن هذا السواح ادعى أنه مسلم، ففرح به الشيخ كعادته لكن امرأته ذهبت إلى الشيخ ليلاً خفية من زوجها فأعلمت أن زوجها لا زال على دينه ، ولما علم بها زوجها في تلك الليلة فر من البلد إلى مصر وترك المرأة عند الشيخ المهدي. ثم إن الشيخ المهدي أرسل المرأة في نفر من أهل الأمن والعفة إلى الاسكندرية فبلغت سالمة . وعندما استقر الشيخ ببلاد « الكفرة » أتاه أيضاً سواح افرنجي لم أتمكن من معرفة اسمه ولا جنسيته لأن العرب لا يفرقون بين الانكليزي والفرنساوي والطلياني وغير ذلك من الأجناس الأوروبية، وهذا السواح قدم على الشيخ من واداي بعثه الامير يوسف ملك واداي إلى الشيخ المهدي بالكفرة والشيخ المهدي أرسله مع رفقة مأمونة بعد أن أكرم نزله إلى بنغازي. كما أتاه رجل من أهل مكة ارسله الأمير يوسف المذكور وكتب فيه حجة وأنه شتم الاسلام. ثم إن الشيخ أرسله مع الحجة المذكورة إلى الوالي ببنغازي للحكم فيه. ولما قدم على لباشا ارسله من حينه إلى دار الخلافة ولم أدر ما وقع فيه بعد ذلك .

قدوم سواح مسلم على الشيخ :

وفي سنة ١٣١١ هـ (١٨٩٣ م) وفد عليه سواح عربي من أهل الحجاز صناعته يتجر في الكتب العربية بالبيع والشراء وعليه أثر الرفاهية فأقام عنده ضيفاً بجغبوب مدة زمانية ثم طلب من الشيخ أن يبلغه إلى غات فاكترى له الشيخ جملين من عند رجلين من أهل « زلة » قدما له زياراً واوصاهما عنه برد البال منه ، وأرسل معهما رجلاً من طرفه ليشيعه إلى أي بلد يريده. فخرجوا جميعاً من جغبوب وساروا خمسة أيام ثم إن النفرين دسوا الغدر بالشيخ لما رأوا عنده من الكتب والأثاث المثمنة وحسبوه ذا مال فتشاوروا في ذلك النفر المرسل معهم من طرف الشيخ المهدي فأبى ونهاهما عن ذلك الأمر القبيح فلم ينتهيا ولما تحقق منهما الغدر بالشيخ لا محالة ولم يفد نهيه خاف على نفسه وكر راجعاً إلى جغبوب. وبعد أن رجع وقرب الشيخ لى بلاد زلة وكان جمل الشيخ يمشي في الأول

والنفران من ورائه عمد أحدهما إلى الشيخ فأطلق عليه بندقيته وهو غير مشعر به فسقط من أعلى الجمل لا روح فيه عليه رحمة الله ، وقصد النفران « بلد زلة » وهي بلادهم الأصلية وأخذوا جميع ما عند الهالك من مال عين وأثاث وكتب جليلة أخفوها عندهم في ديارهم الخ. ولما بلغ النفر الذي كان معهما من طرف الشيخ المهدي إلى الجغبوب اعلم الشيخ في حينه بأن النفرين اضمروا للشيخ الغدر وقصدا به « بلد زلة » وراودوني عن ذلك فأبيت وخفت من الفتك بي فرجعت ثم ان الشيخ اغتاظ غيظاً كبيراً من هذا الأمر ووبخ تابعه على الاتيان وارسل في الحين=

ارسال الشيخ الى زلة لجلب القاتل واثاث القتيل :

= الى زلة في طلبهم. ولما وصل وفد الشيخ الى زلة وجد النفرين بالبلد فسألهم عن الشيخ فقال: ان الشيخ ذهب مع قافلة اخرى الى فزان قاصداً مرزقاً واستظهرا بحجة مزورة في ذلك . ثم ان الوفد المرسل تعاطى البحث اللازم الى ان ظفر بكتب الشيخ وحوائجه وبعض من ماله عيناً فألقي القبض على النفرين ورجعوا بهما الى الشيخ المهـــدي فاثبت عليهما القتل بسجلة وكتب في حقهما الى الباشا ببنغازي وارسلهما الباشا الى اسلانبول والله اعلم بما صار بعد ذلك .

رد المال من الغرباء والسواحين :

ومن حسن مقاصد الشيخ وطباعه الحسنة رد المال أنه طالما يوصي جميع اخوانه ومشايخ زواياه واعيان طريقته برد المال من السواحين والغرباء ولو من الافرنج ، كما علمت يقول على روس الاشهاد ان قتلهم واخذ اموالهم لظلم عظيم والظلم يرجع على فاعله بالنكال والوبال وطالما ارسل للتوارق بهذا الأنذار .

الارتحال من الجغبوب لواحة الكَفْرة

فصل في كيفية ارتحال الشيخ من جغبوب الى بلد الكفرة مهاجرا :

فصل في ارتحال الشيخ عن ا. زواياه ذاهباً الى الكفرة للإقامة بها واسباب ذهابه وماصار له الخ.. في شهر ذي القعدة الحرام سنة ١٣١٢هـ(أبريل سنة ١٨٩٤) صدر الاذن الإلهي من خدود الغيوب للشيخ المهدي بالارتحال من بلد جغبوب الى بلد الكفرة فاصطفى مائة نفس من الطلبة المخلصين والإخوان المعتبرين وجهز نفسه على حين غفلة بحيث لم يعــلم به أحد الا بعد خواصه ، ثم قال : الرحول الرحول . الرحول . ثلاثا فارتعدت فرائض الناس من هذا الحادث الفجائي وفاضت الأجفان دمعاً. فلما رأى الشيخ ما اعترى الناس وكلهم طلبوا الذهاب معه دخل في زمرتهم وقال : يسر معي من اراده الله للمسير ويبقى من اراده الله للبقاء بجغبوب.ثم امتطى ظهر راحلته واخذ في السير هو ومن الهمه الله للذهاب معه وذلك في شهر ذي الحجة الحرام من سنة ١٣١٢ هـ (مايو سنة ١٨٩٤ م) وبقي قسم عظيم من أكابر العلماء والاخوان. ومن جملة من بقي العلامــــة الكبير الحــــافظ الشيخ سيدي الريفي والدراكة النحرير الشيخ سيدي بوسيف أديب عصره فان هذا العالم لما افاق من غشيته التي اصابته عن مفارقة الشيخ المهــــدي صعد فوق هضاب عــــال ومعه جماعة من الأخوان متوجهاً الى الركب بنظرة وطفق ينشد ارتجالاً من شعره العذب ما يلين به الجلمود ويورق به العود .

قصيدة سيدي بو سيف مودعاً بها الشيخ المهدي
يوم رحيله من جغبوب قاصداً الكفرة

همو هيجوا يوم النوى من أشجاني ... وحاديهمو لما ترنم اشجاني

وهم سلبوا لبي وألبس بينهم ... رداء الردى جسمي وأثواب أحزاني

وهم غادروا جسمي لظاً بعد بهجة ... جرى ذوبها من نهر مدمعي القاني

فوالله لا أنسى عشية ودعوا ... فأودعتهم صبري وودعت سلواني

وضاعف أحزاني مواقف جمة ... وبرّح بي فقدانهم وأضناني

يسائلني مولاي تسآل رأفة ... يجل بها شأني ويبتئس الشاني

ومن عجب الأشياء رحلة معشر ... غدت محشراً أوهت قوى كل إنسان

تبلد من إجرائها كل سوقة ... وطأطأ إجلالاً لها كل سلطان

وزلزلت الدنيا وماجت بأهلها ... وعادت عواد بين ترك وعربان

لك الله من تيم كفرة[1] ... تتأخر كأوار المتاخم سودان

غدا طاوياً شط البسيطة ناشراً ... لأعلام عز تنجد الضارع العاني

ومنتضياً عزماً يفل بجده ... قواطع آراء من أهل وجيران

ولم يثنه عما نوى ألم النوى ... وأنة محزون ورنة صبيان

وحثوا مطاياهم ببيض قفايلهم ... فلاحت نجوم دونها نجم كيوان[2]

سروا والدياجي حالك صبغ لونها ... يؤمون أحقاقاً ترى ذات ألوان

---

(١) الكَفْرة واحة في صحراء ليبيا .

(٢) — نجم كيوان — هو نجم في السماء معروف بقوة إضاءته ولمعانه .

ومن بعدها مومات فيفاء بجهل ببهال لها العزم الذي ليس بألوان
وخلوا بجغبوب المقدس عيلة يعلون بعد النهل طلاب عرفان
وقصراً مشيداً كان مطمح أ فس ومطلع مطعام ومعطن مطعان
وربعاً عهدنا بَهْوَه وهو آهل بأنجاب أشبال وآساد خفان
وكانت لهم فيه محاسن جمة تساموا بها فخراً على كل إيوان
وظلت بواديه بواد فأصبحوا نشاوى بإنشاد وذكر وقرآن
وكانت بمغناه علوم يبثها مشايخ أعلام وأعلام فتيان
رووا متنها عن حافظ اي حافظ أسانيده تعلو بضبط وإتقان
هو ابن السنوسي الذي صار ذكره بكل بلاد بين سوس[1] وآراني
إمام همام كان للحق قبلة تيممها القاصي من الخلق والداني
وشهرته تغني عن اطراء مادحه كما اشتهر المهدي بالعالم الثاني
سقى الله أرضاً زارها صوب قطره وساق لذاك القطر عارض نيسان
على أنها تغني بعذب زلاله ومدراره عن كل أوطن هتان
متى تشتفي نفسي بقرب لقائه ؟ وليبتني طرف الطرف في روض احبان
متى يأتي مولاي الشريف مصاحباً كتائب كتاب ببيض ومران
فإني من رجعاكم غير آيس ولا يأس من روح ورحمة رحمن
وإني مقيم سادتي برحابكم على عهدكم حتى ألف بأكفان
وإني أرجو نظرة مقامكم تسلى عن الدنيا وزخرفها الفاني
عليكم سلام الله ما هبت الصبا تحية صب خافق القلب هيمان
ولما ارتحلتم صغت قولي مؤرخاً لرحلتكم بند بتمهيد أوطان

٦٧ ٤٦١ ٥٦ ٧٢٨

١٣١٢ هـ

(١) يقصد الشاعر ان السيد السنوسي عرف في جميع العالم الاسلامي و « سوس » من صحراء بلاد المغرب .. وآراني يقصد بلاد ايران « فارس » .

ويلاحظ أن الشاعر سجل نظم القصيدة بتاريخ ١٣١٢ هـ وهو يوافق ١٨٩٤ م قبل قدوم الرحالة الحشائشي الى ليبيا بعام .

بلوغ الشيخ « الكفرة » ونزوله ببلد « الجوف » وما فعل معه أهل تلك القرى والنواحي :

ولما بلغ الشيخ الى واحة « الكفرة » تلقته قبيلة « زويا » من كبار قبائل العرب ومن جاورها من القبائل بغاية الفرح والسرور وناصفوه في جميع ما يملكونه من الأرض والماء والنخيل وأرضهم واسعة جداً ووفدت عليه القبائل القريبة من المكان كقبيلة « تبوا » العظيمة من سكان الصحراء الشرقية واسم القرية التي حل بها الشيخ بلد « الجوف » بها ما يقرب من ستين دار أبناؤها بالطين والتراب بينها وبين مملكة « واداي » مسيرة خمسة وأربعين يوماً .

اسماء الاخوان الذين رافقوا الشيخ :

ومن أعيان الاخوان الذين رافقوا الشيخ في هذه الوجهة الشيخ سيدي احمد البسكري صاحب مشورته في جميع الامور سيدي احمد التواتي بمثابة قاضيه . سيدي احمد الجراولي الإمام بجغبوب . السيد الحاج احمد الثني الغدامسي . هذا من أعظم التجار واصحاب الشيخ الذي لم يفارقه منذ سبعة سنين حتى صاهره الشيخ وزوجه بأخت عياله ولهذا تجارة عظيمة مع أهل برنو وواداي وغات ومصر وطرابلس وتونس. وجميع ما يأتي الى جغبوب يأتي على يديه وهو الذي يجلبه الى هناك بأثمان متهاونة . رفقاً بالاخوان حتى عادت له المكانة العظمى عند الشيخ ، ولما نزل سيدي المهدي بالكفرة سماها غدامس الجديدة مراعاة للغدامسية الذين منهم صهره المذكور . ومن المرافقين للشيخ . سيدي محمد السني ولما استقر الشيخ بالكفرة ارسله الى السودان وارسل معه جواباً الى « رابح » عتيق الزبير المصري الذي اخذ مدينة برنو وعاث فيها فساداً يوبخه على بعض افعاله ويأمره باتباع سنة الله ورسوله. وقد تمسكت بطريقته أمم كثيرة من السودان كقبيلة كانم واهل برنو الخ ولما استقر الشيخ ببلد الجوف وسماها بغدامس الجديدة كما بيناه راسلته بذلك القبائل والشعوب وبين الكفرة وجغبوب مسيرة واحد وعشرين يوماً على طريق « جالو » . وموقع بلاد الجوف المذكور

بوسط فلاوة من الارض متوسطة بين السودان ووادي ومرزق .

الباعث على سكن الشيخ بالكفرة وذكر اوصاف تلك الصحاري وموقعها:

وكان الحامل على سكن الشيخ بهاته البلد هو توسطه بين تلك الاقاليم والقرب منهم. وهاته الصحراء مجاورة للأراضي المصرية من غربها بها نوع من الطين بكثرة وجبال لونها رصادي وفيها جبال لونها اصفر وبها ربى من الرمل رحالة الى جهة الجنوب وجهة لغرب واكثر سكانها يسمون « تبو » وهم امم كثيرة وليسوا بتابعين لدولة من الدول في ذلك الوقت يعني سنة ١٣١٣ ه (١٨٩٥ م) اما الآن فلا اعلم عليهم شيء ، ولقد اجتمعت بكثير منهم وذكرتهم تفصيلاً في رحلتي [١] ، وغالبهم متمسكون بالطريقة السنوسية وتقسم إلى عدة قبائل منها الرشاد وقران.وفاتلن. وغيرها.ولونهم السواد الفاحم .والطريق ما بين مرزق وكوكة قاعدة مملكة برنو مارة على سلسلة من الجزر النباتية ذوات النخل الباسق اكبرها « كاوار » وقد اجتمعت مع بعض من أهل « كاوار » فوجدتهم عالمين بأنواع المتاجر الصحراوية طاف الطبع غالبهم سنوسيون ويوجد في هذا القسم جزائر أخر وهي تبستي وبدفو ثم جزيرة الكفرة[٢] التي بها الشيخ الآن موقعها بين واداي ومرزق كما علمت من الصحراء المذكورة وهي التي بها بلد « كبابو » الواقعة في الشمال وجهة اشرق من هذا القسم تسمى ليبية بها بعض جزر قليلة تابعة لمصر بالاسم ولتعلم القراء أن بعض هاته الأماكن التي تعرضنا لذكرها هنا إنما هو بمناسبة حلول الشيخ بجوارها ومنذ أحلها الشيخ ضرب الأمن أطنابه بأصقاعها وقد كان قبل ذلك يصعب المرور بها على القوافل .

---

(١) يقصد المؤلف رحلته الصحراوية وهي على ما يبدو غير هذه .

(٢) يقصد المؤلف بعبارة جزيرة اي واحة .

ترجمة السيد المهدي

زيادة مفيدة في ترجمة الشيخ المهدي السنوسي وسيرته وحياته :

فصل مهم نفيد به من أراد الاطلاع على ترجمة هذا الغوث الكامل. إعلم مما لا شك فيه أن هذا الرجل أعني سيدي محمد المهدي المشهور بالبدر كما علمت سابقاً هو مؤيد من الله تعالى بنفوذ الكلمة بين خلق الله وليس ذلك النفوذ بقهري على القبائل والشعوب مثل أمير أو حاكم بل إنسان من أولياء الله الصالحين متجرداً للعبادة والصلاة وذكر الله في فلاة من البر الشاسع مع إخوان له سلمت من لذائذ الدنيا وعكفت على عبادة ربها من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وتلاوة القرآن المجيد وبثه في صدور الرجال وتعليم سنة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم والفروض العينية واتباع السلف الصالحين، وما أشيع عنه بأنه يتاجر بعداوة الديانات الغير الإسلامية ويتمنى الحروب وله معامل للسلاح الجديد وبانكات مالية في مصر إلى غير ذلك فليس بصدق وهذا الافتراء مصدره من بعض الجهال الذين لا يعرفون حقيقة هذا الشيخ . بل إن ديدنه ومطمح نظره هو الإرشاد إلى الكتاب والسنة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الأماكن التي انتشرت بها طريقته. وكثير ما يرسل العالمين من أعيان الاخوان إلى القبائل الوثنيين ليعلمهم كتاب الله ويرشدهم إلى الدين الحق ببث طريقته . ومن حسن مقاصده أنه كثير ما يأمر من عصى وتمنع من دفع بعض الأداء الموضوع على عقاره لجانب الدولة العثمانية بدفع ما هو مضروب عليه من الأداء السنوي قائلاً لهم : إنه لا تقوم الدولة إلا بذلك ونحن رعاياها وحضرة السلطان خليفة الله في الأرض. ومن عوائده أنه لا يراسل

من له اعتبار عظيم في الدنيا كالملوك والوزراء والوجهاء والأغنياء ليجلبه للدخول في طريقته ولا يقول إن طريقته أحسن الطرق الموجــودة في العالم. ومن تبجح بذلك من إخوانه فإنه يلومه غاية اللوم وينهيه على ذلك لكي لا يعود ، ولمــا تعرضنا لترجمة هذا الشيخ احببنا أن نستوفي الكلام على ما يتعلق به إفادة للعموم ولا نقول إلا حقاً والله ورسوله حسبي .

الإخوان

فصل في معنى الاخوان وما يتعلق به :

فصل في معنى الإخوان وبيان حالتهم في سيرتهم الدنيوية ومتعلقات هاته الطريقة وذكر بعض اعيانهم وطبقاتهم فنقول : الإخوان . هاته لفظة تطلق على كل انسان اخذ الطريقة السنوسية وتمسك بوردها وتسمى هاته الطريقة بالطريقة المحمدية كما عرفها بذلك الشيخ نفسه في تأليفه المسمى (بالسلسبيل المعين في ذكر الطرائق الاربعين) فيقال فيما بينهم فلان من الإخوان يعني سنوسي الطريقة ، هكذا في عرفهم وهؤلاء الإخوان تنقسم الى اربعة اقسام منهم من هو في درجة عالية من العلم كالشيخ سيدي محمد الريفي يقال إن هذا العالم يحفظ اربعين الف حديث وقيل عشرين ألف وهو رجل كبير السن ولا ادري هـل هو بقيد الحياة في يومنا هذا أم لا . والعلامة سيدي الفالح [1] وهذا الرجل مـع علمه الدافق وادبه الغض قلما يوجد من يحسن قراءة كتاب الله مثله حتى ان السلطان عبد الحميد كان ارسل لجناب الشيخ المهدي بأن يرسل له الشيخ الفالح للآستانه ليقرأ القرآن العظيم على مسامع حضرة عبد الحميد .

إرسال الشيخ الفالح الى اسلانبول :

فامتثل الشيخ سيدي المهدي وارسل من حينه الشيخ الفالح ولمـا بلغ الى

---

(١) محمد فالح ظاهر المهنوي وتقدمت سطور من ترجمته .

الآستانة اكرم السلطان نزله فاحضر له مكاناً فسيحاً مزخرفاً واهدى له جارية جميلة ووقعت له مكانة عالية عند السلطان . ولما كان البرد مشتدا بالاستانة تعب الشيخ الفالح من ذلك ولم يوافق بدنه حيث كان بارض حارة ثم طلب من السلطان السفر لبيت الله الحرام لأداء الفرض . فسمح السلطان بذلك فتوجه الى مكة المشرفة ولا علم لي بعد ذلك. والظاهر انه رجع بجغبوب بعد اداء الفريضة والله اعلم . الطبقة الثانية مثل العلامة الأديب سيدي بوسيف[1]. هذا الرجل عظيم الاعتبار له شجة بجبينه بسبب حجر سقط عليه حين كان الشيخ الاكبر يبني في زاويته الجغبوبية من أعلى القبة وكان من ألطاف الله وكرامات الشيخ سلامة سيدي بوسيف من ذلك وبرؤه سريعاً . وكالشيخ سيدي هاشم مؤدب الشيخ المهدي وسيدي مدين . وهؤلاء الأعلام كلهم من أرض الجزائر وتونس والمغرب . والطبقة الثالثة كالشيخ سيدي محمد التواتي وسيدي محمد البسكري وغيره . والطبقة الرابعة عموم الناس من العرب وغيرهم وغالبهم يحفظون القرآن المجيد عالمون بمبادىء العلوم من فقه ونحو وصرف وغيره والجميع متحدون قلباً وقالباً على حب شيخهم يرونه هو عمدتهم في الطريق الموصل الى الله ورسوله. ولهم مزايا عظيمة مع بعضهم بعضاً فأنهم يعينون بعضهم بعضاً في السراء والضراء ولست ترى فيهم متكففاً ، وحرفة اعيانهم المتجر وكسب النخيل وغالبهم من الاغنياء الذين انعم الله عليهم ولهم حظ عظيم من التمتع بعيش الدنيا ولذائذها الحلال من حسن الأكل والمشرب واللباس ويرونها الطيبات التي أحلها الله لبني آدم فليسوا على مشارب المتصوفين المتقشفين يأكلون الأرز مطبوخاً بلحم البعير والسمن وهذا ألذ طعامهم المتقرب للأضياف . والتمر الجيد مع خبز الشعير . . أما سكان القرى فيأكلون ما شاء الله من الأطعمة الفاخرة إلا أنها لا توجد بالبلدان الصحراوية . وغالبهم أنه بعد الأكل يستعمل الشاي ويقولون له الشاهي في عرفهم .

---

(١) الشاعر الاديب : ابو سيف المقرب من ادباء مدرسة الجغبوب كانت وفاته عام ١٣١٥ هـ - ١٨٩٧ م - بزاوية الجوف - الكفرة .

استعمال الشاهي عند السنوسيين :

يتنافسون فيه بحيث أن كل واحد منهم يشرب ثلاث زجاجات[1] بعد الغداء ومثلها أو أكثر بعد العشاء وبعض المترفين يشربه بالعنبر ولهم عدة قصائد ومقاطيع ينشدونها تفكهاً وتحميضاً في وقت شربه .

لباس السنوسيين وزيها :

أما لبسهم وزيهم فإنهم يلبسون الثياب الرفيعة كالحرام الجريدي[2] الطيب وأنواع الملف المعبر عنه عندهم بالملف التونسي القرمسود الهندي والشاشية التونسية ويستعملون العطر حتى أنه إذا مر أحد منهم تغشاك رائحته الطيبة على بعد . وأحب الأعطار إليهم عطر الورد يقولون له العطر الوردي ومع ذلك يبخرون أثوابهم بالعنبر . وفي هاته الأيام الأخيرة أتتهم مع بعض التجار « الكولونية » لكن توقفوا في استعمالها ، وسألني بعض عنها هل هي مستعملة عند علماء تونس أم لا فأجبتهم بأن بعض العلماء يرى طهارتها والبعض يمنع ذلك تورعاً . والحاصل أن الروائح الطيبة لها مكانة عظيمة عندهم . كان عندي قالب من الصابون السوسي المسك هدية للعلامة الشيخ سيدي محمد حيدرة فوقع عنده موقع الاستحسان وأعجب به . ولهم في مدح الشاهي عدة مقاطيع وقصائد وأراجيز يطول بنا ذكرها ويقولون إن الشيخ الأكبر أوصاهم بشربه لأنه يعين على السهر لاقتناص العلوم وفيه منافع كثيرة . ولنورد هنا أرجوزة للشيخ احمد بن الأمين أحد مشائخ زوايا بنغازي لما فيها من الفائدة العامة لمن يحب الشاهي تتضمن تعريف الشاهي وشهرته وسبب حدوثه ومزاج الأخضر والأسود منه وبيان منافعه ومضاره وبيان طبخه وطريق استعماله وطريق شربه .

---

(١) زجاجات يقصد بها الأكواب الصغيرة التي لا تزال تستعمل الى الآن في شرب الشاي بليبيا .

(٢) الجريدي نسبة الى منطقة الجريد بتونس .

أرجوزة في الشــاهي

أرجوزة الشيخ الأمين في الشاهي :

يقول راجي عفــو رب محمد ابن الأمــين الفقير احمـــد
الحمـــد لله على الـــدوام مبـــين الحـــلال والحرام
ثم صـــلاة الله للمطهـر ما خصه المولى بحوض الكوثر
كذا جميع الآل والاصحاب والتابعي من خص بالصـواب
وبعد فالشاهي لمـــا اشتهر ونفعه بـين الدناء قد ظهر
اردت نظم جملة مفيـدة تجمع من فنونـــه قصيدة
سميتها بتحفـة الاحبـــاب بذكر ما طاب من الشراب
وأسأل الإلاه جـل وعـلا بأن يتمها بأحسن الولا

فصل في تعريف اسم الشاهي وشهرته :

فهاك تعريف اسمه يا صاحي كما اتى في كتب صحاح
فأصله بالجـيم لفظ فارسي فألف مقصورة فجانس
فأبدل الجيم بشين معجمة لقرب مخرج الحروف فافهمه
وزيد في آخره يا تكملة للاسم فاحفظه وحاذر تهمله
وقيل في بعض اللغات صاء فالصـــاد ثم الـــف ويـــاء
التاي مقيل عند أهل الغرب واهل مصر الكرام النجب
ثم الشهير عندنا في الألسنه شاهي بشين ثم هاء بيّنه

وهو من الأدوية الجديـــدة   ولم يكن في كتب عديـــدة

وأنمــا المتأخرين ذكروا   خواصه في كتب وجربوا

فصل في سبب حدوثه :

كان لسلطان عظيم خادم   ذو أدب وهو له ملازم

وذلك السلطــان مولع به   لعلمه وحسنه وأدبــه

فجاء للخادم نوع من مرض   وصفرة في وجهه حين عرض

فكره السلطان أن يجالسه   مما به ومــل من مجالسه

فاستعمل الدواء من الأطبة   ولم يفد مــع أنهم ألبتّة

فخرج الغلام هائماً فــلا   زاد ولا ماء إلى بعض الفلا

وكان دوماً قوته الأعشاب   في الصبح والمساء مهما غاب

فوافق المزاج عشب الشاهي   فكان عن أكل سواه لاهي

فطاب من علته بأكله   وعاد لونه وحسن شكله

فسمع السلطان من بعض الخدم   بأنه قد طاب من ذلك الألم

وأنه في صحة وعــافية   ومنة ومن الإله وافيــة

فأمر السلطان باستحضاره   وقال ما عفاه من مضاره

فأحضر السلطان تلك العشبة   وقد دعا جمعاً من الأطبة

قال لهم : بحثــاً على الفوائد   وكتب ما فيه من المقاصد

فاستخرجوا منه مزايا جمة   وحببوا استعماله للأمة

فصل في أقسام الشاهي :

الشاهي قسمان أخضر وأسود   والأحسن الأسود فيما أيدوا

وبعضهم مال وقال الأخضر   هو اللطيف الأحسن المفتخر

وليس عندي لازماً إذ قد أتى   في النظم والنثر الصحيح المثبتا

اقسام الشاهي الاخضر والاسود ومنافعه ومنبته :

حقيقة الأسود فقد قيل زهر	وقيل ورق ليس معتبر
فالورق الاخضر وهو ظاهر	لمـــن له به التحام باهر
بقعتـــه منبته بالصـــين	قد جاءنا ذاك عن اليقين
وهو نبات مشبه بالقصب	ولونه كما اتى في الكتب
وفيــــه نوع مرة بأصـــله	تزول عند طبخه وفصله

فصل في مزاج الاخضر والاسود :

مزاجه بسبب التجارب	والفهم حار يابس فقارب
فقيل حار يابس في الأول	وقيل في ثانية حار فاعقل
وقيل بارد كذا يفهم من	قول ابن أسحاق على ما قد زكن

فصل في بيان منافعه :

فخذ منافعاً أتت في الشاهي	مقوي الانعاظ ثم الباهي
يمنع ايضاً سرعة الانزال	مهضما لأكلنا في الحـــال
يحسن اللون ويدفع الحشا	كذا يزيل البخر امراض الحشا
مقوي الدماغ ثم القلب	مفرح له مزيل الوصب
وينفعن النزلة القديمة	وينفي البلاغم العظيمة
يمنع نتن الأنف ان ينتشق	بماء طبخه كذا حقق
كذا ينشف الرطوبة الفاسدة	ونكهة الفم بطيب قاصدة
ودافعاً ايضاً روايح البصل	والثوم والكرات ان كان حصل
وينضح الأخلاط يفتح السدد	محللا أورام باطن الجسد
ويدفع الهيضة مع داء الجفن	ملينا منعما جلد البدن
ويرفع القولنج والباسور	كما اتى في كتبهم مشهور
ويطلق البول ويفتح المسام	كذا اللتي عن الاطباء العظام

واغسل بمائه جراحة الاسد   يبرؤها في الحين من غير مد
وهضمه الطعام كالأكسير   كما هو الظاهر للخبير
هذا وقد جرب للوباء   فكان كالأكسير من ذا الداء
وحسن الأسود في أم القرى   جمل إليه يا خير بالأمرا
لأنــــه رطب وذاك يابس   والرطب في مكة جا يجانس
لكن أقول إن تكن ذا بلغم   فاشرب من الأخضر يا ذا واغنم
وإن تكن بغير ذا فالأسود   للطبع فهو أحسن وأجود
لكنما الأخضر جاء في العظم   أحرى من الأسود بانوا الفهم

فصل في مضرته وإصلاحه وبدله :

يضر من ببطنه الحرارة   وينشف الرأس فدع مضاره
كذا يضر صاحب السوداء   فليحذرن من شربه للداء
لكنه يصلحــه الحليب   وهو به يا صاحبي عجيب
والباديان قيل أيضاً يصلحه   لكن يزيل طعمه ويكلمه
وحامض الليمون للصفراء   يصلح طعمه بــلا مراء
ويصلح السكر أيضــاً طعمه   لليبس والكبد فهاك نفعه
وبدله السحلب بالحليب   أو قهوة اللوز عن الطبيب
وفي الشتاء تستعمل الصبية   وهي أخير لطبقة جميــــلة

فصل في طبخه وطريقة استعماله :

وإن أردت طبخه يا صاح   في الليل إن شئت أو الصباح
فخذ من الماء القراح الجيد   وصبه في السموار فوراً واقد
واغليه غلياً جيداً على الولا   كما أتى في قول بعض الفضلا
لا تغترر بصوته إذا غــــلا   حتى ترى البخار في الجو علا
ونظّف البراد إن فيه درن   وضع من الشاهي فيه واغسلن
واسكب عليه الماء ان كان غلا   واجعل له السكر حتى حلا

وغطه وضع عليه منشفة ... واصبر عليه ساعة واستغرفه

وإن يكن أخضر فاخرج زبده ... وضع عليه عنبراً واعتمده

فهو عجيب حسن بالعنبر ... مع الحليب ياخي فاعتبر

لا يقبل الشاهي قط باديان ... ولا لوزية فدعه يا فلان

وبعضهم يقول هذا يصلح ... من جهة الطهي كما قد أوضحوا

وضاف بعضهم له نعناعا ... وبعضهم وشا فكن مناعا

او أرشفن به اذا ما عجبك ... ودع مقال تاكل إن منعك

وكسر السكر يا صاحي فصل ... مقدار فنجالك إن زاد خل

أو ذوب النبات في برادي ... وصب من ذلك في الزبادي

وكثرن للأسود ان شئت الحلا ... وقللن للأخضر نلت العلا

واسكب عليه الشاهي بعد طلقه ... وحركن واسقي لمستحقه

واشرب ومعك خمسة أو ستة ... من شرطه وإن تزد فسبعة

لأن شربه مع القوم الكثير ... لا لذة له فكن بذا خبير

الاسود اشربنه في البلور ... من الفناجل ذوات النور

وشربه ثلاثة او اربعة ... وإن تزد فهو مضر فادفعه

كذاك جعل شربه قبل الطعام ... وبعد الأخضر ذا الانهضام

خصوصاً إن أكلت أكلا مفتخر ... كاللحم او مثل الدجاج المعتبر

هـذا بيان الطبخ واستعماله ... في مكة الغراء عن رجاله

وبعضهم يشربه بالسمن ... وبعضهم بالملح ذا يستغني

وبعضهم يشربه بالقرفه ... وبعضهم بالزنجبيل فاعرفه

وفي بلاد ما وراء النهر ... بالباديان يشربوه فادر

وقد أبان صاحب الرسالة ... ببيان حكمه فخذ مقاله

فقال إن مذهب الجمهور ... لا يشربوه بالحلا المشهور

لكي أقول أن أضيف السكر ... لأجل دفع اليبس فهو الأخْيَرُ

فصل في بيان طبخ الشاهي وشربه بالعنبر :

فان أردت شربه بالعنبر   فاملأ امامي ماءك المفور

وفتت العنبر فيه كي يذوب   فخذ وضع من جرمه في الماء المصبوب

فامزجه بالشاهي ببعضهم معاً   فهو عجيب دون ذاك فاسمعا

وقد يغلون في البرادي   وبعضهم يبخر الزبادي

هذا وقد تم بحمد الله   ما رمته من نظم الشاهي

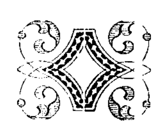
لكنني ابغي من الأخوان   ومن أهل الفضل والعرفان

ان يغفروا بما هفى فيه القلم   ويصلحوا ما فيه من زل القلم

واشرف الصلاة والتسليم   على النبي المصطفى الكريم

وآله وسائر الأئمة   والتابعين وهداة الامة

والحمد لله على التمام   اشكره في البدء والختام



مشايخ واساتذة

مشايخ زوايا الطريقة السنوسية :

اعلم ان مشايخ الزوايا لهم عند الشيخ والإخوان مكانة عظيمة اذ هم نوابه في بث الطريقة والقائمين مقامه في نشرها وغالبهم علماء أفاضل ولنذكر لك بعضاً منهم على سبيل الاختصار من الذين زواياهم بعمل بنغازي منهم الشيخ سيدي السنوسي الأشهب شيخ زاوية شخنب . وسيدي ابراهيم الغماري شيخ زاوية تريانة وسيدي عبد القادر الجيلاني شيخ زاوية الطمشية وسيدي عبد القادر الشريف شيخ زاوية توكرة . وسيدي مصطفى المحجوب شيخ زاوية الطيلمون وسيدي محمد التواتي شيخ زاوية المرج . وسيدي محمد ابن ابراهيم شيخ زاوية البيضاء . وسيدي ابن ادريس شيخ زاوية مارة. وسيدي عبد اللطيف شيخ زاوية القطيفة. وسيدي حسن الغرياني شيخ زاوية دفنة . وسيدي محمد بن اسماعيل شيخ زاوية الوفايدية. والشيخ سيدي حسن شيخ زاوية زلة . الشيخ سيدي محمد بن شفيع شيخ زاوية جالو . سيدي عبد الكريم شيخ زاوية شخرة . والحاصل ان للشيخ من الزوايا بوطن بنغازي فقط ما يقرب من ثلاثمائة زاوية . أخبرني ذلك العلامة سيدي محمد حيدرة شيخ زاوية بلد هون وفيما ذكرناه كفاية وجميع الزوايا المنسوبة للطريقة السنوسية[1] ذات أحباس وعقارات كثيرة وباع غالبها النخل مقامة تطعم الطعام

---

(١) جاء في هامش النسخة ما يلي : في مجلة المنار عدد ١٥ وعدد ٤ من هذه السنة استقصاء زوايا السنوسية ا ه فلتراجع مجلة المنار او كتاب شكيب أرسلان: حاضر العالم الاسلامي، وطبعاً يقصد بالسنة عام ١٩١٢ .

في سبيل الله وتأوي إليها الفقراء والمساكين وأبناء السبيل وبها مشايخ يقرأون القرآن الكريم ويعلمون مبادىء العلوم العربية وزاوية جغبوب هي أم الزوايا ومن الزوايا ما تبلغ أحباسها إلى العشرين الف نخلة كزاوية مرزق وشيخ الزاوية هو المكلف بالأحباس ودخل الزاوية وعند كل سنة يبعث إلى الشيخ الأكبر ما فضل من الدخل وما أتاه من الفتوحات على يده . ومن فوائد هاته الطريقة من تمسك بها مات على حسن الخاتمة غنياً وهو مشهور على لسان كافة الإخوان ولنرجع إلى الاخوان فنقول : هم هل فكاهة ومداعبة ومحاضرة علمية ولم نر منهم إلا ثغوراً باسمة وأسرة منطلقة يتلقون كل وافد عليهم بمزيد الرحب وحسن القبول مع إكرامه الغاية خصوصاً إذا كان عالماً أو أديباً ولا يخوضون في الحديث الذي لا نفع فيه ، أو الخرافات الباطلة أو السياسات التي لا تعنيهم . وغالبهم اصحاب تجارة وملاكة للنخيل وهم في الحقيقة مالكية المذهب كما عرفته غير أنهم يبسملون جهراً في الصلاة ويقرأون شيئاً من القرآن العظيم بين الرفع من الركوع والسجود ويقبضون .

الزوّار

فصل في خصوص لباس الشيخ وكيفية زيارة الناس له وقبوله اياهم :

ان الشيخ سيدي محمد المهدي رضي الله عنه يلبس شاشية من صناعة تونس وفي الغالب ان تكون من عمل المرحوم الشيخ الحاج عثمان السنوسي احد المعلمين الكبار بمدينة تونس أو ابنائه من بعده والشاشية التي عليها نيشان السنوسي هي عند اهل بنغازي والصحراء احسن من غيرها ويزيد ثمنها على غيرها هكذا اجرى العمل عندهم الى يومنا هذا . ويجعل تحتها عراقية بيضاء تظهر حواشيها من تحت تلك الشاشية ومن فوق الشاشية عمامة بيضاء خفيفة الطيات ليست بكبيرة وسورية كاملة فوقها شبه قفطان اسكندراني ثم يجعل فوقه حرام صوف من جريدة تونس أو الغرب الجوني ليس فيه حرير تورعا ثم برنساً في بعض

الأحيان من عمل الجريد الطيب [1] ونعله بلغة من عمل قابس . هذا لباسه المعتاد اما عبيده وخدامه فيلبسون الملف على اختلاف الوانه وحوله من العبيد ازيد من مائتي خادم هم الذين يأتون بالطعام للزيار الوافدين عليه ، ولا يخلو مكانه في الغالب من الزيار . وكيفية زيارتهم انهم يمكثون عند الشيخ ثلاثة ايام ففي أول يوم يأكلون الأرز مطبوخاً بالسمن ولحم البعير وفي الثاني العيش وهو طعام يصنع من القمح والشعير باللحم المذكور يشبه عندنا العصيدة أو البازين وفي اليوم الثالث تمرا صرفاً. ثم ان الزائر يمون نفسه ان مكث اكثر من ثلاثة أيام وفي الغالب لا يمكث الزائر اكثر من ثلاثة أيام .

كيفية الزيارة :

أما كيفية الزيارة فهي ان يتهيأ الشيخ لمقابلة الوافدين عليه ، ولا يأتيه احد الا بإذن منه ، يخرج عبد من عبيده على القبيلة التي تريد الزيارة وذلك حسب الترتيب في الأسبقية فتقصده القبيلة وأمامها ذلك العبد على محل الشيخ فيجدونه واقفاً طارقاً برأسه الى الأرض فيريد الزائر تقبيل يده فيمتنع الشيخ من ذلك فيسألهم الشيخ عن احوالهم ثم يرفع رأسه فيدعو لهم بخير ويرفع يده لقراءة فاتحة الكتاب ثم تنصرف الناس وهكذا العمل .

المواصلة بين الشيخ وملك واداي :

وبين الشيخ يوسف ملك واداي والشيخ مواصلة كلية . وهذا الملك من اكابر السنوسيين وله مكانة عظيمة عند الشيخ وكل سنة يرسل له الملك هدية فاخرة ، تحتوي على ما يقرب من خمسين عبداً وجانب عظيم من الريش وسن الفيل وخمسين الف ريال بوطيرة والبوطيرة هو دورو يساوي صرفه ثلاثة فرنكات تقريباً والمعاملة به كثيرة في جميع الصحراء واطراف السودان. ولما توفي السلطان المذكور واستولى بعده ابنه انحلت عرا الروابط بينهما فيما بلغني بعد سنوات حيث ان ابن سلطان واداي أخذ الطريقة التيجانية ووقعت بعض مقاطعة بين السنوسيين والتيجانيين ولم أدر بعد ذلك ما ارسى عليه الحال والله اعلم بالحقيقة.

---

(١) من عمل الجريد أي بلاد الجريد بتونس .

التعريف بالطريقة الثانية السلامية :

توجد هاته الطريقة بالاعمال الطرابلسية وبواديها الا انها دون السنوسية في الانتشار وغالب انتشارها في نواحي برقة وعمل مسراطة وزليطن والخمس وطرابلس ومؤسسها هو الغوث الكامل صاحب الكرامات المشهورة حضرة الشيخ عبد السلام الأسمر نفعنا الله ببركاته. أصله من بلد زليطن من أعمال طرابلس وبها ولادته[1] وبها كانت وفاته سنة ٩٨١ هـ (١٥٧٣ م) ودفن باحواز بلد زليطن بالقرب من البحر تشرفت بزيارته في شهر رمضان سنة ١٣١٣ هـ (شهر فبراير ١٨٩٦ م) وأصل هذه الطريقة في الحقيقة تنسب للقطب الرباني صاحب الاسرار الباهرة والكرامات الظاهرة حضرة الشيخ سيدي احمد بن عروس[2] المتوفى سنة ٧٦٨ هـ (١٣٦٦ م) بمحروسة تونس وقبره مزار يستجاب عند قبره الدعاء وهو مما جرب فصح ، وكراماته واحواله أفردت بالتآليف وتسمى طريقته بالعروسية كما قاله سيدي عبد السلام الأسمر نفسه وذكرها الشيخ السنوسي صاحب الطريقة المار ذكرها في كتابه « السلسبيل المعين في الطرائق الأربعين » فمن يريد الاطلاع على كامل أحوالها فليراجعه .

---

(١) ولد الشيخ عبد السلام الأسمر عام ٨٨٠ هـ وقد ألف كريم الدين البرموني المصراتي عنه كتاباً واختصره محمد بن عمر بن مخلوف التونسي وطبع المختصر. ولعبد السلام الاسمر أثر كبير في المجتمع الليبي وهو من الصوفية الذين ما زالوا في حاجة الى دراسة وترجمة علمية .

(٢) هناك كتاب في ترجمة احمد بن عروس وهو — ابتسام العروس ووشي الطروس تأليف عمر بن علي الجزائري الراشدي — وطبع بتونس عام ١٣٠٢ هـ ومن الغريب أن بعض الباحثين ينسب احمد بن عروس الى صعيد مصر كما صنع صاحب كتاب الزجل وهو ابو بثينة في كتابه الذي نشر بسلسلة كتابه الشعب رقم ١٣٠ بعنوان الزجل والزجالون — ونشر عام ١٩٦٢ — وفي ص ٢٢ نسب أحمد بن عروس انه ولد بإحدى قرى مديرية قنا سنة ١٧٨٠ م اي ١١٩٥ هـ وفرق كبير بين تهريف ابو بثينة الجاهل بحقيقة التاريخ فابن عروس من صوفية القرن الثامن الهجري لا الثاني عشر . اللهم رحماك . ولابن عروس في الأدب الشعبي دور هام .

الطريقة المدنية

الطريقة الثالثة المدنية :

وهاته أقل انتشاراً من الطريقة السلامية ومؤسسها سيدي شعيب[1] المدني المتوفى سنة ٥٩٤ ﻫ (١١٩٧ م) توفي ببلد مسراطة وبهـــا ضريحه تشرفت بزيارته سنة ١٣١٣ ﻫ (١٨٩٥ م) في رمضان ويوجد بالاعمال الطرابلسية طرق اخرى لها زوايا مشهورة كالطريقة الزروقية منسوبة للرجل الكبير العلامـــة الصالح سيدي احمـــد زروق البرنسي المولود ... [2] والمتوفي بمسراطة سنة ٨٩٩ ﻫ (١٤٤٣ م) وبها قبره بالقرب من البحر خارج المدينة تشرفت بزيارته وشاهدت سراً عظيماً وحسن رونق وانشراحاً بمصلى ضريحه ووجدت بازائه عملاً عظيماً في بناء مدرسة كبيرة [3] امر ببنائها حضرة السلطان عبد الحميد اثابه الله لطلبة العلم وحفظ كلام الله وقد تقدمت الاشارة الى ذلك .

---

(١) هذا خطأ من المؤلف وفي الحقيقة ان الشيخ المدني دفين مصراتة من علماء القرن الثالث عشر الهجري وكانت وفاته بمصراتة عام ١٢٦٣ ﻫ وهو محمد بن حسن بن حمزة ظافر المدني وأصله من المدينة المنورة أما الذي التبس أمره على المؤلف فهو صوفي آخر من المغرب واسمه شعيب المدني وذلك الشيخ توفي عام ٥٩٠ ﻫ ١١٩٧ فليلاحظ .

(٢) بياض بالنسخة الاصلية ولكن من المعروف ان الأستاذ احمد زروق كان مولده ٢٢ محرم ٨٤٦ ﻫ بمدينة فاس بالمغرب كما كتب هو في كنّاشه ونقل عنه المترجمون له مثـــل السخاوي في الضوء اللامع واحمد بابا التمبكتي في كتابه نيل الابتهاج .

(٣) لعل الرحالة يقصد تجديد المدرسة والا فان المدرسة الزروقية كانت قديماً وقد درس بها مثل الاستاذ اللقاني وذكر كثير من الرحالين المارين بمصراتة النشاط العلمي في مدرسة الزروق .

اسماء المراحل التي بين بنغازي وطرابلس ووصف الأرض.

حيث يلزمنا في هذا التاريخ الوجيز وصف عموم البلاد الطرابلسية والكشف عن جميع بقاعها وطرقها العامة لعموم الفائدة نقول ان بين طرابلس وبنغازي ما يقرب من ثلاثين مرحلة أو أزيد من ذلك وجميعها تقرب من البحر وكلها اراضي خصبة خصوصاً سرت وبرقة وهذان المكانان تقـــدر مساحتهما بمقدار جميع القطر التونسي وزيادة، وفيهما الاعتدال السنوي والفصول الأربعة. واراضي سرت لا يفارقها الغمام فهي تماثل ارض باجة من جهة المطر واما من جهة جودة التراب فتفوق ارض باجة فان قفيز القمح في ارض سرت ينتج في العام المتوسط الستين والسبعين قفيزاً ومثله الشعير قال المؤرخ الشهير [1] مقديش الصفاقسي في تاريخ...: « ومن مدينة طرابلس الغرب الى مدينة سرت في جهة الشرق مائتان وثلاثون ميـــلاً ٢٣٠ وهي احدى عشر مرحلة وبيانها يخرج السائر من مدينة طرابلس الى المجتني . عشرين ميلاً . ومن المجتني الى ورداسا اثنان وعشرون ميلاً ومن ورداسا الى راغوغا خمسة وعشرون ميلاً ومن راغوغا الى تاورغا اثنان وعشرون ميلاً ومن تاورغا الى المنصف خمسة وعشرون ميلاً . ومن المنصف الى قصر حسان ابن النعمان الغساني رضي الله عنه اربعون ميلاً . ومنه الى الأصنام ثلاثون ميلاً . ومنه الى سرت ستة واربعون ميلاً . وهذا الطريق يبعـــد عن

(١) المؤرخ مقديش ذكره الرحالة بلقبه فقط أكثر من مرة وهو محمود بن سعيد مقديش توفي عام١٢٢٨ هـ ١٨١٣ م وكتابه في التاريخ يسمى «نزهة الانظار في عجائب التواريخ والاخبار» طبع في جزئين ترجم فيه لعلماء تونس وبلده صفاقس يراجع في ترجمته شجرة النور — ومجلة المجمع العلمي العربي جـ ٩ ص ٣١٥ — وأعلام الزركلي وإيضاح المكنون .

الساحل البحري تارة ويقرب اخرى . قال الشيخ مقديش: وسكان ذلك كله قبيلتان من العرب وهما عوف ودياب وفيه عندي نظر .

مدينة سرت :

وبين مدينة سرت والبحر ميلان وعليها سور من تراب وما استدار بها رمل وبها بقايا نخيل ومياهها من المطر في المواجيل وابار قليلة وعليها قبائل من البربر يسمون زبيانة قوم ينتجعون الابل ويركبون امضها واسرعها خطا ويسيرون[1] فرقاً الى من تباعد عنهم من العرب فيغيرون عليهم وعلى ابلهم ثم يعودون بغنائمهم الى جبالهم ومواطن مساكنهم التي يأوون اليها وليس لهم شغل الا هـذا. انتهى كلام مقديش .

وتتصل هاته البلاد من جهة الجنوب ببلاد ودان وسوكنه ولما خرجت من سوكنة متوجهاً الى طرابلس اكترى لي الشيخ العالم الاديب سيدي محمد[2] بازقني الطرابلسي قاضي سوكنه مع اناس من سكان الفايفي المذكورة من قبيلة ورفلة واخذ عنهم ضماناً في بلوغي سالماً الى طرابلس حيث كانت تلك القبيلة ...سافة الطريق من سوكنه الى طرابلس اثنتي عشر يوماً بسير القوافل الصحيحة وبيانها.من سوكنه الى بونجيم.اربعة مراحل.ومن بونجيم الى بني وليد أربعة مراحل ومن بني وليد الى طرابلس اربعة مراحل وهذا المكان فيه عسة من عسكر الـترك ويصل له التلغراف من طرابلس ولما خرجت من سوكنة مع من ذكر لم نأتي على الطريق المذكور وكان في حسابي ان اليوم الرابع نبلغ بونجيم ولما لم نصل له في اليوم المذكور سألت عن ذلك الجمالة فأجابوني بانهم عـدلوا عن الطريق المذكور لزيارة أهلهم في تلك الفيافي المألوفة لهم ويبلغوني بعد زيارة أهلهم الى مدينة مسراطة ولا يتيسر لهم الذهاب الى طرابلس.وقد بسطت الكلام في بعض حوادث وقعت لي مع هؤلاء الجمالة عندما بلغت إلى بيوتهم وما تكبدته من

(١) كل هذا لا وجود له الآن وإنما هي معلومات استقاها المؤلف من غوابر التاريخ .

(٢) هكذا ضبطه الرحالة والمعروف « باجقني » بالباء والجيم المعطشة، من العائلات القديمة.

المشاق الى ان سهل الله علي بالخروج من اماكنهم بحيلة يطول بنا ذكر ذلك بهذا المختصر وارى ان ذلك من ألطـــاف الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم وذكرت التفصيل في رحلتي الصحراوية [1] .

حد أفريقية

فائدة تاريخية :

حد افريقية على ما ذكرته تواريخ العرب لا ما هو المتعارف اليوم عند علماء الجغرافيا فنقول . قـــال المؤرخ ابن دينار [2] في تاريخه المؤنس في تاريخ تونس صفحة ١٦ وسطر ١٧ مـــا نصه : حد افريقيا بالطول من برقة الى طنجة وعرضها من البحر الشامي وهو البحر الابيض الى الرمال التي هي أول بلاد السودان يعني رمـــال جبال التوارق وهي آخر الصحراء التي تدخل منهـــا الى السودان الغربي فتدخل في هاته المنطقة جميع اراضي طرابلس وبلدانها . وفي الكتاب المذكور صفحة ١٨ وسطر ٢٠ قال : ان مدن افريقية طرابلس وغدامس وفزان وكاوار واوجله وودان وبرقة . وفي صفحة ٢٧ ما نصه : لما توفي امير المؤمنين معاوية واستخلف ولده يزيد بعث يزيد عقبة ابن نافع الى افريقية فاستولى على ما ذكر . وفي صفحة ٣٩ مـــا نصه : ان حبيب بن عبيـــدة ابن عقبة ابن نافـــع بعثـــه الامير عبد الله بن الحجاب حين كان اميراً على تونس الى أرض السودان فغـنم

(١) يشير اكثر من مرة ويحيل القارىء الى رحلته الصحراوية فهل هي موجودة ام ضاعت مع أوراقه التائهة !؟

وهذا يدل على أن كتاب الرحلة الصحراوية غير كتابه هذا فليلاحظ .

(٢) ابن ابي دينار – واسمه – محمد بن ابي القاسم الرعيني القيرواني وعرف بابن ابي دينار من أهل القيروان وكتابه الذي رجع اليه الحشائشي عنوانه «المؤنس في اخبار افريقية وتونس» مرجع هام فرغ من تأليفه عام ١٠٩٢ ه وكان بن دينار موجوداً عام ١١١٠ ه فهو من مؤرخي القرن الحادي عشر طبع لمؤنس في اخبار افريقيا وتونس عام ١٢٨٠ ه .

منها مغانم كثيرة ومن جملتها جاريتين من جنس تسميه البربر آجان ليس لكل واحدة منهم الا ثدي واحد وذلك في سنة ١١٠ هـ (٧٢٨ م) وفي صفحة ٦١ وسطر ٥ ما نصه : ان السلطان المعز لدين الله جعل على برقة واعمالها افلح الناسب وعلى سرت باسير الصقلي . وعلى قابس ابن عطاء الكتامي واطال في بيان اعماله وتعداد امرائه عليها الى ان قال : وعلى خراج افريقية صولة التكامي ودانت له أمور البلاد كلها وهادته ملوك الروم وفي سنة (١) وارتفعت رتبة جوهر الكاتب وصار في رتبة الوزارة وجعل مظفر الصقلي على اعنة الخيل وتحت حكمه من رقادة مدينة بأزاء القيروان اندثرت الآن الى اعمال مصر وفي صفحة ١١٠ ان السلطان الخليفة عبد المؤمن بن علي فتح فزان وغياثه . أقول والظاهر أنها غات الآن فوقع فيها تغيير في اللفظ والله أعلم. وفي صفحة ١٤٥ وسطر ٨ ما نصه : أن السلطان ابن فارس عبد العزيز الحفصي غزا الصحراء وما حولها وغزا طرابلس وأعمالها ولزم هاته البلاد الركاز وجميع من في الصحراء وأطرافها يؤدون له ذلك وهو سلطان تونس وغزا بسكرة ومات بحاضرة تونس سنة ٨٣٧ هـ الموافق (١٤٣٣ م) ودفن بجبانة الحفصي بضريح ولي الله سيدي محرز ابن خلف داخل تونس .انتهى.

فصل في اشياء عامة مما يتعلق بطرابلس وأعمالها :

فنبدأ أولاً بذكر أنواع السلع الداخلة لها والخارجة منها .

(١) بياض بالنسخة الاصلية .

السلع الداخلة لطرابلس

السلع الداخلة :

القماش الابيض بانواع كالمحمودي والعنـــبر فني وغيره . القماش المصبوغ من المالطي وغيره انواع السكر خصوصاً السكر القــالب . التاي بأنواعه الأبيض والأسود . اللفة بأنواعها . الملف بأنواعه . الجرود يعني الحوالي [1] بأنواعهـــا وغالبها تأتيهم من جربة والجريد من عمل تونس. البرانس . الكساوي المحروجة والجبايب . أنواع الشاشية التونسية . القرمسود بأنواعه . جميع الروائح الطيبة من أعطار ومسك . أبزرة بأنواعها . أنواع الأسلحة. الحلي من المجوهرات وأنواع الساعات ومن الذهب والفضة والعتيق بأصنافه وألوانه ومن المرجان . محارم من الخيط والقطن والحرير.أنواع الأقمشة المديانية وغيرها.قوالب صابون اوروباوي ممسك . الأرز . أنواع الكولونية من جميع الروائـــح الطيبة . أنواع أقمشة بالفضة . وغير ذلك مما يطول بنا ذكره تفصيلاً . جميع هـــاته السلع تأتي إلى طرابلس من أوربا وتونس والاسكندرية ومنهـا يرفعونها التجار إلى غـــات وغدامس وفزان والأقطار السودانية يذهبون بهـا تجاراً من أهـــل طرابلس وغدامس فتباع بأثمان باهظة .

---

(١) ولست أدري كيف يرى الحشائشي أن طرابلس تستورد هذه الانواع مع أن البلاد اشتهرت بنسج الجرود والحوالي الجيدة بل كانت توردها للخارج .

السلع الخارجة من طرابلس الى اوربا :

ريش النعام بانواعه . ناب الفيل . الزبد . طيور من النعام . وانواع الببغاء . وكل مـــا يأتيها من السلـع السودانية . ويحزم منها القمح والشعير والسمن . والزيت . والفحم والطرونة . والملح . والبقر . والغنم . والماعز . والدجاج . والبيض والتمر . والفلفل . والحنا والفول والعدس والحمص والزيت . ويبـاع بثمن عال في وطن فزان والعسل وغير ذلك .



مراحل الطريق بين طرابلس الى مصر ثم إلى مكة

فصل مهم لزيادة الفائدة :

أذكر في هذا الفصل عدد المراحل من طرابلس الى مبدأ الحـــد المصري ثم منه الى مصر القاهرة . ثم منها الى مكة المشرفة . ويظهر لي ان ذلك هو الطريق الذي قـدم منه الصحابة رضي الله عنهم لغزو افريقية . واذكر في اثناء ذلك الآبار والعيون التي تستقي منها الأركاب ومواقع المياه الحلوة والمرة . واذكر وصف هـذا الطريق الطويل وما فيه من عجائب البناءات والهياكل والمـــدن الرومانية والغابات المتسعة والأراضي الخصبة والقبائل والشعوب . ولا يخفى ما في ذلـــك من الفوائد لمن يروم السياحة . ولم اغفل عن ذكر بعض قبور الصحابة والأوليـاء المشاهير والمعالم . وقد تتبعت ذلك فاستخرجته من الرحال المفيـدة والتواريخ العديدة فنقول باختصار .

يخرج المسافر من مدينـة طرابلس [١] قاصـداً مصر القاهرة صباحاً يبيت بقرية تاجوراء [٢] وقـد مر التعريف بها . ثم منها الى سدرات [٣] العشار بقرب البحر . ومن سدرات العشار الى وادي [٤] الرمـل وهو مكان خصب تخرج اليه مواشي طرابلس . ومنه الى وادي المسيد [٥] . ومن وادي المسيد الى وادي نبوت [٦] فتنزل من جبال مسلاتة ، ومنه الى جبل النقازة [٧] . ومنه الى لبدة [٨] وقد مرت ترجمتها . ومنها الى بلاد ساحل حامد [٩] ومنها الى قرية [١٠] فواد ومنها الى تارغلان [١١] . وفيه آثار رومانية عجيبة منها قنوات تحمل المـاء الى القرية المذكورة من عين يقال لها عين كعام ، وفيها صنعة عجيبة وأبنية غريبة

بحجارة منحوتة تحار فيها العقول. ومنها إلى زليطن (١٢) وضريح الشيخ سيدي عبد السلام الاسمر رضي الله عنه . ومن زليطن الى مسراطة (١٣) . تقدم التعريف بها * وهاته المراحل كلها صغيرة جداً من طرابلس الى مسراطة وقد يقطعها الركب المسراطي في خمسة ايام لكن يسير مع النهار بتمامه شيء من الليل. ومن مسراطة الى قصر احمد (١٤) ومن ورائه لا عمارة الى الاسكندرية هكذا قال التيجاني وغيره وفيه عندي نظرة لان العمارة موجودة كما ستعرفه انشاء الله تعالى. ثم من قصر احمد تدخل الى اول برقة فتجد ما يقال له العريعير موقعه بين السبخة والبحر وبعده ماء آخر . موقعه يقابل بلد تاورغاء يسمى « بوكدية » وتعد هذه البلدة اول برقة وبها اعين من الماء السخن. ولما كنت داخل الى مدينة مسراطة في وقت الضحى رأيت بعيني دخاناً كثيراً في بقاع عديدة صاعداً لى السماء ومتراكماً بكثرة على بعد ، فسألت عنه فأجبت ان ذلك من عيون بلد تاورغاء الحارة. ومن غريب الاتفاق ان كل من يدخل بلد تاورغا يمرض** حالاً ولذلك لا يدخلها السواح ابداً . ثم من العريعير الى الهيشة (١٥) وبالقرب منها سبخة طويلة وعلى جوانبها بناءات قصور خالية وفيها نخيل ما اوحش منظره لما يستشعر بعده من المهامه والمفاوز والمعاطش التي يحار فيها الدليل . كما أنه لا آنس مه منظراً للقادم من الحج لدلالته على انقضاء المسافات والقرب من العماير والمدن. وماء الهيشة ملح أجاج لا يسوغ وليس في مياه برقة أقبح منه إلا مواضع قليلة ولا يستسقي منه إلا المضطر وهو ماء راكد في مواضع كثيرة يحيط به القصب وبآخر سبخة الهيش واد من الملح يجري الماء على أرض من الملح فلا الماء يذوب ولا الملح يجمد. ولم تقطع هذه السبخة الا بعد تعب الركب التعب الشديد. ثم من الهيشة المذكورة الى دار حسان وهي المسماة قصور حسان (١٦)

(*) هكذا يكتب الحشائشي مسراطة والمشهور المتداول مصراتة .

(**) كان ذلك في الماضي أما الآن فقد درست الجهات المهتمة بالصحة أمر هذه العين واعتقد لا خطر منها كما كانت في ايام صاحب الرحلة وان كانت منطقة « تاورغاء » ما زالت في حاجة الى العناية والاهتمام .

قرى خالية لم يبق إلا آثار بنائها أضيفت لبانيها وهو عامل لبني أمية لما نقض أهل أفريقية العهد في آخر خلافة بن مروان فبني هناك قصوراً وأقام ثلاثة سنين حتى فتح أفريقية . وبالقرب منها بير هناك وهي أول عمالة سرت. ثم من قصور حسان إلى الزعفران(١٧) وهي أحساء كثيرة بساحل البحر ماؤها طيب وعليها كثبان من الرمل احمر اللون تظهر من وراء هاته الكثبان قصور سرت وهي ثلاثه قصور تخزن فيها العرب ميرتها . ثم بعد الزعفران المغيربية (١٨) وبإزائها بير طويلة وبالقرب منه معطن يقال له المُدَينَّة تصغير مدينة على ساحل البحر به الماء وبالقرب منه ماء يقال له السلطان(*) وآخر هاته المرحلة مكان يقال له النعيم وفي هاته الأماكن البوادي منتشرة بكثرة . ثم بعد المغيربية الاحمر (١٩) وفيه ماء وأعراب كثيرة ومنه ينقل من الماء ما يكفي خمسة ايام الى مكان يعرف بالمنعم وتسمى هاته المسافة كلها مقطع الكبريت . ثم من الاحمر الى بير ماؤها عذب قرب اليهودية قرى كثيرة متصاربة فيها أثر بناء خال متراكم يدل على أنه كان عمارة .ثم من اليهودية تمر بماء يقال له الغرانيق (٢١) لا يساغ الى سبخة مقطع الكبريت . ثم من سبخة مقطع الكبريت يبيت بالمنعم (٢٢) وهو مكان به أحساء من الماء العذب . ثم ترحل منه وتتايمن البحر قليلاً فتبات ليلتين بالطريق وفي الثالث ليلة تأتي إلى مكان يقال له الجابية(٢٣). وفي هاته المنزلة آثار كثيرة وعمارة وآثار مسجد متهدم وفي بعض حجارته نقشاً ان بناءه تم في سنة ٣٠٠ ثلاثمائة هجرية (الموافق ٩١٢ م) ويفارق البحر الطريق في المنعم فلا يجتمع مع الطريق إلى التميمي . قال التيجاني ** اخبرني سيدي محمد بن مساهل أن هاته المدينة هي مدينة برقة المذكورة في كتب الفقه وقيل هي مدينة بالجبل الأخضر بجانب

(*) تجري حفريات الآن في منطقة « سلطان » وبها آثار مدن وحضارة اسلامية وقد كثرت حفريات العصر الروماني والأغريقي وما حوج البلاد الى الكشف عن الآثار الاسلامية ومنها مدن سلطان في طرابلس وزويلة في فزان واجدابية ببرقة .

(**) الصواب العياشي اذ ان هذا النص يوجد في رحلة العياشي وكان صاحبه عبدالله ابن غلبون المصراتي — ويدل على أن هذا من سهو القلم أن المؤلف اشار في الاسطر الاخيرة الى تصحيح كلام العياشي.

البحر وقد اخبرني صاحبنا سيدي عبدالله بن غلبون أنه رآها وأن رسومها الهائلة تدل على عمارة قوية وفيها آثار سور وابراج ورخام كثير. وقال لي : ان فيها قبر مشهور يزار ويزعم أعراب البادية انه قبر نبي . فقلت له: الغالب على الظن انه قبر صحابي، فقد نص المؤرخون على أن سيدنا رويفع ابن ثابت الانصاري من الصحابة قد دفن ببرقة وهو أمير عليها من قبل مسلمة ابن المخلد. وقتل من الصحابة ببرقة زهير بن قيس البلوي أيضاً ندبه عبد العزيز بن مروان (؟) إلى برقة فلقي الروم فقاتل حتى قتل ، وما ذاك الا قبر أحدهما[1] فإن الكثير من العوام يطلقون اسم النبي على الصحابة وكثيراً ما شهدنا أنهم يعتقدون في أبي بكر وعمر انهم انبياء . انتهى.

قلت وقول العياشي : « وما ذاك إلا قبر احدهما » فيه نظر ، لأن قبر سيدنا رويفع بن ثابت الصحابي ببلد المرج[2] على يومين من مدينة بنغازي وشرقاً فتعين حينئذٍ انه قبر زهير[3] ابن قيس لا ينبغي التردد .

فائدة في مسمى برقة :

فائدة في مسمى برقة في عرف أهل البلد اليوم وهي مسيرة ستة أيام من المنعم إلى سلوق وفيها رسوم آنية كثيرة . واطلاق برقة على ما سواها مجاز علته المجاورة . والجابية المذكورة بينها وبين مصر شهر كما بينها وبين أفريقة شهر ثم من الجابيية الى العباد (٢٤) ومن العباد إلى عرارة (٢٥) وفيها ماء كثير.

---

(١) ان كانت مدينة اجدابية فهو مسجد سحنون وليس به صحابي وان كانت مدينة البيضاء فبها قبر الصحابي الجليل رويفع بن ثابت الانصاري اما الصحابي الجليل الشهيد زهير بن قيس البلوي فهو دفين مدينة درنة كما هو معروف .

(٢) من المعروف تاريخياً ان قبر الصحابي رويفع بن ثابت بالبيضاء لا بالمرج كما اشار الحشائشي خطأ وبين المرج والبيضاء مائة كيلومتر .

(٣) زهير بن ثابت الانصاري الصحابي وقع شهيداً في مدينة « درنة » وعلى قبره مسجد الآن وهكذا تضم ليبيا من الصحابة الاجلاء منيذر بطرابلس وزهير بدرنة ورويفع بالبيضاء . واما الصحابة الآخرون المستشهدون مع زهير وعددهم حوالي الأربعين فقد طال بحثي عن معرفة أسمائهم رضوان الله عليهم . ولم استطع معرفة اسمائهم .

ومن عرارة إلى سلوق (٢٦) وهي آبار متعددة كآبار الجابية في صفاتها ومائهـــا وبأزائها رسوم بناء. وهذا المورد هو آخر برقة الحقيقية كما مر، وتسمى برقة الحمراء. ومن هنا يعطف طريق آخر الى مدينة بنغازي بينها وبين سلوق المذكور مسيرة يوم واحد ثم من سلوق تترك طرق الجبل لوعرها الى سفح الجبـل (٢٧) ثم من سفح الجبل إلى القرض (٢٨) وبينهم مـاء كثير ثم من القـرض الى الخروبة (٢٩) وبينهما ماء كثير ثم منها الى وادي ساملوس (٣٠). وجميع هاته المراحل منتشرة بها اعراب الجبل الاخضر بأنعامهم وبهـا أسواق كثيرة لهم وبهـا سيول وشعاب منحدرة من الجبل يتكون فيها ربيع عظيم الخصب تنال منه الجمال الحظ الاوفر. قال الشيخ العياشي — وعندما كنا بهاته المرحلة جاءت لنا قافلة من الأعـراب تحمل تمراً كثيراً قدموا به من بلد سيوة يريدون بيعه وصادفوا حاجة الناس اليه فأخذ الحجاج منه كفايتهم بارخص ثمن . وتمر سيوة من أحسن التمر لوناً وطعماً ولا انظف ولا انقى منــه لأن عاداتهم لا يحملونه الا في قفــاف من الزعف كل واحدة قريبة من نصف قنطار يجعلون لها معاليق تعلق بها على اقتاب الجمـال فيحمل الجمـل منها عشراً أو اكثر على حسب صغرها وكبرها . ثم من وادي سملوس الى قصر (٣١) المخلي وفيـه ماء كثير في مواجـل وهناك جابيتان متلاصقتان مبنيتان بالحجارة المرصوصة بناء متقناً طول كل واحدة منهما مائتا ذراع تجلب لها الميـاه الجارية من سفح الجبل ولا تخلو دواماً من المـاء ، وهذا القصر من اعظم القصور الخالية التي بقيت رسومها في تلك البـلاد وفيــه اثر مسجد ومنارة باقيـة ومنه الى المبنية (٣٢) بيسـات وهي قرية خالية مشرفة على وادي كبير . ومنه الى التميمي (٣٣) وماء التميمي ملح اجاج وفيه مواجل في الحجر لماء المطر . ومن التميمي هذا الى مدينة درنة يوم ونصف ثم من التميمي الى عين الغزالة (٣٤) . وبها عين من الماء العذب وأعينها بعض ملوحة يسيرة تصب في بحيرة منقطعة عن البحر يدور بها القصب من اكثر جهاتها ، وليس في جميع برقة ماء يجري الا هذا . ومن عين الغزالة الى الارض الطيبة (٣٥) وهي أرض كلها مخططة بالحرث وآثار البنـاء متصلة بجميع اطرافهـا وعلى الطريق بيت

منحوت في الحجر .

وصف بيت منحوت في الحجر :

طوله عشرون ذراعاً في مثلها عرضاً وفي داخله بيت آخر نحو نصفه وله غرف صغار كأنها مخازن ، الجميع نقراً في الحجر مربعاً كأحسن ما انت ترى من البيوت وباب مربـع كأحسن الابواب . وقد حـكى العبدري وصف هذا البيت واجاد فيه .ومن الأرض الطيبة الى المدار مكان فيه ماجل كبير مملوء بماء المطر ومنه الى مقابل تفنة وهي منهل على ساحل البحر تمر عليه الأركاب وقت الصيف وعند قـلة المطر وتمر ايضاً على مكان يقال له : الفريض وفيه مواجل ومزارع محروثة الى سطح العقبة [37] ثم من سطح العقبة تسير على سطحها وهى ارض مستوية لا شيء فيهـــا الا آثار البنـــاء القديم وبعض آثار المزارع الى فم العقبة [38] الكبرى . وفي وسط هاته العقبة قبر يزار يقال له : قبر سيدي عزيز من عرب ساملوس تأتيه العرب بإبلهم وغنمهم يمرون بين كومين هناك ويزعمون ان من يمر بها لا تصيبه آفة في تلك السنة ويقتدي به بعض أركاب الحجاج .

فائدة في انقسام ارض برقة في عرف أهلها :

فائدة في انقسام أرض برقة في عرف أهلها ، على أقسام أربعة أولها من حسان التي ما وراء الأحمر بيومين يسمى سرت . ومن هناك الى قرب المنعل يسمى برقة البيضاء . ومن هناك الى سلوق يسمى برقة الحمراء ومنه الى التميمي يسمى الجبل الاخضر ومنه الى العقبة الكبرى الى العقبة الصغرى يسمى بين العقاب . ومن العقبة الصغرى الى الاسكندرية يسمى العقبة الصغرى . ثم نرجع لما كنا له من ذكر المراحل فنقول : ومن فم العقبة الى بقبق [39] الى ماء يقال له الغشيل يعني معجمة ثم ثاء ثم ياء ساكنة ثم منه الى ماء يقال له شماس [40] وقريب منه آخر يقال الفوار . وهاتان المرحلتان كلتاهما فيها البناء المتصل حتى لا يكاد ميل واحد يكون خالياً عن البناء والجميع خال من الناس. ثم من شماس تمر على ماء يقول له حلق الضبع وفوقه غدير كبير في أصل جبل صغير قلما يخلو

من الماء الى قبر العاصي [٤١] وفيه قبور كثيرة معلمة بأحجار . ثم ترحل من قبر العاصي وتمر بماء يقال له : العبدية على شفير البحر وبإزائه ماء آخر يقال له : مطيريح مصغراً، وهي آبار متعددة قريب ماؤها في بسيط من الأرض وبعده ماء آخر يقال له : مطروح [٤٢] وفي هاته المباتة تستقي الناس ابلها لأن ماءها حي ناعم. وفي المراحل قبلها تكاد ان لا تشرب لأنها ترعى العشب الرطب والابل اذا وجدت الكلأ لا تشرب . ثم من مطروح الى العقبة الصغرى وفيها ماء بير طويلة لا يجلب ماؤها الا بالحبال لطوال ثم منه الى ماء يقال له : جميمة ، وهي احساء كثيرة في رملة بيضاء ماؤها طيب قريب من أحسن المياه مساغاً ، واقام الناس بها يوماً لتحمل الماء ثم رحولاً منه ونزولاً بماء يقال له : العبيديين وهي آبار في صخر بشاطىء البحر عليه بناء محكم في غاية الإتقان كهيئة ابراج الاسكندرية، ومن هنا ينعطف الطريق على اليمين الى الاسكندرية ومن العبيديين الى وادي الرهبان ٤٥ لأن النصارى يتعبدون به في ديور أربعة كل طائفة في دير ولا يدخل منهم أحد من غير جنسهم وليس لهم هناك الا العبادة ويبعثون اليهم بالنذور ولصدقات من الطعام والكسوة . ومنه الى وادي آخر [٤٧] ومنه إلى مكان مقابل المنصورية [٤٨] ومن هناك تظهر قرى الريف المصري ، ثم ارتحالاً منه ومروراً بين القرى الى خارج انبابه [٤٩] ومن انبابه تقطع النيل وتنزل بولاق[٥٠] ، ومنه الى قاهرة مصر . وهاته المراحل يقطعها الانسان من طرابلس إلى مصر اذا كان النهار طويلاً ووجود الماء والكلأ وشبع الجمال والمعتاد قطعها في شهرين أو أزيد من ذلك .

فصل في ذكر المراحل من مصر إلى مكة المشرفة :

يخرج الركب من مصر القاهرة متوجهاً إلى مكة المشرفة فينزل قبل الظهر بالبركة ، والطريق من مصر إلى البركة [١] كأنه سوق واحد من كثرة الذاهب والراجع ، وكثرة الباعة لأنواع الطعام على الطرقات – والبركة هي محل نزول

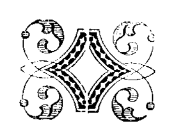
الركب في فسيح من الأرض على شط بركة واسعة يتموج فيها ماء النيل العذب ، تنصب الأسواق الحافلة بشط البركة والقلهـاوي المزخرفة والفساطيط المرونقة ، ويخرج غالب أهل مصر لوداع الحجاج والتفرج والتنزه هناك في بساتين ومقاعد على شاطىء النيل المنصب في تلك البركة . وفي جانبها الغربي قرى كثيرة في أحدها مسجد الشيخ سيدي ابراهيم المتولي ثم رحولاً من البركة وسيراً في أطيب هواء إلى الحمراء[3] (؟) ومنها إلى عجرود[4] وماؤها يضرب به المثل في القبح ثم من عجرود إلى النابغة [5] . ومن النابغة الى وسط وادي الخروب[6] ثم منه رحولاً وسيراً في الوادي مدة . وتمر بالعقبة المشرفة على التيه وهي عقبة فيها بعض صعوبة وتنزل منها إلى أرض التيه مقفرة موحشة طويـلة معطشة الى النخيل[7] ورأس وادي المنصرف ينزل الركب بوادي المنصرف .

بينزل الركب بوادي المنصرف	وعلى لقياه كم مال صرف
فحمداً لله الذي جينـا له	وجميع الهم عنـا منصرف

ثم من النخيل الى بير الصعاليك[8] ويسمى بير البارد وحوله بناء وماء بارد إلا انه لا يشرب منه الى سطح العقبة [9] ومنه الى البندار[10] وفيه حصن حصين في قرية على شاطىء البحر في سفح جبل وبها آبار كثيرة وفيها نخيل وسوق كبير يحضره أهل غزة وتأتيه الأعراب بالابل والغنم والعسل والسمن والعلف للدواب ومنه إلى وادي [11] بشاطىء البحر وبه الماء العذب يقيم الركب في الغالب بهذا المكان ثلاثة أيام لنزاهته ووجود اصناف الخيرات من الفواكه والغلال والأنعام من بلد غزة ومنه إلى ظهر الحمار [12] وفيه موضع يسمى جعاير النخل وقلما يخلو من عمارة وماؤه طيب ومنه وتخلف البحر يميناً ومنه إلى شرفات [13] بني عطية وهم عرب هاته البلاد ويقال لهـذا المكان عش الغربان ومنه الى بولاعظام[15] ومنه إلى المكان المعروف بمناير شعيب . ومنه الى عيون[16] النصف والديس وهو ماء جاري في مضيق بين جبلين وهو محل زراعة وخصب والبحر بها زائك إلى منزل المويلح نزولاً وفيه ماء كثير حلو وفيه قصر كبير فيه عسكر وأمـير

ويخزن فيه المؤنة والفول كثير هناك وعلى بابه سوق يوجد فيه غالب ما احتيج اليه ، وفيه غلال كثيرة وبه مرسى حسنة تنزل منها السفن القادمة من السويس ومن جدة ومن القصير ومن المويلح الى الموضع المسمى بشرق العجوز [18] . ومنه تمر بقبر سيدي مرزوق الكفافي على ساحر البحر الى بندر[19] الأزلم . وتمر على اسطبل عنتر وفيه ثلاثة آبار مبنيا بحجر منحوت وماؤها حلو للغاية ، ثم تمـــر بوادي الأراك وهو وادي واسع الأطراف يأتي من ناحية الشمال والبحر عـــن يمينه قريباً منه وفيه كثير من شجر البراك الأخضر الناعم الى بندر[20] الوجـــه نزولاً وفيه حصن حصين . ثم رحولاً ونزولاً دون المكان المعروف [21] بالأكره ثم منه رحولاً وتمر بالأكره ظهراً وهو وادي كبير [22] تأتيه السيول من بلاد بعيدة يذكر ان سيل المدينة المنورة يصل إليه. وماؤه قبيح جداً ويبات الركب في هذا الوادي ثم منه إلى الموقع المسمى بين الدركين [23] وهي منزل الحاج المصري. وإنما سمي بذلك لأنه بين درك أعراب مصر وأعراب الحجاز . فهو الحد الفاصل بين الحجاز ومصر وبعده إلى العقبة [24] السوداء وهي اول أرض الحجاز ثم رحولاً ومروراً على وادي النبط وفيه آبار محكمة وماؤها عذب ، وعلى الحظيرة وهي محل الركب المصري ، ثم منه تأتي ليلاً بلاد الينبع [25] وهو أول بلاد الحجاز العامرة . وفيه أشجار كثيرة ونخيل ومزارع وعيون جارية وفيها عامل لأمير مكه المشرفة. وقد أخبرني بعض من طلع من وادي الينبع ان عمرانه متصل نحو الثلاثة أيام والقرية التي ينزل بها الركب هي آخر القرى التي من ناحية البحر وليس بعدها الا ينبع البحر الذي هو المرسى . ثم من بلاد ينبع إلى السقايف[26] ويقال لها دار الوقدة ثم رحولاً منها ونزولاً ببندر[27] ثم قرية بدر وحنين ثم قرية فيها نخيل وآبار ثم نزولاً بالجحفة [28] وبيات ومنها تمر ببطن هرشا وبقرية قدير وتبات بخليص[29] . ومنها الى قرية عسفان وفيها سوق وآبار وفيها البير التي قفل فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم إلى وادي العميان [30] ثم منه إلى مر الظهران وهو المسمى بوادي الشريف وهو وادي كبير فيه قرى متعددة ذات نخـــل وبساتين وعين كبيرة تجري وأعظمها القرية التي ينزل بها الحجاج .

تنبيه : قال العياشي نقلاً عن البكري: ثم بعد ذلك نزلنا بستان القاضي [٣١] ثم منه نزلنا برابغ[٣٢] محل الميقات وتجردنا من لبس المخيط ثم سرنا الى الجرينات ونزلنا بطارق[٣٣] مديد ثم سرنا منه إلى عقبة السويق[٣٤] ثم منها الى خليص[٣٥] . ثم منه الى المكان الذي يجتمع فيه الفقراء بقصد الاحسان وهو وادي خصيب . ثم سرنا إلى سبيل الجوخي المعروف ومنه رأينا جنات مكة دانية القطوف ثم سرنا بمساجد ميمونة بالعمرة ثم وصلنا تنية كُدا وبعدها المعلى التي بها مساجد أهل الهدى ثم دخلنا باب السلام وشاهدنا البيت والمقام والحمد لله على السلامة والسلام .



مسكوكات القطر الطرابلسي ومعادنه

المظاهر الطبيعية

مسكوكات القطر الطرابلسي :

تنبيهات مهمة تفيد محب لاطلاع . الأول في مسكوكات القطر . تختلف مسكوكاته بحسب البلدان والبقاع ،فالدور والمعروف عندهم ببوطيرة وهو سكة متساوية على أحد وجهيها تمثال طائر كالعقاب صرفه في بلد غات وجميع بلدان السودان اربعة وعشرين قرشاً عبـارة عن خمسة فرنك الا ربع الفـرنك وفي طرابلس صرفه ثلاثة عشر قرشاً وفي بنغازي وفزان ستة عشر قرشاً. وعلى هذا فإن بوطيرة هو ارفع سكة يرفعها معها من يقصد التجارة في نواحي السودان ،— الليرة العثمانية صرفها في غات مائة وثلاثـين قرشاً وفي طرابلس صرفهـا مائة وأربعة وعشرين قرشاً . الليرة الانـكليزية ومثلها الافرنسية صرفها في السودان وغات ومرزق مائة وستة عشر قرشاً الواحدة تنقص عن اللـيرة العثمانية ١٤ قرشاً . التنبيه الثاني ان من حل بغات وكانت معه سكة بوطيرة او ليرة عثمانية يجب عليه أن يشتري بها سلعة من هناك لانه لا يمكن له الرجوع بها إلى طرابلس أو غير ذلك من المراسي لنقصانها بالأماكن المذكورة ولهذا تبقى هاته السكك بغات ولا تخرج منه إلا السلع فاعرفه ، وهذا الأمر اتفق عليه تجار غات لأجل ان تخرج لهم جميع انواع السلع السودانية التي عندهم ضرورة أن التاجر اذا حل بغات دفع الدراهم وأخذ السلعة .

انواع المعادن بالقطر الطرابلسي :

التنبيه الثالث ، في انواع المعادن الموجودة بالقطر الطرابلسي : توجد بالعمالة

الطرابلسية معادن كثيرة. فيوجد بسرت معدن الكبريت بكثرة، ومنه يأخذه أهل الصحراء لمداواة جمالهم . وقد شاهدت هاته المعـــادن وهى حفر بالارض يرفعون منها الكبريت مثل العجين ويوجد الفسطاط بكثرة في جبـــال ودان وغيره . ويوجد بجبال السودة الحديدة غربي بلد سوكنة . ويوجد بعض مقاطع الرخام والمرمر .فكثيراً ما كنت أرى بعض قطع من المرمر والرخام ملقى على الأرض دفعته سيول جبال ودان إلى المرج [1] كما كنت أرى كثيراً مـن قشور البيوش الكبير ملقاة على وجه الفلاة التي لا نبات فيها. وكثيراً مانرى أيضاً كور مثل البردقانة في الجرم بيضـاء اللون فنكسرهـا ونجد بها حبة مثـل اللؤلؤة العظيمة . ويوجد بالقطر المذكور الطرونة وهناك سبخة عظيمة جوفي بلد مرزق تنبت بها الطرونة التي كنت أحسبها من نوع الاحجار المعدنية بل انهـــا نبات ينبت بالماء وطعم هذا النبات في حالة طراوته يماثل طعم الحوت البنزرتي تأكل منه أهل مرزق وأكلت منه فوجدته لذيذاً لا فرق بينه وبين عظم الحوت البنزرتي كما علمت ،وفي فصل الصيف يتحجر هذا النبات فيصير طرونة .وفي كل عام في زمن الصيف تخرج من مرزق لجنة بأمر الوالي تتركب من ضابط وأمين وعدلين مثل لجنة قيس المـزارع عندنا فيخرصون كم في السبخة المذكورة من قنطـار من الطرونة لأنها تخصب في بعض السنين وتقل في بعض ثم ترجع اللجنة . وفي العام المتوسط تخرص بأربعة آلاف قنطار من الطرونة تكتري لها الدولة مقدار أربعة آلاف جمل ترفعها إلى طرابلس لتباع هناك . وهناك سبخة اخرى ببلد غات إلا أن الدولة لا تأخذ منها شيئاً . ويوجد الذهب في أرض كاوار وتبو كما قيل والله اعلم . وهناك أودية وسباخ من البلح بفزان ومسراطة وبنغازي وغيرهم ويوجد بغات مقاطع الأثمد .

انواع النباتات :

التنبيه الرابع. في نبات عموم القطر وانواع ذلك. الشيح . العرفج .القطابة .

---

(١) يقصد بالمرج هنا الوادي .

الزرب . الجداري . العرعار . لزبور . الطلح . شجرله شوك عظيم . الزعتر . الاكليل. الرمث . الحنضل . وغاسوخ الصبغ . والشجر المعروف عندهم بالعشر وهو شجر ناعم [1] النبات شديـــد الخضرة الى السواد وله اوراق عظيمة ونور مشرق حسن المنظر وثمره اخضر كالأترج تملأ الواحدة يد حاملها مملوء بشيء يشبه القطن تسميه العرب الخرفع بضم الخاء وسكون الراء وضم الفاء وربمـــا حشيت به المرافق والوسايد وربمـا صنع به الثياب ومن شعراء العرب من شبه به لغام ناقته —

يضحى على خطمها	من فرطها زبـد
كان بالرسن منها	خرفعها ندفـــا

واكثر ما رأيت من هذا النبات بالقرب من وادي الرمل قبـــلة طرابلس بمراحل ثلاث .

وادي بني وليد :

ويوجد في الجهة الجوفية من عمل طرابلس مكان عظيم يقال له وادي بن وليد يقال ان هذا الوادي طوله مسيرة عشر أيام لم تخض قدمي ترابه وجميع نباته زيتون وكرم ونخيل واعنب ورمان وخيرات حسان وهو تحت نظر متصرفية الجبل .

الأراضي الخصبة والقاحلة

التنبيه الخامس ، في الأراضي الخصبة والقاحلة . اعـــلم ان الأرض التي هي قريبة من البحر بمسافة يوم أو يومين أو دون ذلك فمن الميان الذي هو الحد بين

(١) وصف الحشائشي لنبات — العشر — ماخوذ من رحلة التجاني . والبيتان من الشعر أورد أولها التجاني على ان ابا حنفية انشده لاحد الشعراء وفي لسان العرب ورد هذا البيت في الجزء التاسع ص ٤٢٢ برواية أخرى .

عمالة طرابلس والقطر التونسي الى ان تبلغ الحدود المصرية آخر تراب الجبل الاخضر ما يقرب من السبعين مرحلة بالسير المتوسط كلها اراضي طيبة صالحة للفلاحة خصوصاً برقة وسرت والجبل الاخضر . وهاته الاراضي عظيمة المنافع متسعة جداً بها النخيل وهو الغالب والكرم والعنب واصناف الفواكه والغلال الطيبة والخضر خصوصاً ببنغازي والجبل الأخضر . والمياه كثيرة والغالب لآبار وواحات فزان تقدر بثلاثمائة واحدة كلها أراضي طيبة غالب نباتها النخيل وفيها الميـــاه العذبة من العيون والآبار وجبل غريان ونفوسه فيهما الأراضي الطيبة . ويوجد مكان يقال له « الهاروش » في اقصى بلاد فزان قريب من المجهل العظيم الداير بواحـة « الكفرة » جميعـه خصب ومرعي للجمال . وباقي الأراضي الطرابلسية كلها قفار ومجاهل متسعة وجبال لا نبات فيها .

اوصاف بعض الأراضي والجبال بطرابلس :

وكثيراً ما توجد جبال من الرمل عظيمة رحالة خصوصاً في اطراف البساط المسمى بالقاف بين بلاد الزيقن وجبال السودان . وتوجد جبال ذوات ألوان صفر وخضر وكحل،وتوجد بها صحراء الطفل من جهة ليبية قرب الحدود المصرية . وتوجد بها اراضي كثيرة متسعة جداً من جهة فزان مسيرة مراحل عديدة كلها احجار لونها كالقار وجبال ملس خالية من النبات وتنايف وكأنها مبسطة لا ترى فيها حصاة ولا شيء من النبات قل أو جل . ولكن يا اخي ما احلى مناظر هاته المناظر الطبيعية خصوصاً ساعة الرأد والطفل. وما اسعد ليالي الصيف في تلك البقاع حين يهب الصبا القبلي المكروه في الأوطان التونسية لأن صباها الشرقي كما علمت في ما مضى . فيغشاك بعد حر الهجيرة الفتاك نسيم يلين الجلمود ويورق بعد المحل منه العود .

الوحش والطيور وذوات السموم وغيرها :

التنبيه السادس ،فيما يوجد في القطر الطرابلسي من الوحوش والطيور وذوات

السموم وغيرها فيوجد : الأسد. والنمر . والضبع والذئب والثعلب. والأرنب والغزال . وبقر الوحش . والوعل . والفرطاسة ذات القرون . والنعام فيما بين مرزق وكاوار والظربان ذو الشوكة والقنفذ. وغير ذلك. ومن الطيور: العقاب. والنسر . والغراب . والقطا . والحجل . والإمام . والحمام . بكثرة خصوصاً في القرى . والدرج . والقويع . والزراغة . والترد خصوصاً الحجل في سرت ومسراطة وبو نجيم فإن هناك جنداً منه لا يعلم عددهـا إلا الله . ومن ذوات السموم هم على اختلاف في الذوات ومن ذلك رفص الجبل المسماة بالتافرجة . والعقارب والحناش على أصناف كثيرة والثعبان. ومن الحشرات النمل على أصناف منها الأكحل الغليظ . والاحمر الرقيق وغيره . ومنها الخنافس على انواع أيضاً والوان منوعة ، ومنها من له أجنحة يطير بها والجراد اصناف ذات الوان .

لا يوجد في الصحراء البق و البرغوث و الناموس :

ولايوجد بالصحراء البق والبرغوث والناموس الا ببعض المدن والقرى ويوجد القراد بكثرة . اماالقمل فيعم جميع البقاع .

الجمال الطرابلسية لا تحمل الزاد في السفر :

التنبيه السابع ، إن الأركاب الصحراوية والقفول الطرابلسية المسافرين في أنحاء القطر ما بين السودان وطرابلس وغيرهما لا ترفع معهـا زاداً للجمال بل زادهـا الرعي من نبات الارض في حال سيرها وعند استراحتها .

هبوب الرياح في القطر :

التنبيه الثامن ، اكثر الرياح هبوباً بتلك الاقطـار الغربي والجوفي في زمن الشتاء . والقبلي والشرقي في زمن الصيف . والشرقي يهب عندهم حاراً كالقبـلي عندنا في زمن الصيف .

جمود المياه بالصحراء وفزان :

كما ان الغربي يهب بارداً ويقع به الجمود في زمن الشتاء فيصير المـاء في القرب كالحجارة أو أشد قسوة ، حتى اذا أراد الناس الشرب جعلوا القربة فوق الأرض وأداروا بها حطباً فاوقدوه حتى يصير ناراً تتأجج فبذلك يذوب ماء القربة من حر النار فتشرب الناس، وهكذا العمل. وقد شاهدت ذلك عندما كنت في مكان يقال له « بساط مصلا » قريب من بلد سبهة ووقع لنا جمود وحسبت برداً لا طاقة لي به ولم ينفع الا الاصطلاء ولذلك لن ترى الأركاب =

يقل السفر بالصحراء في فصل الشتاء :

= تسافر بالصحراء في فصل الشتاء الا المضطر .

الجمال ينهكها البرد وينعشها الحر كالنخل :

لأن الجمال يؤثر في اجسادها البرد ، ويقويها وينعشها الحر مهما زاد درجة فهي كالنخل من هاته الحيثية .

الجمال الصحراوية تأكل الملح اياماً في السنة :

التنبيه التاسع . الجمال الصحراوية اذا لم تعلف الملح اياماً في السنة فانه يقـع فيها الموت. وغالب سكان الصحراء الشرقية يأخذون الملح لجمالهم من بلد « بلمة » فإن هناك سبخة عظيمة ومنها يأخذ اهل «الشاد» وبعض بلدان السودان .

احسن ما تتعاشر من سكان عمال طرابلس :

التنبيه العاشر . احسن ما تتعاشر من سكان الاعمال الطرابلسية السنوسيون على الاطلاق كيفما كانت قبائلهم وشعوبهم .

لله در عصـــابة نادمتهم ... يوماً بجلق في الزمان الأول
يغشون حتى ما تهر كلابهم ... لا يسألون عن السواد المقبل

ثم أهل فزان عموماً .

انواع الامراض والعلل بعموم طرابلس :

التنبيه الحادي عشر . في الأمراض والعلل . اعلم أن غالب الناس بالصحراء الوسطى والشرقية وفزان وغات يموتون بمرض الحمى لأن المرض المنتشر بتلك الجهات هو الحمى ، والمسافر الاجنبي عن تلك الاوطان يمرض في الغالب اذا حل بها مرة واحدة فإما أن يموت أو يسلم فإن سلم لم يعد له المرض مرة ثانية . وعندهم مرض الأعين بكثرة خصوصاً فيما بين سوكنة ومرزق وما أحوجهم بطبيب للأعين .

حالة القراءة والكتابة بعموم القطر :

التنبيه الثاني عشر . اعلم ان غالب سكان [1] القطر لا يعرفون القراءة والكتابة إلا بعض من أهل المدن والقرى .

حالة العلوم والمعارف به :

اما العلوم فلا توجد لها أثر الا بجغبوب كما عرفت ولا عندهم معارف عصرية [2] مستكملة الا بعض اناس متفننين بطرابلس وبنغازي وبلد هون من فزان وقد تقدمت الاشارة لذلك مراراً .

التنبيه الثالث عشر . اخبرني بعض أعيان طرابلس أن عدد سكان الأيالة الطرابلسية ينيف[3] على المليون من الأنفس وذلك على سبيل التقريب لان التحقيق

---

(١) كان ذلك قديماً في اواخر القرن الماضي اما الآن فان الأمية بدأت تتلاشى في ليبيا .

(٢) يحكي المؤلف عن فترة ماضية ،اما الآن فان في ليبيا حركة علمية ونشاطاً ثقافياً والتعليم في جميع مراحله مجاني وستؤدي ليبيا دورها في مجال العلم والفكر لتعوض ما فاتها وبها جامعتان وآلاف من الخريجين .

(٣) كان سكان ليبيا ما يزيد عن المليون والنصف ثم جاء الاستعمار وقام الشعب يدافع عن كيان الوطن وتوالت معارك الجهاد وقدم الشعب نصفه في ميدان التضحية وكان منه الشهداء والمهاجرون والمشردون ... وثلاثون عاماً من حركات النضال اذابت نصف الشعب ... ثم ... عاد الى الاستقرار بعد الاستقلال وفي الاحصاء الاخير الذي اجري عام ١٩٦٤ كان تعداد الشعب الليبي ١٥٥٩٣٩٩ مليون وخمسمائة وتسعة وخمسين الف وثلاثماية وتسعة وتسعين نسمة .

لم يعلم الى يومنا هذا .

التنبيه الرابع عشر . في حالة الترك مع اهل البلد – بلغني حين كنت بمدينة طرابلس ان غالب الاعيان يميلون الى الترك بقلوبهم ويوجد بعض على خلاف ذلك متعلّلين بكثرة الضرائب وفي التحقيق لا اصل لذلك وحيث لم يطل بنا الاقامة في المدينة فلم اتمكن من الاطلاع على التحقيق والله اعلم بحقيقة الحال .



الحرب بين ايطاليا وتركيا في ليبيا

ابتداء الحرب (واسبابها) :

حيث تم بنا القول على ما يتعلق بعموم القطر الطرابلسي على حسب الامكان لزم ان نذكر نبذة من الكلام فيما يتعلق بذكر تاريخ ابتداء الحرب الحالة بين الطليان والعثمانيين واسبابها مع بعض حالتها الراهنة واحوال البلاد في يومنا هذا [١] على سبيل الاختصار المفيد فنقول والله المستعان .

عدم وجود اسباب عدوانية بين ايطاليا وتركية قبل الحرب :

لم يكشف لنا التاريخ العصري عن أسباب عدوانية وقعت بين الدولة العثمانية ودولة ايطاليا مع وجود مناهل العيون السياسية متدفقة في رياض صحائف العالم الأرضي وبذلك لا تخفى خافية عما يتكدر من المناهل الصافية بين الدولتين بل بقيت العلائق بينهما ودادية والسياسة ودية محكمة الارتباط إلى شهر جولية سنة ١٩١١ .

تصريح وزير خارجية ايطاليا بالود لتركيا :

ولقد كان الوزير «دي صاد جوليانو » صرح في خطاب القاه بمجلس الأمة الطلياني يوم ٣ ديسمبر سنة ١٩١٠ قائلاً : ان بقاء طرابلس ولاية تركية مما يسر

---

(٢) اي عام ١٩١١ حيث كان المؤلف يراجع كتابة رحلته ! .

ايطالية ويهمها على شرط الا تصير أرجحية النفوذ فيها لبعض الدول الاجنبية « ويفهم من هذا ان اي دولة كان لها نوع نفوذ بطرابلس يهم مصالح الدولة الطليانية وربما تحدث بسببه الحرب » .

اعتراف مسيو بيشون وزير خارجية فرنسا بان سياسية ايطالية في حفظ كيان الدولة والتركية موافق فرنسا :

وفي جانفي اعترف الوزير المحنك المسيو بيشون بمجلس الامة الفرنسي بأن تصريحات المركيز دي صان جوليانو يخص كيان حفظ السلطة العثمانية موافقة لمقاصد فرنسا وزيادة على ذلك فقد أكد وزير الخارجية الطلياني في جوابه عن سؤال عرضه عليه الدوق « كرافه داندريه » أن سياسة ايطاليا مبنية على كيان حفظ السلطنة العثمانية وان للمصالح الطليانية في البحر المتوسط كفالات كافية من الاتفاقات الموجودة بين ايطاليا والدول . وقد اطمأن الاتراك بهذه التصريحات ولذلك منحوا الطليان ترضية تامة في المسائل المسماة بمسألة « الحديدية » وقارقة . والصحافي [1] غزمان . وفي ٦ جانفي تبادل وزير خارجية ايطاليا وتركيا رسائل التهنئة بالسنة الجديدة . وفي ٢٠ مارس بعث وزير الخارجية العثماني لزميله الطلياني برسالة في تهنئته بعيد الوحدة الايطالية وفي٢٦ منه أقاموا احتفالاً بالآستانة لوضع الحجر الأول لسراية السفارة الطليانية الجديدة بالآستانة. وقد شاركت الحكومة الطليانية في هذا الاحتفال الحكومة العثمانية بالمودة وكامل السرور وحضر لذلك وزير خارجية الترك . ومما يدلك أيضاً على زيادة العلاقة والارتباط بين الدولتين أيضاً ما نشرته جريدة « اليتي مرسي » قالت :

وفد السلطان لتبليغ هناء الملك بعيد الوحدة :

وفي أواخر جوان قدم وفد تركي إلى رومة لتبليغ هناء السلطان للملك

---

(١) الصحافي غزماناو كوزمانله أزمة طويلة الذيل كانتمن الاسباب التي انتهزتها ايطاليا.

بمناسبة عيد الوحدة الطليانية . إلا أنه كان يظهر عن لهجة جرائد الدولتين يومئذ بعض إحساسات في شأن طرابلس ومن الجرائد التي امتازت في ذلك بشدة لهجتها جريدة « استانيا » التي تطبع بتورينو وهي التي اشتهرت بين الناس فإنها ملقنة من السنيور « جيبلولتي » وجريدة « المرصاد » التي تطبع في طرابلس [1] .

تكذيب ايطاليا لوقوع مخابرات بشأن طرابلس :

غير أن الحكومة الطليانية كذبت في الجرائد المعتبرة ما حققته الصحف من وقوع مذكرات بشأن طرابلس وخصوصاً ما زعموه من أمرها بحشد العساكر وجمع سفن الاسطول والتهيؤ للحرب وهذا لا يدلك على حسن العلائق بين الدولتين .

عدم ركون الأتراك لتكذيب الشائعات وسفر الباخرة درنة لطرابلس :

أما الاتراك فلم يركنوا لتلك التكاذيب ولذلك قررت الوزارة العثمانية في ٢٢ سبتمبر بتعزيز المنظمات العسكرية بطرابلس وكلفت « احمد فيضي باشا » بقيادة القوات العثمانية المحافظة على الولاية وأمرت بإرسال نجدات عسكرية اليها . وفي اليوم نفسه احيل سفير تركيا برومة على المعاش ولم تعين الدولة خلفه وكذلك السنيور فاروني سفير ايطاليا بالآستانة وان كان تعين منذ ٢٤ جوليه لكنه لم يلتحق بمركزه إلى ذلك الوقت . وفي يوم ٢٤ اليوم نفسه سافرت « الباخرة درنة » من الآستانة مشحونة بالعساكر والأسلحة والذخائر الحربية قاصدة طرابلس فوصلتها يوم ٢٦ من سبتمبر .

ثوران العلائق بين الدولتين :

وفي ذلك الوقت أخذت العلائق تثور بين الحكومتين . وقد احتج الوزير

---

(١) كان يحررها الصحافي احمد الفساطوي وكان لها قبل الاحتلال الطلياني الغابر دور في الحركة الوطنية وكانت تفضح صحف ايطاليا واغراض المخططات الاستعمارية – راجع الفصل الخاص عن جريدة المرصاد في كتاب – صحافة ليبيا في نصف قرن تأليف علي مصطفى المصراتي .

« دي صان جليانو » لدي الباب العالي على ارسال « الباخرة درنة » بدعـــوى أن وصول العساكر والأسلحة والذخائر الحربية إلى طرابلس لا بد أن يثـــير تعصب المسلمين ويحدث أخطاراً للسكان الطليانيين . وقد سلم « دي مـــارتينو » المكلف بالسفارة الطليانية هذا الاحتجاج للصدر الأعظم يوم ٢٥ سبتمبر ١٩١١ وحيث أن الحكومة لم تعطل سفر الباخرة « درنة » أي لم تعـر الاحتجـــاج الطلياني جانب الالتفات .

البلاغ الأخير بين الدولتين :

فقد سلمت الحكومة الطليانية ليـلة ٢٧ سبتمبر للحكومة العثمانية البـلاغ الاخير وصرحت فيه بأنها ترى نفسها مضطرة من أجل حماية حياة رعاياهـــا وحفظ أملاكها لاحتلال طرابلس وبرقة بالقوة العسكرية .وضربت للباب العالي أجلاً مدة ساعة للجواب . وهكذا كانت الحرب إذ ذاك في حيز الاستعار .

الاعلان بابتداء الحرب :

ومن الغد أي يوم ٢٩ سبتمبر اشهر « دي مارتيو » الصدر الأعظم بأن الحرب تبتدىء يوم الجمعة منه الساعة الثانية والثلاثين دقيقة بعد الظهر. ولما جاء الوقت حم الأمر وابتدأت الحرب واشتد على الفريقين الكرب وما علم السبب .

رأي زيتوني في الحرب :

قال: الحرب ابتدأت ولا بد أن تنتهي، إلا أن انتهاءها لا يخلو من اوجه ثلاث، اما بقلب احدى الدولتين على الاخرى قهراً أو بتسليم احداهما للاخرى دون قتال او يصلح بعد اجراء القتال . والآن ما يقرب[1] من السبعة أشهر والحرب قائمة على ساق لم يظهر وجه من الأوجه المذكورة .

---

(١) ليست سبعة اشهر .. بل استمرت ربع قرن ويزيد من معارك الهاني بطرابلس ١٩١١ ومعارك الجبال والوديان والشطوط والمشرك والقرضابية الى احتلال الجغبوب عام ١٩٢٦ م . كل شبر من أرض ليبيا ارتوى بدم الشهداء في سبيل الحرية .

الظالم مغلوب :

ويظهر لي شيء وسيكشفه المستقبل ان شاء الله ان الظالم من الدولتين هو المغلوب والمظلوم هو الغالب والفائز، بالنظر لأن الخلاق الحكيم سبحانه وتعالى من رب كريم عالم بأسرار عباده ومنصف المظلوم ممن ظلم، اخبرنا على لسان انبيائه الكرام في كتبه السماوية التي لا يدخلها الباطل من بين يديها ولا من خلفها تنزيلاً من حكيم حميد بأن الظالم لا يفلح ولا ينجح ولا يفوز، وعاقبته النكال والوبال والعذاب الاليم . قال الله تعالى (ان الظالمين لهم عذاب اليم) (وان الانسان لظلوم كفار) الى غير ذلك من الآيات، والظلم جبلة من طبع البشر الا من عصمه الله . قال ابو الحسين المتنبي :

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم

وبالاستقراء والتتبع انه ما وجد ظالم في هذا العالم الفاني الا بدد الله شمله وفلّ عزمه وأخذه أخذ القرى، وان امهله احقاباً طويلة. ومن تتبع تاريخ هذا المعمور مما مضى من سالف قرونه الغابرة ودوله العابرة علم حكمة الله وللظلم أنواع أعظمها اللصوصية .

اللصوصية :

لا يخفى على كل ذي عقل سليم ان أقبح شيء على وجه البسيطة السرقة التي جزاؤها من الله تعالى قطع يد السارق وإهانته بذلك بين عباده وفي أرضه وبلاده . قال بعض العلماء ان اللص تتوغر عليه قلوب العباد لا تستقيم أحواله الدنيوية ولو كان ذا قوة وبأس لأن الله ساخط عليه .

من انواع الظلم الغدر :

ومن أنواع الظلم الغدر . أجمع أمم العالم على أن الغدر من أقبح الخصال الذميمة وأن ربه لا يفوز بالغلبة والاجلال وإن مكنه الله بالفوز مدة فذلك على سبيل الاستدراج فإن قلوب الخلائق متنافرة منه، وهم منه بالمرصاد إلى أن

يمكنهم الله بفرصة الانتقام منه ، فينسفونه نسف الرياح العاصفة للرمال . قال الله تعالى (وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون) .

الغصب بلا وجه شرعي :

ومنه الغصب بلا وجه شرعي وهو من باب السرقة جهراً فإنه وإن تمتع به مرتكبه أحقاباً من الزمان فإن قلب الغاصب وفؤاده يظلان خافقين مرتعدين مما ارتكبه خصوصاً إذا كان يعلم عدل الحكيم الخبير الذي لا تخفاه خافية ولا تأخذه سنة ولا نوم ، وإن كان طبيعياً فإن الطبيعة نفسها تغير على المظلوم كما في عقائدهم . إذا علمت هذا فلتتحقق ان من ارتكب تلك الخصال الذميمة في أرض الله التي خولها لعباده ، فإنه سيُغلب قطعاً ويرجع بخفي حنين. هذا من جهة العدل الإلهي الذي أساس الله به عباده في أرضه وبلاده ولا يحسب الانسان أن بني آدم كالانعام يصيدها صاحب السلاح حيث وجدها فإن ذلك تجرؤ على الحاكم العدل الذي برى النسمات وكرم بني آدم على سائر المخلوقات والله قريب مجيب دعوة الداعي إذا دعاه . أما من جهة العقل الصرف فإني أرى أيضاً أن النصر للترك والعرب لأسباب كثيرة .

اسباب لانتصار الترك والعرب :

السبب الاول : ان العنصر الاسلامي بشره القرآن المجيد وهو كتابه المقدس الذي فرض الله عليه اعتقاده وعدم مخالفته المنزل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم للإعجاز بسورة منه ، المتعبد بتلاوته . بأن المجاهد في سبيل الله لا يموت لقوله تعالى « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون » وان له الجنة لقوله تعالى « ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والانجيل والفرقان » . وفضل المجاهد في سبيل الله معلوم في السنة خصوصاً وقد صار الآن فرضنا عليهم لهجوم العدو على بلادهم . فكل مسلم على وجه البسيطة يود لنفسه أن يموت مجاهداً أمام افواه المدافع والبنادق النارية والجنة مفتوحة

ابوابها في ذلك المكان. وعند هجومه على العدو تتعلق نفسه الكريمة بالعـالم العلوي وتتجرد عن العالم السفلي وعن حطامه فلايكون نصب عينيه الا ملاقـاة ربه الكريم في دار الفوز والنعيم لتي اشتراهـا ببذل نفسه في الذب عن دينه ووطنه. ومن لا تكن هـاته عقيدته فلا ينخرط في دين الاسلام ، ولا يعد محمدياً بين الانام . وهاته الصفات الكريمة التي خصنا بها الرب الرحيم لم توجد عند غيرنا من الامم فإن غالب جيوشهم عند الزحف والمقابلة للعدو تكون مفقودة لحاسة العقل مما غطى عفى فكره من استعمال الكحول حـالة الزحف ويتعاظم خوفه لمفارقته لهذا العالم المزخرف المحفوف باللذات التي سيفارقهـا حتف انفه ضرورة أنه لا يعتقد الأنتقال منه الى دار البقاء والعيش الدائم والنعيم السرمدي الذي لا يبلى .

السبب الثاني . ما اعلمنا الله به على لسان حبيبه وصفيه في قوله عز وجـل (يا ايها النبي حرض المؤمنين على لقتال ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وان يكن منكم مائة تغلب الفا من الذين كفروا فانهم قوم لا يفقهون الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فان يكن منكم مائة صابرة تغلب مائتين وان يكن منكم الف تغلب ألفين بإذن الله والله مـع الصابرين) . اذا علمت ان هـذا اعتقاد كل مسلم فالتحقق ان الجيش الاسلامي لا يعبؤ بكثرة جيش العدو خصوصاً اذا استوت الاسلحة .

السبب الثالث . ان جميع العرب اهـالي القطر الطرابلسي تمامـاً ومن جاورهم من اطراف الصحراء والسودان والتـوارق ومن تبعهم يرون ان من لم ينخرط في سلك هاته الحرب التي صارت فرض عين على جميعهم حيث حل العدو بلادهم فانه ليس بمسلم كامل ، واشتهرت هاته العقيدة بينهم حتى اصبح من لم ينخرط في الحرب منبوذاً بينهم لا ينظر له بعين الأعتبار والعرب تأبى الضيم ولا تتحمل هاته الصفة الذميمة فـلا بد ان ترى جميعهم حول القتال الى آخر قطرة من دمائهم خصوصاً السادة السنوسيين الذين طيبوا روائح الصحراء بعبير اعطارهم الوردية واستمالوا قلوب العباد بأذكار طريقتهم المحمدية .

السبب الرابع : أن الأمة الواحدة إذا كانت متمكنة بأرضها ومساقط رؤوسها وحاربتها أمة أخرى فإن الأمة البادية بالحرب تكون أقل حماسة وأضعف انتصاراً جبلة مركوزة في طباع البشر فلو تتبعت حروب البشر وجدتها قاعدة قلما تختلف الا إذا كانت القوة عظيمة جداً وان الدولة المتسلط عليها ضعيفة بالنسبة الى المتسلطة. وانظر لحرب الدولة الطليانية مع الحبشة تتحقق ما قلناه والنصر بيد الله ، يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

السبب الخامس : إن الديانة الاسلامية مبنية على الاتحاد الحاصل به الترقي لسلم السعادة . قال الله تعالى (واعتصموا بحبل الله جميعاً : ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم) الآية. وقال صلى الله عليه وسلم (المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً) .وقد رأينا بحمد الله أن العرب والترك اشتدساعدهم بارتباطهم ببعض بعضاً حتى صاروا كالحبل المجبور الذي لا تقدر القوة البشرية على تمزيقه وكالبنيان المرصوص الذي لا تهدمه الصواعق النارية .

السبب السادس : إن هواء الصحراء غير ملائم لأبدان الاورباويين الناعمة التي لم تتعود على سموم رياحها القاتلة ومياهها الرديئة الهالكة ورمال قفارها الشاسعة ورمضاء تنايفها الواسعة وحجر جبالها القاحلة. وعيون أثمارها المالحة. وشموسها النارية وأمراضها الصيفية وهي في الحقيقة ليس بمألف للعباد قلت لبعض أهلها يوما ممن عرف الأدب وتحنك بمعرفة دقائق لسان العرب أن أرضكم قطعة من جهنم فأجابني في الحال :

وكذا ألفناها ولم تك مألفاً   وقد يؤلف الشيء الذي ليس بالحسن
كما تؤلف الأرض التي لم يطب بها   هواء ولا ماء ولكنها وطن

فقلت له صدقت والله درك بما نطقت .

فكم مسني فيها من لغوب بين مراحل تلك المسالك والدروب وكم اغتالت بدني الحمة . حتى ابيضت اللحمة . والحمد لله على سلامة العاقبة ، من الخلوص من أغرار تلك الصحارى القاطبة » .

يا بن الكرام الا تدنو فتبصر ما حدثوك فما راء كمن سمعا

ومما قلته اثناء سياحتي في تلك المجاهل . وبين تلك الشعوب والمناهل تحذيراً لأرباب الأسفار ومن قدر الله عليه بجوب تلك الديار —

تحذر اذا ما بليت بتربة بصحراء غات أو بمجهل خندق
ولين لاعراب الفلاة تكلما باحسن اسلوب وافصح منطق
وجانب رعاك الله اثماد جفرة وشمس بساط القاف ذات التحرق
وافعاء ودان وعقرب زكم وتخمة فزان وحمة مرزق

ماذا وراءك يا عصام ان ساعدتك الايام وقد جرت عادة الله أن كل من دخل الصحراء من المسافرين لا بد ان يمرض بالحمى مرة واحدة ولو كان رفيقه جالينوس وفي الغالب هلاك من لم يتعود السفر فيها لكن اذا سلمه الله لطول عمره لم يمرض بعدها وهذا امر معروف عند أهل الصحراء لا يكاد يختلف. وعندي من أبعد البعيد ان تخاطر الامة الطليانية بالاذن لأبنائها بالتوغل في تلك المفاوز وحينئذ فلا ريب من وقوعها في حبال أسود ضارية عارفين بانجاد البلاد وأغوارها ومتعودين على الالتصاق بجيوبها و لتمرغ باحقاف دروبها ومن ذلك خلقوا ومنها ارتزقوا وعلى ذلك فالذي يظهر ان الطليانيين ستبقى تحت ظلال الجدران التي احتلوها وبمدافع اسطولهم حصنوها والعرب والترك في الفدافد التي ألفوها والحرب قائمة على ساق الى يوم التلاق .

السبب السابع: ما أشار إليه المسيو «أبو» الانكليزي الكاتب لبعض جرائد اوربا المعتبرة مثل جريدة (الديلي تلغراف) فقد نشرت مقالاً له قال فيها أنه بعد أن مكث بالمراكز التركية العربية من شهر ديسمبر الى يوم ١٨ مارس وقد قاسى هذا الصحافي المعتبر أتعاباً شديدة أثناء عودته اضطر عند مبارحته المعسكر العام العثماني لقطع مسافة بعيدة في الصحراء ضل أثناءها عن الطريق ووقع بأيدي العربان فسجنوه حيث لا يعرفون أمره ثم أطلقوا سبيله فعاد إلى بلاده من طريق الحاضرة التونسية وهاته المقالة حكى فيها ما حصل له من التأثر

أثناء إقامته بين المجاهدين وختمها ببيان رأيه في الحرب وحالة الجيشين المتحاربين بإنصاف . حاسماً لمادة الخلاف . وهاته ترجمتها حسبما وقفنا عليه في جريدة (الزهرة) الغراء نقلاً عن جريدة (مرسي) الفرنسية ، قال : قضيت نحواً من أربعة أشهر مع معظم القوات التركية العربية بالصحراء المكتنفة لمدينة طرابلس وذلك بقصد تأليف كتاب في الحرب ولما أفرغ من تحرير تأليفي يعلم العالم أشياء كثيرة يصعب التصديق بها لأن الطليان اذاعوا اخباراً كاذبة عن حقيقة أحوال الحرب كما اطلعت على ذلك عند عودتي إلى أوربا : قال وصلت الى المعسكر التركي العام بأكثر سهولة مما كنت أظنه وقد كانوا اخبروني في مدينة لندن بأن العربان يقطعون رأسي أو أن الطليان يقتلونني رمياً بالرصاص ومع ذلك فإن العربان ليس فقط لم يروموا قطع رأسي بمجرد ما تحققوا أني لست بطلياني ولكنهم عاملوني معاملة حبيب لهم . واما الطليان فإنهم لم يتمكنوا من فرصة القبض علي او إعدامي بالرصاص لهذا السبب البسيط وهو أنهم لم يخرجوا من خنادقهم واستحكاماتهم . والصعوبة الوحيدة التي لاقيتها هي السير في الصحراء سواء راجلاً او راكباً فرساً وأخرى جملاً وقلة الزاد في بداية الأمر . ولما وصلت للمعسكر التي وجدت به انكليزيين آخرين وهما المسيو سبيكين واوريفت والمسيو الون اوسكتير وقد قاسى هؤلاء الرجال عسر المعيشة بالصحراء واصيب الاول منهما بالهيضة (الاسهال) فاضطر إلى الرجوع الى تونس بقصد المعالجة ولما برىء من مرضه تماماً عاد الى المعسكر التركي وأما الثاني فقد كان مصاباً بالتهاب في الرئة . ولما غادرت المعسكر العام « بعزيزية » منذ بضعة أسابيع التحق بنا احد مواطنينا من جمعية الصليب الاحمر وضابطان انكليزيان أيضاً ولكنني لم أرهما بعد ذلك ، اما أعضاء بعثة الصليب الاحمر فإنهم وصلوا في وقت مناسب جداً لمساعدة الاطباء الأتراك والالمانيين الذين يعالجون الجرحى وأن الحمى بأنواعها أشد ضررا في الواقع من نار الطليان وأني أرتاب في أن الطليان لو قاموا بمجرد احتلالهم لمدينة طرابلس بهجوم عنيف على الساحل وداخل البلاد لتمكنوا بعد شهرين من امتلاك الوطن الجنوبي الى حدود الجبال لأن الأتراك

فقدوا في ذلك الوقت نفوذهم بإخلاء مركز الولاية والعرب المجندون فروا[1] من الجيش جميعاً حتى أن السكان الأهليين كانوا مستعدين للرضوخ بدون إهراق دماء. وفي الحقيقة كان في استطاعة الطليان نصب علمهم بمراكز كثيرة صارت الآن معسكرات تركية مثل عزيزية وعنزور وقد كان يلوح مدة اسابيع أن المقاومة مستحيلة ولكن من سوء حظ الطليان ان أضاعوا الفرصة المناسبة والذي يظهر جلياً من اعمالهم انهم كانوا استعدوا لالحاق طرابلس لا للاستيلاء عليها وأنهم اضاعوا الوقت في تغيير عوائد البلاد على الأوراق فقط بدل ان يحتلوها بحاميات عسكرية بحيث أن الهفوة التي ارتكبوها مكنت الاتراك والعرب من الالتئام مع بعضهم بعضاً . ولعمر الحق ان العساكر الأهليين أجابوا دعوة الدفاع بفكرة عجيبة ومن حيث الوجهة المادية فإن حالة الأتراك آخذة في التحسين بلا انقطاع بخلاف حالة الطليان فانها تزداد خطارة كل يوم منذ ابتداء الحرب وفي أول الأمر لم يكن للاتراك مال ولا زال غير أن إعانات العالم الاسلامي بتركية واوربا وآسيا ومصر وتونس والجزائر وغيرها لم تلبث أن تقاطرت عليهم من الحدود وزيادة على هاته الاعانات التي وردت عليهم من خارج الولاية فان أمطار هاته السنة نافعة جداً للعربان وقد رأيت بعيني الصحراء انقلبت مروجاً خضراء يانعة ترعى بها الغنم والمعز الكثيرة بطرابلس ومع ذلك فقد تركت الطليان للعرب الواحات المتعددة الوقت الكافي لتعزيز قوات الهلال ومن جهة أخرى فإن الطليان المحصورين بالمدن وضواحيها القريبة وأواسائر المواصلات مع داخل البلاد مقطوعة عنهم بحيث اضطروا لجلب جميع زادهم من اوربا ومن جهة أخرى يلزم ان تقدر نسبة المرضى في الجيشين بواحد للعشرة وبعبارة أخرى أن كل عربي يصاب بالحمى يقابله عشر طليان مصابون بها وذلك لأن العرب مخيمون بالصحراء وهواءها النقي يقيهم من أسباب الأمراض بخلاف الطليان فإنهم مضطرون للعيش في هواء

---

(١) لم يفر العرب انما كانت خطة الدفاع تحتم ان يتمركز الجيش والمجاهدون في مناطق الدواخل ويضمون شملهم استعداداً للمعارك . وكان التمركز اولا في « العزيزية » ثم دارت المعارك ومن اعظمها معركة « الهاني » والشط .

المدن المتعفن . وتزداد هاته الحالة خطارة لما يحل فصل الصيف بحرارته المهولة وريح السموم الخانقة ونزول رطوبة الربيع النسبية ولو تقدم الطليان في فصل الشتاء عندما كان الطقس مناسباً لهم وبينما كان غالب العربان المتطوعين مضطرين للبقاء بأوطانهم لمباشرة شؤونهم الزراعية لتقدموا شوطاً عظيماً ولكن قعودهم بداخل استحكاماتهم جعل أعداءهم على اعتقاد جبنهم وفشل عزائمهم وحيث كانت المسألة كما بينا فمن الممكن فيما يخص العرب ان تدوم الحرب الى ما لا نهاية له حتى لو فرضنا ان الباب العالي يضطر بعامل قلاقل الداخلية لإبرام الصلح [1] فإن العرب صرحوا بأن الصلح لا يغير شيئاً مما قرروه وقالوا اننا لا نرضخ للعدو الباقي على أرضنا ابداً وأن الضباط [2] الاتراك يصرحون انفسهم بأنهم يستعفون من خططهم ويدافعون القتال فيما اذا ابرم الصلح بين حكومتهم وايطاليا ولا أهمية كبرى لكون هذا القول صادراً من القليل من الاتراك والكثير لان الحرب عربية اكثر منها تركية . انتهت المقالة . فيظهر لك أيها القارى من غضون كلام هذا الرجل الاجنبي عن الجنسين ان الانتصار للترك والعرب اقرب منه للطليان.

(١) وفعلاً ابرم الباب العالي اتفاقية الصلح مع الطليان عام ١٩١٢ ولكن الشعب استمرفي الجهاد والنضال اكثر من ربع قرن وقدم نصفه على مذبح الحرية دفاعاً عن دينه وبلاده .

(٢) بقي فيصفوف المجاهدين من الضباط الاتراك جماعة مؤمنة مناضلة يذكرها تاريخ الجهادبكل اعتزاز أمثال - نوري - وأنور - واسحاق - وعبدالله تمسكت وغيرهم .. هؤلاء وأمثالهم جزء خالد من تاريخ البطولات والنضال .

حديث « أدهم » للصحافة

السبب الثامن . ما يستفاد من حديث أدهم باشا قائد القوات التركية العربية المحاصرة بطبرق ،وقد وقفنا على حديثه برمته مفصلاً وهذه ترجمته حسبما نشرته جريدة (الجون ترك) في عدده الصـــادر يوم ١١ أبريل سنة ١٩١٢ م ونقلته جريدة الزهرة بتروي وثبات لا يعتريه شك .

تحادث رصيفنا عبد القادر حمزة رئيس تحرير جريدة الاهــالي مع أدهم باشا قائد القوات العربية التركية امام طبرق وهذا القائد العام مقيم الآن بالاسكندرية وسيعود الى الآستانة في مدة قريبة وهو شيخ يبلغ سنه الستين عاماً وقد اضطر لمغادرة ساحة القتـــال عقب مرض اشتدت عليه وطأته أثناء إقامته ببلاد برقة وهذه ترجمة حديثه » .

الصحافي : ما هي حالة المجاهدين العثمانيين اليوم ؟

أدهم باشا : إن حالة القوات العثمانية مرضية اكثر مما كان ينتظر والذي صـــير حالة عساكرنا احسن من ذي قبل هو كون الطليان لا يخــرجون من خنادقهم الا في أحيان قليلة جــداً وأن غالب الأسلحة والذخائر الحربية التي لدى رجالنا أخـــذت من العـــدو وأذكر لكم بصفـــة خصوصية عربياً يدعى متموه من قبيلة بني مريم قـد تمكن في بعض الوقائع من قتل خمسة أنفار من العدو وعـــاد ببنادقهم الخمس وأن في هذا الصنيع برهاناً على بسالة رجالنا .

الصحافي : هل عرضت لكم صعوبات في حشد القبائل عند ابتداء الحرب ؟

ادم باشا : وصلت الى بلاد برقة بعد انقضاء ايام قليلة من اشهر الحرب وانا من الذين حشدوا القبائل البدوية ولقد يسرني كثيراً أن أصرح لكم بأن العرب لم يكونوا في حاجة لدعوتنا وأنهم أتوا إلينا طوعاً راغبين في قتال الاعداء الباغين بحزم قوي .

الصحافي : كم كان عدد العساكر النظامية العثمانية بطرابلس عند اشهار الحرب ؟

أدهم باشا : كان لا يتجاوز العشرة آلاف جندي في الاكثر . والآن يوجد في صفوفنا (أي درنة وبنغازي وطبرق) اربعة آلاف جندي نظامي (عرب متدربون على الفنون الحربية ومستخدمون في الصفوف التركية) ويمكن بحسب الضرورات دفع هذا العدد الى ستين الف باستدعاء المجاهدين من داخل البلاد وذلك بدون اعتبار المتطوعين الذين تأتي إلينا مئات منهم كل يوم .

الصحافي : هل فترت حمية العرب بعد المقاومة خمسة أشهر ؟

ادهم باشا : ارى أن حميتهم وعزمهم على القتال يتزايد بلا انقطاع بحيث أنهم يريدون الهجوم على الاعداء في كل حين وإنا لنضطر لمسكهم لئلا يعرضوا انفسهم للخطر بلا فائدة .

الصحافي : ماذا لديكم من الاخبار عن السنوسيين ؟

ادهم باشا : ان سائر القبائل السنوسيين متفقة مع العرب الطرابلسيين والاتراك من الدفاع عن الخلافة والوطن الى آخر قطرة من دمائهم .

الصحافي : هل وصلت قبائل سنوسية الى ساحة القتال ؟

ادهم باشا : نعم وصلت قبائل كثيرة الى ضواحي درنة وبنغازي اما السيد احمد الشريف شيخ السنوسية فإنه الآن بكفرة (غادرها بعد ارتحال ادهم باشا ووصل إلى جغبوب كما اخبرنا به بعد ثلاثة أيام [1]) وقد

---

(١) ما بين قوسين من الجريدة التي نشرت الحديث !

دارت بيننا وبينه مذ كرات وارسلنا اليه منذ ثمانية وعشرين يوماً بالتدقيق الجمال اللازمة لنقله الى ميدان الحرب ومن المحتمل ان يصل الى درنة في ظرف خمسة وثلاثين يوماً ليلتقي هنـــاك بقائد عموم القوات التركية العربية ببلاد برقة ويتفق معه في شأن الوسائل التي يجب اتخاذها، وسينتقي الشيخ السنوسي مكاناً يقيم به قرب المعسكر. وقد أمر القبائل التابعة له بالنهوض الى الجهاد والقتال بجانب العثمانيين وتوعد الذين يتمنعون عن ذلك بطردهم من طريقته .

الصحافي : هل لقيتم مشقة في تعليم العرب الفنون الحربية ؟

ادهم باشا : العرب مجاهدون بطبيعتهم ولذلك لا نجـد ادنى صعوبة في تدريبهم على الحروب العصرية. وإنا لنجد فيهم فطنة واستعداداً متأصلـين يحملان على اعتقاد انهم تخـرجوا من مكتب حـربي وأن غالبهم ليذهبون من تلقاء أنفسهم إلى الضباط ويسألونهم ان يكشفوا لهم اسرار استعمال الاسلحة والخدمة العسكرية زمن الحرب .

الصحافي: كيف وجدتم الحالة عند وصولكم الى درنة ؟

أدهم باشا: لم تكن الحالة حسنة بنوع خاص وقد احتل الطليان درنة وبنغازي وطبرق وتحول ولاة هذه المراسي الثلاث الى داخل البـلاد وتحصنت القبائل بالجبال. ولما وصلت يومئذ الى درنة اتاني الكومندان انور بك وبعد أن تعانقنا تفاوضنا من غير تضييع وقت ولم يكن معنا اذ ذاك الا ثمانية اشخاص فاتفقنا على ان يذهب انور بك الى درنة وأبقى أنا بطبرق ، ثم نشر كل منا علماً وتوغلنا داخل البلاد لزيارة القبـــائل وانتدابها للحرب فلبت دعوتنا بحيث تمكنا في مدة وجيزة جداً من جمع القوات التي منعت ولا تزال تمنع جميع القوات الطليانية من التقدم. ومن زعماء القبائل الذين أظهروا اشد حمية الشيخ المصري زعيم قبيلة (بني مريم) الذي استشهد أخيراً بميدان الشرف .

الصحافي: كيف كانت سيرة العرب مع انور بك ؟

ادهم باشا: ان العرب يحبون انور بك من صميم الفؤاد لأنه يوقرهم وخصوصاً أنه من أصهار اسرة السلطان عز نصره. ولزيادة استمالة قلوب العرب انخرط انور بك في سلك الطريقة السنوسية وصار من مقدمي الشيخ الأكبر الروحيين ولما وصل الى درنة كان لا يحسن كلمة واحدة من اللغة العربية وقد صار اليوم يتكلم بها جيداً .

الصحافي: هل بلغ العرب شيء من المذكرات بشأن الصلح ام لا وما رأيهم في ذلك ؟

ادهم باشا: اتفق ذات ليلة أن زعماء القبائل أتوا وأيقظوني بسرعة فرأيتهم منفعلين وشاهدت على وجوههم قلقاً شديداً فسألتهم ما الخبر فأجابوني بأنه بلغهم انه وقع عقد هدنة فأكدت لهم بطلان هذا الخبر وفي الحين تهللت وجوههم وصرحوا إلي بأنهم لا يريدون ابداً ان يسمعوا ذكر الهدنة ولا شيء آخر وأنهم وأطفالهم ونساءهم يريدون أن يقاتلوا الى آخر واحد منهم ولما لا يبقى احد في البلاد يمكن لايطاليا إذ ذاك أن تأخذ طرابلس ويقولون مع ذلك لا سمح الله . وهذا هو إحساس سائر العربان بلا استثناء .

الصحافي: هل يستطيع العرب مقاومة هذه الحرب زمناً طويلاً ؟

ادهم باشا: إنني لا أرتاب في كونهم يستطيعون تحمل الحرب الوقت الطويل اللازم سواء دامت الحرب سنة اوسنتين أو اكثر من ذلك .

الصحافي: هل أوقعت الطيارات الطليانية ضرراً بالمعسكر العثماني ؟

ادهم باشا: تأتينا الطيارات احياناً كثيرة غير أن أعمالها قليلة جداً وفي بعض الايام تعرفت بعض الطيارات خيمتي بكثرة الرايات التي كانت منشورة عليها فأرادت رميها بقنبلة ولكن القنبلة سقطت على مسافة ثلاثين او اربعين متراً من خيمتي وغاصت في الرمل دون ان تنفجر .

الصحافي: ما هي حالة الامن العام في البلاد في هذه الاوقات المضطربة ؟

ادهم باشا: ان العرب مخلصون جداً لفكرة هذه الحرب وان اخلاصهم متولد من إحساس التكافل بحيث لا حاجة للبوليس ولا بالعسكر لتحقيق الهدوء والأمن في البلاد ومما يجب ذكره ان قافلة تحمل عشرين ألف ليرة ذهباً بدون خفر من الجنود تمكنت من قطع المسافة التي بين السلوم ودرنة من غير أن يتعرض لها أحد .

الصحافي: ماذا كان تأثير الحرب على زراعة البلاد ؟

ادهم باشا: ان الصابة في هذا العام احسن بفضل الله منها في السنين الماضية وقد قسمنا السكان إلى قسمين احدهما يباشر الحرب والآخر يشتغل بالزراعة واقمنا شبه تناوب يسمح لنا بوجود عساكر مسرحين وللعساكر الذين جاهدو بترويض النفس يعد القتال بتعاطي أشغال الزراعة وقد دربنا النسوة على الزراعة بحيث انهن يساعدن الرجال اليوم وفي الواقع يمكن ان يقال ان الحرب تؤثر على زراعة البلاد رأساً.

الصحافي: ماذا لديكم من الاخبار عن الكومندان المصري عزيز بك [1] ؟

ادهم باشا: هو من احسن ضباطنا وهو الكومندان ببنغازي الآن وقد اظهر بسالة كبيرة في سائر الوقائع المهمة التي وقعت في هاته الايام الاخيرة.

الصحافي: إنكم غنمتم فيما يظهر ذخائر حربية كثيرة في المعركة الأخيرة ؟

ادهم باشا: صحيحاً أن الذخائر الحربية التي غنمناها بيعت في سوق عامة دامت مقامة عشرة ايام .

الصحافي: هل تقوم بعثات الهلال الاحمر بواجبها على غاية مايرام ؟

ادهم باشا: نعم وان لا يسعنا إلا شكرها واسمحوا لي هنا بأن أسدي عبارات الشكر للمصريين عما قاموا به من الاعمال للانسانية فانهم خدموا

---

(١) عزيز المصري المناضل المعروف وقد توفي في هذه الايام التي نحقق فيها هذه الرحلة رحمه الله ... وكانت وفاته ١٩٦٥ م .

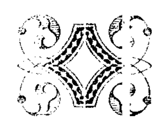
اخوانهم الذين يجاهدون بطرابلس بأعظم الخدمات وإن سائر المجاهدين لممنونون لهم .

الصحافي: يا حضرة القائد العام لماذا غادرتم طبرق ؟

ادهم باشا: قد أصابني مرض عصبي قبل اشهار الحرب ولما استعرت نيرانها لم أكترث بألمي واسرعت إلى طرابلس لاعتقادي أن الوطن محتاج إلي. وقد قضيت كامل وقتي بالرغم عن اوجاعي في مباشرة الحرب من جهة وتنظيم العرب وجلب الذخائر الحربية اليهم من جهة اخرى وبفضل الله بلغت الغاية من أملي . ولما رأيت ان الحالة تسمح لي بالاستراحة مدة قليلة لمعالجتي انتخبت القائم مقام محمد ناطم بك ليخلفني وهو من أحسن الضباط خبرة وأشجع القواد الذين بمعسكري ولي ثقة تامة به . (انتهى) .

السبب التاسع : عرض الجنرال « كنيفة » أثناء رحلته الاخيرة الى روما على حكومته بيانات تتعلق بالمضار التي تنشأ عن السير الى داخل البلاد خارج الاستحكامات الواقعة على أربعة او خمسة كيلومتر من الساحل في الاكثر عدى « عين زارة » التي هي أقصى النقط الامامية (كيلومتر ١١ من طرابلس) . ومن المعلوم ان خطوط الاستحكامات مقامة على تخوم صحراء شاسعة الاطراف كلها رمال يغوص فيها الانسان بسهولة كبيرة وليس فيها أدنى مسلك ولا طريق . ونظراً للصعوبات الشديدة التي يطول بيانها يلزم ان تكون عملية العساكر الطليانية بطيئة جداً وبالتالي تكون الخسائر على الرجال عظيمة لا محالة ؛ فهذا هو الأمر الذي يريد الملك فكتور عمانويل والحكومة اجتنابه . ثم لأي غرض يخاطرون بالجيش على أن إبادة القوات التركية العربية تكون مستحيلة دائماً لان تلك القوات تنتقل بسرعة كبيرة وهي المالكة للبلاد بلا منازع ثم ان الهجوم لا يأتي بنتيجة كبيرة لايطاليا بل يكلفها خسائر جمة . ولقد ادركت الحكومة الطليانية هاته الامور كلها ومن جهة أخرى فان السنيور جيوليتي الذي يلقون على

عاتقه مسئولية التعطيل لا يرتكب حالة من المهارة مثل هـاته الهفوة المشؤومة التي كانت صدرت من « كريسمي » أثناء حرب الحبشة . والخلاصة أن الجنرال كنيفة مكلف وحده بإجراء البرنامج العسكري وللحكومة ثقة تامـة به بحيث أبقته في قيادة الجيش بالرغم عن كون، حالته الصحية صارت مخطرة جـــداً منذ مدة قليلة .



خاتمـــة

خاتمة المطاف ، وفاتحة الالطاف :

والى هذا نمسك عنان القلم فيما يتعلق بذكر الحرب وسيكشف لنـا المستقبل ان شاء الله عما يريده الله سبحانه وتعالى وتسطر في سابق علمه من نصر احدى الدولتين او الصلح بينهما وإلى الله يرجع الأمر كله انه العلام الخبير . ولنختم هذا الكتاب بما ستكون له مكانة عالية عند ذوي الالباب الا وهي قصيدة فلسفية . توحيدية . أصولية . طبيعية . حربية ، حمـاسية . كشفت عن طبيعة الدهر والزمان وأظهرت ما كان مركوزاً في طبيعة بني الانسان . نظمتها عقوداً درية لنحور ذوي الادب وأجريتها خندريساً لألباب ابناء العرب يزدان بهذا التأليف الذي لم يحتو الا على القليل من الاخبار والنزر الضعيف من عيون الفوائـــد والاشعار، وإلى أهل القريض استهديتها وأعيان كتاب العصر أهديتها ، ونطلب من الجميع غض الطرف عما عسى ان يقع من نقصان كلمة أو حرف ، فهاكها اليكم والذي ملأ الدنيا يكفيكم :

بحر المعارف في ذا العصر قد دفقا	ولم انل جرعة اطفي بها حرقا
تشتت الفكر مني في تطلبهـا	وما ظفرت بشيء سد لي رمقا
ان قلت قولاً لحنت في تصرفه	أوصغت شعراً يقول الناس قد نزقا
او صرت من بلد أسعى الى بـلد	ما نلت غير لغوب سامني هنقـا
وإن حللت من البيـــداء شاسعة	تبيعني أهلها بيع البرا صفقـــا
وإن أقمت على الأطلال يغبطني	عن رشفة احتسيها بعض من نفقا
أو نلت مرتبة عليا يحسدني	عن نيلها من بإحساني إليه رقـا

او كنت بين عظيم الناس عظمني ... وربما إن برحت صار لي علقا
والدهر يبعدني عن كل فائدة ... اسعى إليها ويدنيني لمن ربقا
ورب يوم نصحت من يطاوعني ... فكان نصحي له ان سد لي طرقا
بسطت كفي مراراً للعدا كرماً ... فازداد طغيانهم في جانبي ذلقا
فأينعت بالحشا مني حشاشته ... بماء حلم يسح الدهر ما رتقا
وكلما وهنوا عزمي اكتسى نشطا ... وكلما فللوا حزمي غدا [1] ....
والناس طراً بني الدنيا ذوي دخل ... في كلما سلكوا احدثوا نفقا
ولم أر سبباً الا طبيعة من ... قد كرم الله اجلالاً له الخلقا
تجري الامور على ما سطرت قدماً ... في لوح من نظم الاسباب وانتسقا
يا ابن الذي علم الاسماء اجمعها ... ولم يغادر من المعمور غض نقا
لا زلت تكدح والافكار طالبة ... ما أن يخول ابناء الزمان بقا
استغفر الله من قول بلا عمل ... قضى الاله بإعدام الورى وبقا
تفري البحار بسابح له ذنب ... في طيه ما اعد للذي نفقا
يظل منه عباب اليم في وجل ... خوفاً على نفسه من هوله الغرقا
ويقطع الارض مشاء على عجل ... صبحاً تراه كثعبان الفلا سبقا
حتى إذا جن جنح الليل تحسبه ... شهاب افق هوى الرجم فاحترقا
العلم أصبح شيئاً لا يعادله ... سيف ولا حازم كالليث إن دلقا
اخالف الناس في شيء وأتبعهم ... في كل ما لم نر في طيه زلقا
العلم افضل شيء في الأنام به ... رأيت ملكاً كبيراً للذي حذقا
لذاك ابناء هذا العصر أجمعها ... لا يبتغون سوى إحرازه طرقا
والعلم علمان علم دين اوله ... وعلم مرتبة الدنيا لمن لبقا
« ما احسن الدين والدنيا اذ اجتمعا »
أقبح الكفر والافلاس والملقا
والمال مرتبة علياء ثنية ... وما سوى ذاك هل تسعى به ورقا

(١) كلمة ناقصة قد سها عنها الكاتب التي نقلنا عنها على ما يبدو.

الله حببه للناس قاطبة طبعاً وصيّر في أخلاقه خلقا
أجرى على اليم أعلامـاً تماثلهـا حوالق الألف إرهاباً لمن نفقا
لولاه ما نلت جي البيت معتمراً كلا ولا زرت قبراً طيبه عبقا
ولا تسوحت في أرض الحضارة كي ترى عباب علوم العصر قد طفقا
وهو الذي احكم الأشياء صنعتها وشادفوق جيوب الأرض ماتسقا
وهو الذي قرب الاقصى فصيره دان ومهّد من معمورنا طرقـا
وهو الذي مد سلكاً يخاطب من ظل بأقصى بـلاد الله مرتزقا
وهو الذي احكم الآلات ثم غدت تجري على غير سلك في الورى[1]
لولاه ماصرت تمشي في الورى مرحاً لولاه ما قطعت كف لمن سرقا
لولاه لولاه ما قد صرت مصطبحاً لولاه لولاه ما أمسيت مغتبقا
قد علمتنا تجاريب الزمان فلم نسعى إلى غير صفر تطرد الملقا
يا ابن الذي كرم الرحمن خلقته وصاغه من أديم تربه شرقا
بالعلم والفكر قد خصصت تكرمة فصرت تمشي الى حوز العلا عنقا
ما دمت تظلم لا عمران يغمرنا والظلم فيك طباع تكتسي حنقا
النمل أشرف عند الله منزلة من ظالم عاش في أرض بها ارتزقا
والله يمهله حقباً ليأخذه أخذ القرى حتى لن يبقى له رمقا
ولو انصف الناس عاش الخلق كلهم ولم تجد قيد شبر بالدنا معقا
من حاد من طرق شرع الله بشره فسوف يلقى قريباً في الورى هنقا
ظل الغني بأرض الله منبسطاً يدوخ الارض جبراً بالذي ملقا
لم تكفه الارض طولاً أن يسير بها حتى اهتدى سبباً كالباز أن نعقا
لا زال يكدح حتى صار مرتقباً بعلمه لسعود الافق معتنقـا
تبيت فلسفة التدبير منه على استنباط ما يسلب الارواح والعلقا
وما تدك به هام الشوامخ من صواعق صيّرت رأد الضحى غسقا

---

(١) يلاحظ ان الكلمة في آخر الشطرة لا تتفق مع القافية

في حشوها ماعلى فيزوف[1] من لهب ... ان مس أرضاً غدت أجسامها فرقا
ومثل ذاك سلاح صاغه بشر ... بحسن تدبير أفكار بها حذقا
كأنما صنعة للقدر خصصه ... وللعناء وإعدام النهى شققا
ما يصنع المرء إلا لابن جلدته ... صنع الذي جرب الاشيا وما هتقا
فهو الذي مثل دود الخز ينسل ما ... به يموت لدى اوكاره قلقا
أفنت حروب الورى ما ليس نحصره ... عداً فضاع من المعمور من نطقا
وظل جنس بني الانسان في تعب ... حيران يغتال في أبعاضه قلقا
كالحوت يأكل حوتاً دونه شططاً ... وما تنبه فكراً للذي خلقا
ما دامت الحرب بين الناس جارية ... لا راحة تجتنى كلا لمن تبقا
لم تفتكر في انعدام الحرب طائفة ... في عالم من بني حواء قد ثبقا
هـذا التهور هذا الظلم في زمن ... يم المعارف في أيامه دفقا
أليس ذاك وباء في الأنام وهل ... يبقى وباء بعصر علمه انتسقا
كاد الطبيب بأن يحيي الرميم به ... ويسمع الصم طراً بالذي نطقا
ودقق العالم النحرير فلسفة ... يشق من جهل نورها قلقا
ما كان أحوجنا يوماً إلى ملك ... يحمي حماه بني الانسان مرتفقا
الحرب يبطلها والسيف يهدمه ... والجيش يبعده عن كل من صلقا
بذاك يبقى زمان العلم ملتئماً ... ولو تفرق شمل النجم ما افترقا
قدماً ملكنا من المعمور ما اتسعت ... أرجاؤه من بقاع سوقها نفقا
ورفرفت راية الدين القويم على ... قصور كسرى وما عبد لنا أبقا
تلك الليوث التي داست بأرجلها ... ملوك قوم بها رحب الفلا أزقا
تلك الغطاريف ارباب العمائم من ... طارت قلوب العدا من باسهم فرقا
لم تبق الا سطور من مآثرهم ... من بورة يجبين الدهر ما سبقا
وليس ينفع صاحي كان لي شرف ... ولا ملكت الورى في حقب من سبقا

---

(١) يشير الى بركان جبل فيزوف بإيطاليا وهي نار مشتعلة دائماً !

هل ينظر الحر فينا اليوم مافعلت ... بنا الذين عتقنـــا رقهم شرقا
ويرحم الله منا ابن الفرات [1] ومن ... سل ابن اغلب من قاد العدا فرقا
لو قيل لي : ما تمنى اليوم في زمن ... طلق المحيا ازان الارض والافقا
لقلت : نصراً عزيزاً للذين لهم ... بعد المهات حيــاة وامتداد بقا
الواقفين على الدعقـــاء في بلد ... تحمي حماه بسيف حده ذلقا
والبائعين الى الرحمن انفسهم ... بجنة احرزوها عفة وتقى
تغدو المدافع في آذانهم نغمـــاً ... يطربن أحزاب من يوم الوغى دبقا
وليس تخشى على عليا طرابلس ... فهي التي علمتنا قتل من سرقا
وهي التي نبهتنا للملاحم كي ... نصمي العدو إذا ما أرضنا طرقا
واليوم نطعمه من بأسنا رغداً ... واليوم نسقيه كاسات الردى دهقا
واليوم نطويه طيات السجل ولن ... نبقي على الارض دياراً بها لزقا
والحق والعقل والأجفار تنصفنا ... والعدل ان كان في هذا الزمان بقا
وليس نمنحهم صلحاً يسروا به ... الا إذا اخرجوا من أرضنا فرقا
قوم لقد طالما داست معالمهم ... اقدامنا وعفونا عنهم شفقا
فابن المزلق أغنى الناس عندهم ... وشمت أشجعهم ما بيننا طبقا
شتان ما بين قوم لن يروق لهم ... بعد الذهاب من الدنيا دوام بقا
وبين من باع نفساً واشترى خلدا ... بها وصريح كتاب الله قد نطقا
القائلون لدى آساد ملحمة ... الموت الموت حتى لن نرى رمقا
والدين بشرهم في قول سيدهم ... وهو الذي نالهم فوزاً ومرتفقا
فصرت بالرعب مكتوب على علم ... هلاله في أحشا أعدائنا خفقا

ابتهال الى الله :

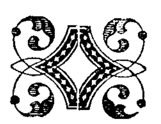
عن سعيد بن الحسن عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . (ليس شيء اكرم على الله من الدعاء). وعن جعفر بن محمد بن

---

(١) يشير الى البطل الفاتح الشهيد « اسد بن الفرات » فاتح صقلية .

ابيه عن علي بن ابي طالب رضي الله عنه : احب الاعمال الى الله تعالى في الارض الدعاء . ومن النعمان ابن بشر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (الدعاء مخ العبادة) ؛وقال : (رأس العبادة الدعاء) ، ولئن يدعو الانسان من صباح إلى مساء خير له من أن يحمل على جياد الخيل من غدو الى مساء ، وكفى بقول الله تعالى (وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعاني) وقوله تعالى :ادعوني استجب لكم. وحيث أمرنا بالدعاء ووعدنا بالإجابة فلنبتهل في ختم هذا الكتاب الى من إليه الإنابة. اللهم إنا نسألك بعظمة هيبتك الباهرة وسطوة عز جلالك القاهرة ان لا تسلط علينا جباراً عنيداً ولا شيطاناً من الجبابرة مريداً . ولا ضعيفاً من خلقك ولا قوياً عشا في ملكوت أرضك واطمس على وجوه اعاديك الباغين . شاهت الوجوه وعنت الوجوه للحي القيوم وقد خاب من حمل ظلماً. حم الأمر وجاء النصر فعلينا لاينصرون. إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً وينصرك الله نصراً عزيزاً . الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم . ستر العرش مسبول علينا وعين الله ناظرة إلينا . بحول الله لا يقدر علينا ، والله من ورائهم محيط . بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين. اللهم نوّر بالعلوم قلوبنا وأشغل بالاعتبار أفكارنا . وأجرنا من وساوس الشيطان حتى لا يكون له علينا سلطان . اللهم اعوذ بك من شماتة الأعداء . وخيبة الرجاء. ومعضل الداء. وزوال الصحة. وفجأة النقمة . ونسألك اللهم تدمير الظالمين . وانصر من نصر الدين . برحمتك يا أرحم الراحمين. وصلِّ اللهم على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين وإمام المرسلين وعلى آله وأصحابه الطاهرين وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

حرره الفقير لربه محمد بن عثمان الحشائشي الشريف المكلف بتفقد خزائن الكتب العلمية بالجامع الأعظم جامع الزيتونة ادام الله عماره بتاريخ [1] يوم ١٤ السبت من جمادى الاولى عام ٤ الموافق ١٩١٢ (٢٧ أبريل) .



(١) هكذا وجد بالنسخة الاصلية التي بخط المؤلف ولقد راجعنا التاريخ العربي بتطبيقه على التاريخ الافرنجي المذكور بعده فوجدنا ٢٧ ابريل١٩١٢ توافق١٠ جمادى الاولى سنة ١٣٣٠هـ فيكون ١٤ جمادى الاولى يوافق أول مايو ١٩١٢ واما رقم ٤ المذكور بعد كلمة عـام في هذا التاريخ فلم نهتد الى المراد منها وعلى أي حال فالمفهوم من التقريظين اللذين أنشأهما المؤلف نفسه وأحدهما في صدر الكتاب والآخر بالصفحة رقم ١ ان الفراغ من تأليفه كان ١٣٣٠ هـ وفي السنة التي توفي فيها المؤلف كما ورد في كلمة حسن حسني عبد الوهاب التي أثبتناها في صدر الكتاب .

ع. م. المصراتي

فهرس

صفحة

فهرس الاعلام

ب

ت

ج

غ

ف

فهرس البلدان والاماكن

ب

ح

خ

د

ق

ك

ل

م

ن

ه

و

ى

فهرس القبائل والشعوب

فهرس الكتاب

م

ن

و

كتب ومؤلفات علي مصطفى المصراتي

العنوان	الناشر	السنة
١ – أعلام من طرابلس	مطبعة ماجي – طرابلس	١٩٥٥
٢ – لمحات أدبية عن ليبيا	المطبعة الحكومية – طرابلس	١٩٥٦
٣ – ابراهيم الأسطى عمر – شاعر من ليبيا	دار الكشاف – بيروت	١٩٥٧
٤ – جحا في ليبيا	مطبعة ماجي – طرابلس	١٩٥٨
٥ – صحافة ليبيا في نصف قرن	دار الكشاف – بيروت	١٩٦٠
٦ – غومة – فارس الصحراء	مطبعة الغندور – بيروت	١٩٦٠
٧ – أبو قشة وجريدته بطرابلس كفاح صحفي	» » – »	١٩٦١
٨ – المجتمع الليبي من خلال امثاله الشعبية	المكتب التجاري – بيروت	١٩٦٢
٩ – مرسال – مجموعة قصص	» » – »	١٩٦٢
١٠ – احمد الشارف – ديوان ودراسة	» » – »	١٩٦٣
١١ – بن حمديس الصقلي	سلسلة «اقرأ» دار المعارف	١٩٦٣
١٢ – نفحات النسرين والريحان فيمن كان بطرابلس من الأعيان لأحمد النائب – تحقيق ودراسة	المكتب التجاري – بيروت	١٩٦٣
١٣ – الشراع الممزق – قصص	دار الكتاب العربي – القاهرة	١٩٦٣

١٤ـ حفنة من رماد	مطبعة الغندور ـ بيروت	١٩٦٤
١٥ـ اسد بن الفرات ـ فاتح صقلية	القاهرة	
١٦ـ سعدون ـ البطل الشهيد	المكتب التجاري ـ بيروت	١٩٦٤
١٧ـ رحلة الحشائشي الى ليبيا [جلاء الكرب عن طرابلس الغرب] تحقيق ودراسة	دار لبنان ـ بيروت	١٩٦٥

قيـــد الطبع لعام ١٩٦٦

١٨ـ فنون الأدب الشعبي في ليبيا	المطبعة الحكومية ـ طرابلس
١٩ـ صور نفسية	دار النشر الليبية ـ طرابلس
٢٠ـ ابن الطفيل وفلسفته	» » » ـ »
٢١ـ معركة الهاني وشاطىء طرابلس	دار لبنان ـ بيروت

طبع على مطابع
دار لبنان
للطباعة والنشر
بيروت ـ ص ب ٥٦٢٠ ـ هاتف ٢٩٣٠٤٣

٥٨٦ / ١٢ / ٦٥